المزامير الروحية

www.christianlib.com

القديس افرام السوري

المزامير الروحية

لأبينا القديس أفرام السوري

جمعها ونسّقها
القديس ثيوفانس الحبيس الروسي

ترجمة
د. عدنان طرابلسي

جميع الحقوق محفوظة للمؤلف

طبعة ثانية - ٢٠٠٥

الفهرس

صلاة ٧
إهداء ٩
خريطة ١١
التمهيد (بقلم د. عدنان طرابلسي) ١٥
المقدمة (بقلم قدس الأب اسبيرو جبور) ٢٣
المزامير الروحية ٣١

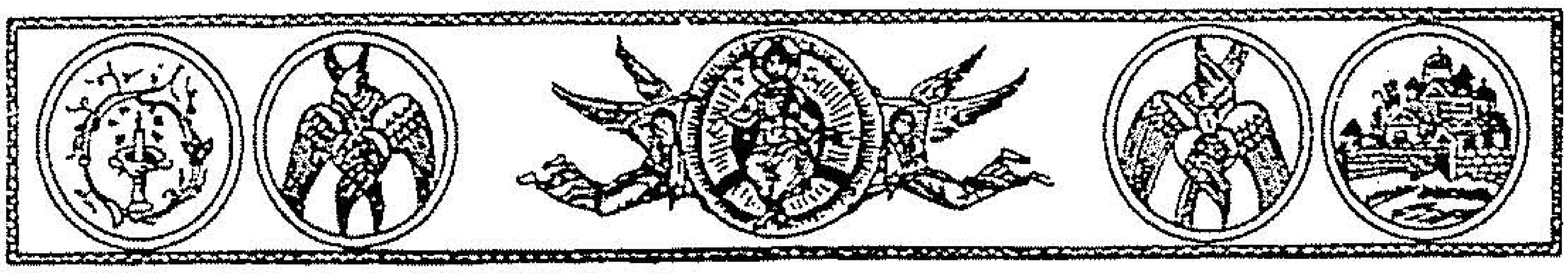

أيها الرب وسيد حياتي!

أعتقني من روح البطالة والفضول وحب الرئاسة

والكلام البطّال. أنعِمْ عليّ أنا عبدك الخاطئ

بروح العفة واتضاع الفكر والصبر والمحبة.

نعم، يا ملكي وإلهي،

هَبْ لي أن أعرف ذنوبي وعيوبي وألاّ أدين أخوتي،

لأنك المبارك والممجَّدُ إلى دهر الدهور. آمين.

(القديس أفرام السوري)

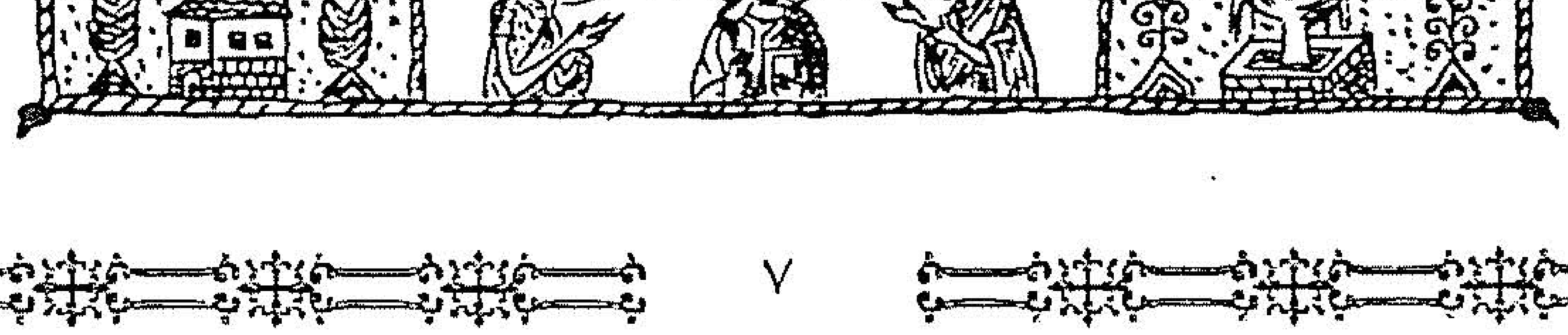

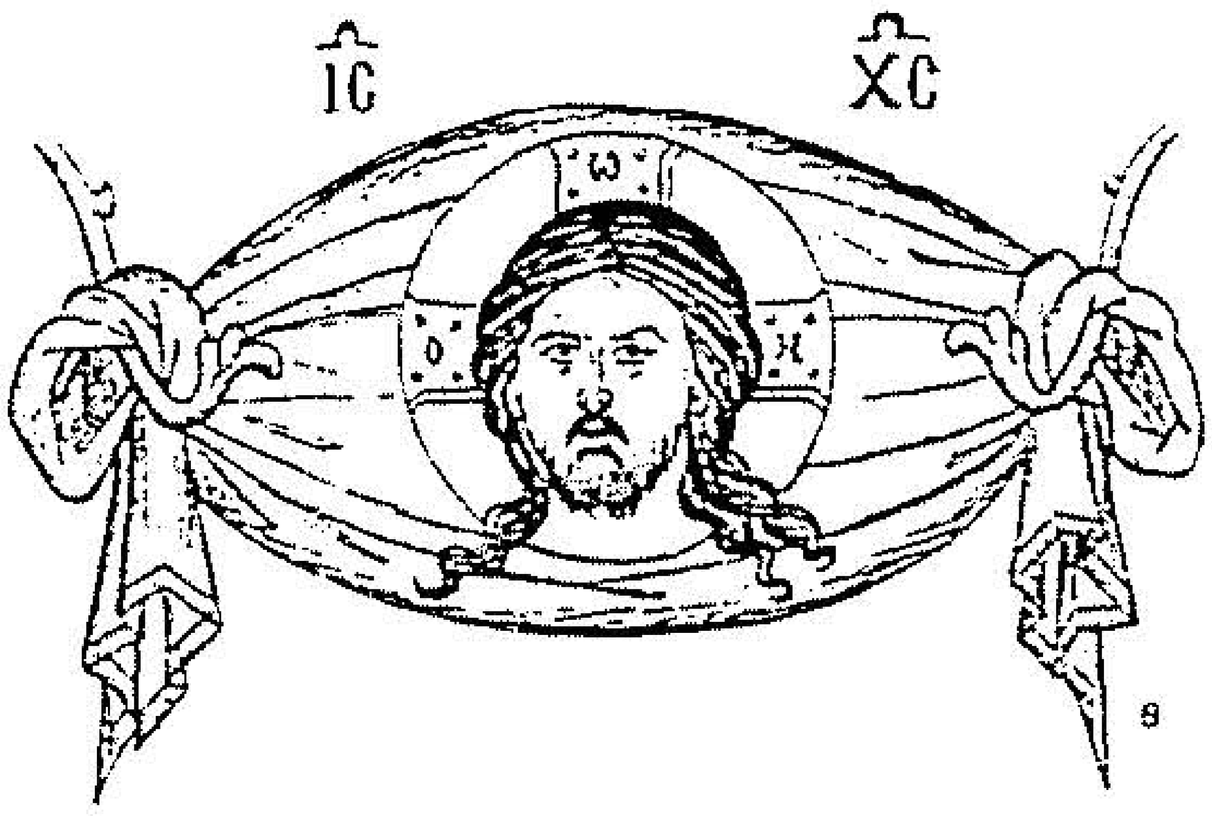

الإهداء

إلى عشّاق الله وخلاّنه، الذين يتهامسون ويتكلمون معه كما يكلّم المرء صديقه؛

إلى الذين نذروا العفة والفقر والطاعة والصلاة والتوبة والدموع خبزاً جوهرياً لحياتهم؛

إلى الذين يعلّموننا كل يوم شيئاً جديداً عن الثالوث القدوس، بالكلمة، بالفعل، بالمثال، وبالصلاة،

إلى جميع هؤلاء أقول:

"التي لكم، مما لكم، أقدّمها لكم"

لتذكروننا في صلواتكم وجهاداتكم، ليقدّسنا المسيح الإله، ويجعلنا مواطنين في ملكوت محبته

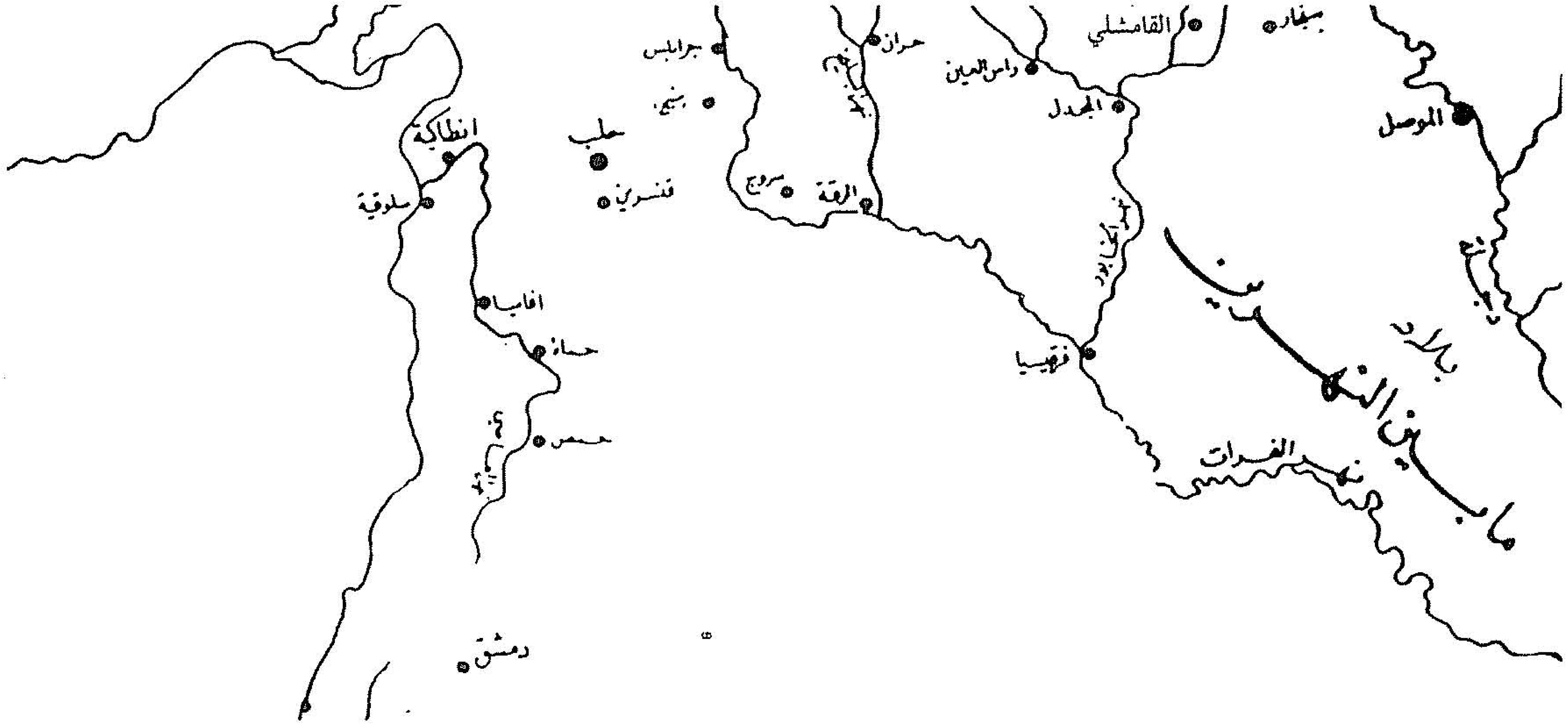

«خريطة المناطق الجغرافية أيام القديس أفرام السوري.

انظر الشرح المرافق في الصفحة المقابلة».

«نصيبين إلى قرب القامشلي على نهر مكدونيوس، الذي يصبّ في نهر الخابور. الرها (أورفا حالياً وأوديسا بالأجنبية) على نهر البليخ الذي يصبّ في نهر الفرات. حرّان أبينا إبراهيم وأسقفية ثيئوذوروس أبي قرّة (٨٢٥). جرابلس هي كركميش القديمة. منبج هي بيرابوليس. دارة هي الحصن البيزنطي الذي حلَّ محلّ نصيبين لمّا تخلّى الإمبراطور جوفيان عنها للفرس. سلوقية هي سلفكيا قديماً والسويدية حالياً. الرقة هي تقريباً كالينيكي حيث انعقد مجمع خلقيدوني-مونوفيسيتي في القرن السادس، حضره يعقوب البرادعي (أسد رستم). الموصل مشرقاً معروفة.

(الأب اسبيرو جبور).

هذا الكتاب

هو ردّة روحية. يناجي به المرء الله من كل القلب. هو حفّارة روحية تنتزع الرواسب فتلمع صورة الله في الإنسان. يوقظ كوامن الإنسان ليتجدّد باستمرار ناجيًا من الركود والرتابة والوتيرة الواحدة، والكلال، والملال، والسأم، والضجر، والكسل، والبلادة، والرخاوة، ليبقى دومًا متألّقًا مشرقًا. فهو بمثابة خبز جوهري لا للرهبان فقط، بل للعائلات لتعيش في اشراق روحي، ونشاط، وحيوية لا ترقد ولا تشيخ. يمنح النفس نضارة روحية متواصلة وقلبًا خفاقًا يلهج بذكر الله.

ا ج.

التمهيد

«وأمَّا أنا فصلاة» (مز ١٠٩ : ٤)

هذه الترجمة العربية للصلوات التي ألفَّها أبونا القديس أفرام السوري هي تقدمة متواضعة مني لجميع الذين يتّقدون بنار الروح القدس له المجد ويلتهبون بمواهبه فيرتلّون، مع النبي داود، للثالوث الأقدس بدون توقف: "وأما أنا فصلاة".

قديسنا أفرام (+٣٧٣) هو "فرات الكنيسة الروحي" ومعلّمها؛ هو شاعر الروح القدس وقيثارته، والذي سكب إيمانه وحبه وتوبته ولهجه بالله وبمراحمه في كلمات أحلى من شهد العسل وأرق من النسيم العليل، بشفافية وحرارة وصدق ترقّ لها قلوب الأبرار والخاطئين على حد سواء. كتب في التوبة والدموع والصلاة. شرح أسفاراً من الكتاب المقدس. كتاباته تحتوي على تحليل نفسي عميق لحالة الإنسان الساقط. كانت الصلاة والتوبة والدموع طعامه وشرابه. يُنسب إلى القديس غريغوريوس النيصصي[١] قوله في أفرام: "كان البكاء بالنسبة لأفرام ما كانه تنفس الهواء

(١) سيرة أفرام المنسوبة إلى غريغوريوس منتَحلة.

للآخرين. كانت الدموع تفيض منه نهاراً وليلاً، ومع ذلك كان وجه أفرام يشعّ بالفرح في حين كانت جداول الدموع تنسكب من عينيه. وعندما كان أفرام يتحدث عن الانسحاق، كان يحلّق في الأفكار إلى ألوهية الله؛ إنه يسكب الشكر والسبح للمتعالي".

القديس أفرام هو قديس أرثوذكسي(٢)؛ إيمانه هو إيمان المجمع النيقاوي. كتاباته، ذات الطابع الشعري، عكست هذا الإيمان. كان يؤمن بالآب والابن والروحَ القدس، ثلاثة أقانيم في إله واحد. أيضاً كان يؤمن بتجسّد الأقنوم الثاني، الابن، وبصيرورته إلهاً تاماً وإنساناً تاماً، بطبيعتين كاملتين، إلهية وبشرية، متحدتين في شخص إلهي واحد. وَجْدُه وهيامه بوالدة الإله العذراء مريم جليّان جداً. يكنّ لها مكانة خاصة في قلبه. تركيزه على التوبة القلبية والدموع وعلى النسك والسهر والتهيئة للدينونة يحتل مكانة بارزة في مزاميره كما في حياته.

كان القديس ثيوفانس الحبيس (الذي جمع هذه المزامير) مُعجباً كبيراً، بل مفتوناً، بالقديس أفرام وبهذه الصلوات التي تنضح رهافة ورقّة وشفافية روحية تجعلها صنواً لمزامير النبي داود. أودُّ هنا أن أذكر أن كتاب "المزامير الروحية" يأتي كمكمّلٍ لكتاب "فن الصلاة" الذي يلعب فيه القديس

(٢) كتب وعلّم ضد العديد من الهرطقات التي كانت منتشرة في عصره، ومنها هرطقات: أريوس، وأوديوس، وأبوليناريوس، وهرطقات المصلّين والغنوصية وديصان .Bar-Daisan

ثيوفانس الحبيس الدور الأكبر. ويُعتَبر هذا المؤلّف من جملة أعمال القديس ثيوفانس الذي عني بجمعه ونسخه وطبعه وتوزيعه لزوّاره ليكون نبراساً روحياً للمصلّين.

أذكر هنا رسالتين كان القديس ثيوفانس قد كتبهما لناشر "المزامير الروحية" بالروسية.

"إلى الأب الجزيل الاحترام أرسانيوس! إذ قد استلمتُ مقولتك، ولو إنك لستَ تستَحْسن تماماً طبع المزامير، فإني قد جلستُ للحال لأنسخها بنفسي وتعبتُ نهاراً وليلاً. إني أخبرك بهذا، حتى تستطيع رؤية أية غيرة أودُّ بها أن تُطبع هذه المزامير... دعني أُخبرك أن (جبل) آثوس لا يستطيع أن يقدّم عطية أفضل منها لجميع قرائه. لا يوجد إنسانٌ له المقدرة أن يهزّ نفساً نائمةً مثل القديس أفرام (...). إذا قررت، لأي سبب قد يكون، أن لا تطبع ما أرسلته إليك، فاحفظ عندئذ المخطّوطة وأعدها. فمن الأسهل لنا أن نؤلّف كتاباً من أن نعيد كتابة كتاب ما مرة أخرى. أتمنى أن يكون كل صلاح الرب معك!

شفيعك، الأسقف ثيوفانس
٢٤ تشرين الأول، ١٨٧٣

والرسالة الثانية يقول فيها:

"لتكن رحمة الرب معك! إني أهنئك على إكمال المزامير، وإني مسرورٌ جداً لأنها رائعة. ليهب الله جميع

القراء أن يكونوا مرضيين جداً أمام الرب. أرسلْ لي بعض المزيد. كثيراً ما يسأل الناس من أجل شيء. إني أمنح كتباً؛ لكن لا يوجد كتابٌ مناسبٌ أكثر من هذا. (. . .) ليبارك الرب سبيلك".

شفيعك، الأسقف ثيوفانس
٢١ شباط، ١٨٧٤

احتفظتُ بتقسيم المزامير الحالي وبعناوينها كما وردت في النص الإنكليزي. حاولتُ قدر الإمكان أن أنقل شفافية وعذوبة ما خطّه القديس أفرام، إلا أنه من الصعوبة نقل المسحة الشعرية الموجودة في المؤلَّف الأصلي تماماً. سأُغفل هنا ذكر حياة هذا القديس العظيم تجنّباً للتكرار وتوفيراً للوقت والنفقات(٣).

تجعلنا هذه المزامير الروحية نشعر تماماً بدنوٍّ الساعة الأخيرة، الساعة الثانية عشرة، وباقتراب يوم الدينونة الرهيب. لهذا أسمحُ لنفسي، بدون استحقاق، أن أطلب من جميع الرهبنات، خاصة الأنطاكية والآثوسية، أن تَقرن نذورها الرهبانية بنذر جديد - إن صح التعبير - نحن في أمسِّ الحاجة إليه، ألاّ وهو نذر التبشير في عالمٍ شاخ في

(٣) تعيّد الكنيسة الأرثوذكسية للقديس أفرام في الثامن والعشرين من شهر كانون الثاني. راجع سيرته الأخاذة المكتوبة بقلم أخاذ في السنكسار الأرثوذكسي الذي وضعه قدس الأب الأرشمندريت المتوحِّد الراهب توما (بيطار)، منشورات دير القديس سلوان الآثوسي، دوما (لبنان)، ١٩٩٧.

الخطيئة. ففي الساعة الحادية عشرة التي نعيش فيها الآن صار أعداء الكنيسة في داخلها وخارجها منقضّين عليها بضراوة لدرجة ضلَّ فيها الكثير من الناس ولم يعد باستطاعتهم رؤية الحقيقة الإلهية الأزلية. هنا يأتي دور الرهبنات في تقديم الحياة المسيحية كما أرادها ربُّ المجد للمؤمنين به: حياة هي "جهادٌ متواصل ضد الخطيئة حتى الدم" وليست مجرد مناقب اجتماعية أخلاقية؛ حياة هي توبة قلبية داخلية وخارجية، وليست مجرد شعور بالندم وترداد شفوي للهفوات والزلاّت؛ حياة هي صلبٌ مستمرٌ عن العالم والعالم عنا، وليست "مصالحة" توفيقية بين المسيحية والعالم. لكن الناس يريدون مُثُلاً حيَّةً أمامهم، أكثر من الكتب والمواعظ والكلمات الطنّانة. والرهبان والراهبات هم مُثُلنا الحيّة التي بدونها لا توجد مسيحية نابضة بالروح القدس. فإن كان الناس لا يأتون إلى الأديرة لأسباب وأسباب، وإن كان الكثيرون من داخل الكنيسة وخارجها يحاربون الأديرة حتى لا يشعّ نورها أمام الناس فتكشف ظلام الخطيئة في الكثيرين، صار واجباً وضرورةً ونذراً أن تخرج الأديرة إلى العالم، حاملة الطاعة والتواضع والعفة والفقر والصلاة كأسلحة لها، وأن تنتشر في كل مكان، لتنقل إلى الكل نور المسيح. الراهب والراهبة يحملان العالم بصلواتهما. لو لم يوجد إنسانٌ واحدٌ يصلّي بالروح القدس في كل لحظةٍ من الزمان لكان العالم قد

هلك. لكن المسألة اليوم هي أن الناس لا يعرفون سوى مسيحية مزيَّفة أو مسيح مزيَّف. لهذا لا يشعرون بضرورة زيارة الأديرة فيخسرون فوائدها. لهذا وجب على الأديرة، أولاً وأخيراً، أن تخرج لملاقاة الناس، لملاقاة الأبناء الضالّين، الخليعين، المسبيين، وأن تعرّفهم بالآب والابن والروح القدس، وبالقديسين والآباء، الأخوة الكبار في المسيح. فنحن لا نرضى بالأديرة أن تكون أقلّ من منارات روحية عملاقة في كل أصقاع العالم. هذا يعني عملياً أن تُؤسَّس الرهبنات في كل مكان. وأن تكون مراكز روحية للصلاة والتوبة والتعليم الرّوحي. وأن يكون التبشير الناشط، الفاعل لا المنفعل، هاجساً وهذيذاً وتأملاً لا تنقطع لدى الرهبان والراهبات، أقارب المسيح. فلن يُغني شيءٌ عن تبشير الأديرة، لأنه مبنيٌّ على مُثُل حية تلتهب بالثالوث القدوس محبةً وذبيحة وانسكاباً. لن أطيل التمهيد لأن قدس الأب اسبيرو قد أوفى الموضوع حقّه في التمهيد ومعظم الحواشي التي وضعها مشكوراً.

المجد للثالوث القدوس الذي سمح لي، أنا الخاطئ، أن أترجم هذه الكلمات المُلهَمة بالروح القدس التي فاضت من قلب وشفتَي قديس عظيم مثل القديس أفرام، والتي فتنت قديساً عظيماً آخر هو القديس ثيوفانس الحبيس.

فليرحمنا الله بصلواتهما وبصلوات جميع قديسيه، المعروفين لنا والمجهولين، لأن له السبح والمجد والسجود إلى الأبد؛ آمين.

الدكتور عدنان طرابلسي

عيد القديس أفرام السوري ٢٨ كانون الثاني، ٢٠٠١

المقدمة[1]

ليكن أفرام نجيك

أفرام هو أديب اللغة السريانية وشاعرها الأكبر ومُجدِّد آدابها. سُمِّي "قيثارة الروح القدس". انه نار الروح القدس في ضمائر الفاترين روحيًا. يكوي الروح.

وثيوفانس الحبيس الروسي هو ألمع المؤلِّفين الروس وصاحب ١٦٤ مؤلَّفاً: رقم قياسي عالمي.

كان يعرف عدة لغات. انتقى من مؤلَّفات أفرام نخبة اسماها "مزامير أفرام". قال في رسالته إلى الطابع: "... دعني أخبرك أن (جبل) آثوس لا يستطيع أن يقدّم عطية أفضل منها لجميع قرّائه. لا يوجد إنسان له المقدرة أن يهزّ نفساً نائمةً، مثل القديس أفرام.."

هذه شهادة عظيمِ روسيا لعظيم سوريا. وفيها يبدو احترام الكاتب لعطاء جبل آثوس. ومع ذلك ففي القرن التاسع عشر لا يستطيع آثوس أن يعطي لجميع قرّائه (لا للنخبة بل للكل) أفضل من عطاء أفرام قبل ١٥ قرناً (١٩-٤=١٥). إنها شهادة مقدَّسة.

---

(١) تمهيد عدنان يسبق مقدمتي لأنه تمهيد لا مقدمة.

كواستن Quasten شيخ الاختصاصيين بآباء الكنيسة في أواسط القرن العشرين كان يفضّل أية شطحة من "شطحات" أفرام على كل ما كتبه الغرب المسيحي. افرام يصلّي، المصلّي هو اللاهوتي (ايفاغريوس) لا التفلسف الأكاديمي. الصلاة أم الفضائل بشرط الإلتحام بالمحبة (كما في المزمور ٣٢ أدناه...) بهما ننال الملكوت، لا باللاّهوت والدراسات المتفلسفة. عبقرية ثيوفانس واضحة في استخلاص هذه المزامير من مجموع مؤلّفات أفرام وتنظيمها بالصورة التي نراها.

بيك Beck الألماني كرّس عمره لاستخلاص أفرام فاستبعد المنحولات، واستخرج الصحيحات ونقد مصادر سيرته، وأصدر طبعة عالمية نقدية في ١٦ مجلداً تحوي النص السرياني وترجمته إلى الألمانية. وكنتُ قد أخذتُ عنه نبذة عن حياة أفرام.

في بلادنا المشرقية ازدهرت منذ القرن الثاني قبل الميلاد الحضارةُ اليونانية حتى بززنا أثينا، فكان ليبانيوس رئيس المدرسة الفلسفية الأنطاكية في القرن الرابع أشهر أساتذة عصره. تتلمذ عليه باسيليوس الكبير وصديقه غريغوريوس اللاهوتي في القسطنطينية، وتتلمذ عليه يوحنا فم الذهب وامفيلوخيوس في أنطاكية. أما غريغوريوس النيصصي أخو باسيليوس فيعتبر نفسه تلميذاً له بفضل كتبه عليه:

أعلام كبادوكيا وعلم أنطاكية، أي أعلام الكنيسة في النصف الثاني من القرن الرابع تلاميذه.

في بلادنا لمعت اليونانية والسريانية فتُرجم قسمٌ هام من مؤلَّفات أفرام إلى اليونانية وهو حيّ بعدُ. وراجت في اليونانية رواجها في السريانية، كما شهد ثيوذوريتوس.

أفرام هو فاتحة المنشدين الأرثوذكسيين الكبار أئمة الأناشيد الدينية حتى اليَوم في كنائسنا الشرقية: أفرام، الذهبي الفم، ابيفانيوس، رومانوس الحمصي، صفرونيوس وأندراوس ويوحنا وكوزما واستفانوس الدمشقيون، ثيؤذوروس وأخوه ثيوفانس الموسوم (من بصرى في سنكسار الأب توما ومن القدس في السنكسار اليوناني-الفرنسي). هؤلاء جميعاً - ما عدا أفرام - أنشأوا كتاباتهم وأشعارهم في اليونانية ثم التحق بهم التابعون (ثيؤذوروس الستوديتي وأخوه وثيوفانس مطران إزمير، وجرمانوس القسطنطينية وسواهم). وهكذا اغتنت كنيستنا بثروة من عيون شعر الأناشيد الدينية. رومانوس الحمصي مازال أكبر شاعر مسيحي في اللغة اليونانية وحتى في غيرها إجمالاً. هذه إحدى مفاخر مشرقنا العالمية. فضلاً عن ذلك، في الزهديات، افرام وفم الذهب صنوان. هل قرأ الثاني الاول؟ لا استبعد ذلك بسبب شهرة افرام التي شهد لها ثيوذوريتوس.

ثيوفانس الحبيس الروسي (١٨٩٤) هو أكبر آباء الكنيسة الأرثوذكسية بعد سمعان اللاهوتي الجديد وغريغوريوس بالاماس. وهو صاحب الفيلوكاليا الروسية، وموسوعة آباء الكنيسة. أجاد اليونانية وعدة لغات أخرى إلى جانب لغته الروسية. وكان مثقفاً كبيراً. الذين طالعوا كتاب "فن الصلاة" الذي ترجمه عدنان ذاقوا طعم أقواله الأحلى من شهد العسل. كان في خط بالاماس. إذاً: في خط آباء الكرسي الأنطاكي وكبادوكيا والمجامع المسكونية السبعة. إعجابه بأفرام دليل جديد على ارتباطه بتراثنا يوم كنّا أعجوبة العالم المسيحي. فهل نعود إلى ذلك مع عدنان وأنداده؟

ترجم ثيوفانس هذه المزامير من اليونانية إلى الروسية، فترجمها عدنان من ترجمة إنكليزية يبدو أنها جيدة.

عبقرية أفرام + عبقرية ثيوفانس بقلم عدنان: سبحان الذي خلق فأبدع في كل ما صنع.

مزامير أفرام عسل. أفرام نحلة بارعة استخلصت لُباب الكتاب المقدس وصاغته شعراً: صلوات، اعترافات، تمجيدات، زهديات، نسكيات، صوفيّات، دموع، ندامات، تأملات، وعظ، تنبيه، تقريع، ارتفاعات علوية،

(*) القانون الكبير لاندراوس الدمشقي اسقف كريت غير بعيد ابداً عن روح افرام. الاب الروماني الكاتب العالمي المشهور فرجيل جيورجيو كتب أن المنشدين الدينيين هم من مشرقنا. في كنائس المشرق جميعًا افرام أوحى صلوات عديدة.

تطويبات، ويلات، مناجيات إلهية، توبات، انسحاقات، إفراغ الروح بين يدَي الله وانسكابها كعطر فوّاح . . .

الكثير من عباراته يتردّد في صلوات الأرثوذكس وبخاصة في "قانون يسوع الحلو جداً" (*). وهو لا يهمل العقائد. فقد ناضل ضد الآريوسية وعلّم أن الله الأحد هو الآب والابن والروح القدس ذو الجوهر الواحد بعينه، وأن يسوع تجسَّد من العذراء وصُلب من أجل خلاصنا، وأن العذراء هي والدة الإله. ويؤمن بالحساب والحياة الأبدية وحرية الإنسان والاتحاد بالله بفضل النعمة الإلهية وشفاعة القديسين. لا يستفيض ولكنه أتى بالزبدة.

لا يكلّف هذا الكتاب المطالعَ عناء بل يقتل الضجر والملل ويليّن قساوة القلب. يغوص إلى الأعماق. يسحر الألباب. يأخذ بمجامع النفس. العذوبة سمته.

في هذا العصر الصاخب الأعوج سيجد فيه الرصناء والرصينات خير أنيس للجليس. سيكون تعزية لربّات البيوت الرصينات فيفضِّلنَّه على صخب الراديو والتلفزيون. يصلح أخاً لروح الأتقياء. لا يتحمل مطالعه جهداً لأنه عذب وكلي العذوبة.

أفرام هو أحد المذهولين بوالدة الإله مريم العذراء. ارتقى إلى السماء في العام ٣٧٣. سبقه إلى ذلك افستاتيوس أسقف أنطاكية رئيس المجمع المسكوني الأول (الراقد في ٣٣٠). إذاً: عبارة "والدة الإله" كانت واسعة

الانتشار في بلادنا منذ الثلث الأول من القرن الرابع. لا معنى لاتهام أنطاكية العظمى بالنسطورية. هناك خط أرثوذكسي وهناك خطوط هرطوقية. أبوليناريوس اللاذقي الهرطوقي قال في العذراء مريم إنها والدة الإله. خط نسطوريوس الهرطوقي رفضها. جارتنا كبادوكيا قالت بذلك. كان أبيفانيوس القبرصي الفلسطيني الأصل وكيرللس الإسكندري قد دشّنا لاهوت العذراء، فنفى عنها أبيفانيوس قولَ أوريجنس إنها شكَّت لدى الصليب بلاهوت ابنها. وكان غريغوريوس اللاهوتي قد سمَّاها والدة الإله وقال إن الروح القدس قدَّسها وطهَّرها قُبيل الحَبَل بيسوع، فردَّد يوحنا الدمشقي كلامهما. يوحنا الدمشقي هو بطل لاهوت العذراء، فجسَّده هو وأخوه بالتبنّي كوزما في أناشيد تُحيي العظام وهي رميم. مَن لا يرتكض ويقفز طرباً روحياً حين يسمع كطافسيات الميلاد والصلب؟

سبحان الذي حبَّب إلى عدنان هذه المزامير فأتحفنا بها. زاده الله نعمة فوق نعمة. جعلها الله رفيق كل مسيحي في حلّه وترحاله، وجعلها معزوفة العائلات بدلاً من تفاهات التلفزيون والراديو اللذين يشغلان النظر والسمع فينسى الإنسان نفسه وربَّه. العمق الداخلي مرتبط بإماتة حواس الجسد وإنعاش حواس النفس والروح. ألهم العارفين بالسريانية أن يتحفونا ببدائع أفرام بعذوبة إنشاء عدنان.

عدنان طبيب مفطور على البحث العلمي والتنقيب.

لجم مَلكاته هذه بهيامه بآباء الكنيسة. هؤلاء قديسون ممتلئون من الروح القــدس. القــديس يوحنا السلّمي طعن في الدراسات. تولّعَ الغربُ المسيحي بالدّراسات فجفَّ معينُ النسك والتصوّف والصلوات، وغرق باحثون كبار مثل شتـراوس وهارناك ولوازي ورينان وبولتمـان في الكفـر بيسوع. المسيحية اتحاد بالله عبر الصلاة والفضائل في الروح القدس لا معرفة عقلية مجرّدة. الكتاب المقدس كتابٌ مُلهَمٌ لا كتابُ فيزياء وكيمياء ورياضيات وفلك و..و..

عدنان اختار يوحنا فم الذهب كمفسِّرٍ لا بولتمان. وزاد عليه تعليقات علماء معاصرين مؤمنين لا مُلحدين أو كفّار. ديانتنا عبادة لا أبحاث فلسفية وعلمية مجرَّدة بدون عمق الصلاة. علم بولتمان ورينان وشتراوس وأضرابهم دينونة لهم لا رحـمـة. عـدنان التحق بالمصلِّين لا بأعداء الله والكنيسة. زاده الله نوراً على نور.

ألا رحم اللهُ البطريركَ العظيمَ ثيؤذوسيوس أبا رجيلي والمطران الجليل أليكسي عبد الكريم اللذين يعود إليهما فضلٌ كبيرٌ في وقوعي على عدنان ونخبة صحبه الكرام الغالين جداً.

ليكن هذا الكتاب رفيقك في البيت وسواه.

الأب اسبيرو جبور

عيد يوحنا فم الذهب ١٣/ ١١/ ٢٠٠٠

-١-

تطويبات

طوبى للذي صار في الرب مُعتَقاً تماماً من كل الأمور الأرضية في هذه الحياة المضطربة، والذي أحبَّ الله الصالح الرحيم.

طوبى للذي صار فاعل أعمال صالحة والذي، كحقلٍ مثمرٍ، يُثمر فيضًا عظيماً من ثمار الحَياة في الرب.

طوبى للذي يقف في الصلاة في خدمة الله والذي، كالملائكة السماوية، يكنّ أفكاراً نقية في كل الأوقات ولا يسمح للشرير أن يقترب منه لكي لا يُسبي روحَه ويغَرِّبها عن الله المخلّص.

طوبى للذي يحب القداسة (الطهارة) مثل النور، والذي لم يدنّس جسده أمام الرب بأعمال الشرير المخزية.

طوبى للذي يحتفظ في نفسه دائماً بذكرى الله، لأنَّ شخصاً كهذا على الأرض هو مثل ملاكٍ سماويٍ يحتفل باستمرار بالرب بخوف ومحبة.

طوبى للذي يحب التوبة التي تخلّص كل الخاطئين، والذي لا يبتهج بالخطيئة، لكي لا يظهر عاقاً أمام الله مخلّصنا.

طوبى للذي يدافع عن الكنوز السماوية مثل محارب شجاعٍ، ويحتفظ بنفسه وجسده بدون لومٍ في الرب.

طوبى للذي يُكنّ أفكاراً نقية مثل الملائكة السماوية، والذي يرنّم بشفتيه تسابيح للواحد الذي له سلطانٌ على كل ذي نَفَسٍ.

طوبى للذي صار مثل السيرافيم والشيروبيم والذي لا يتكاسل أبداً في الخدمة الروحية، الذي يمجّد الرب باستمرارٍ.

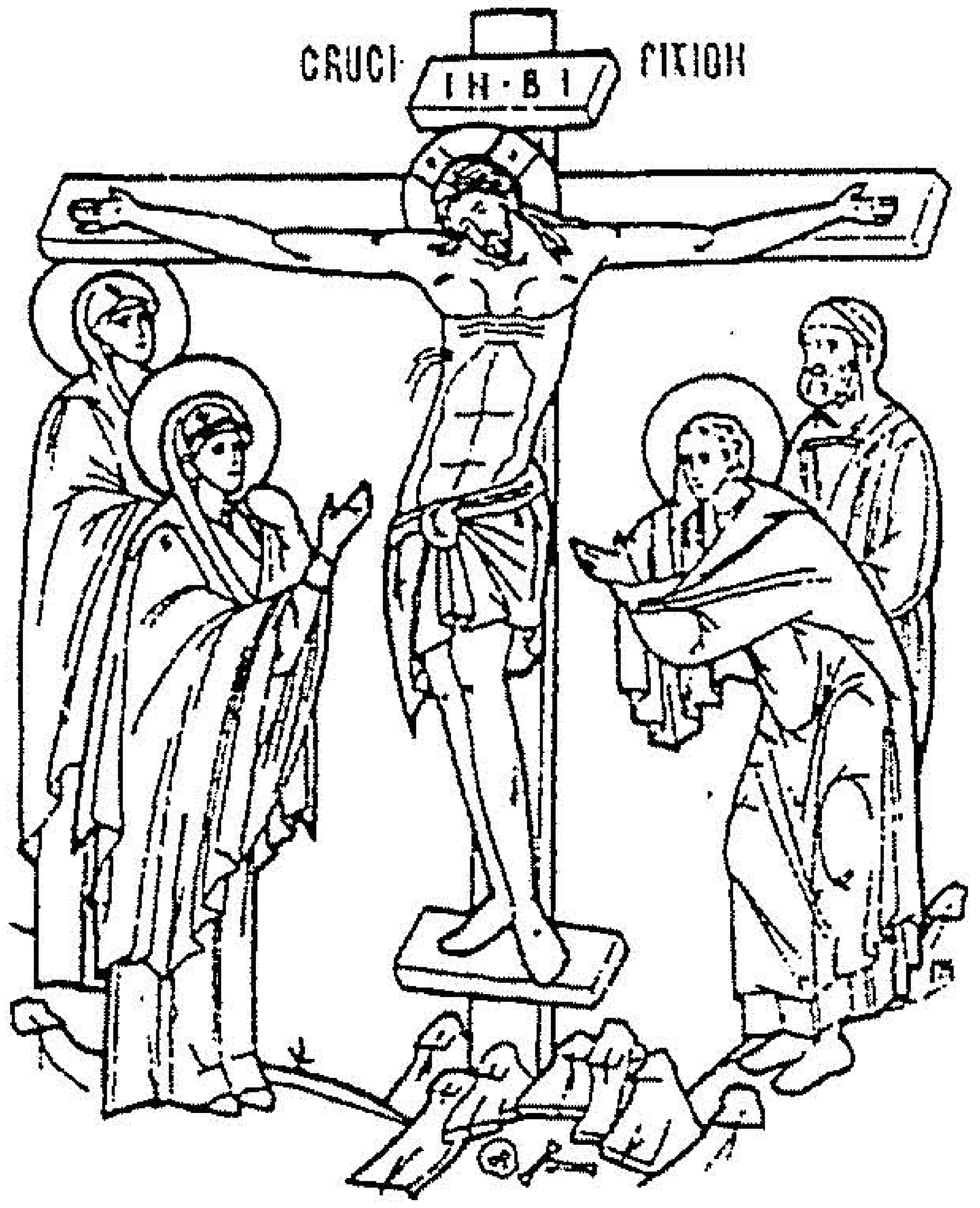

-٢-

ترنيمة مجدٍ للمخلِّص

أنحني لك أيها السيد؛ أباركك أيها الصالح؛ أتضرع إليك أيها القدوس؛ أسجد أمامك يا محب البشر؛ أمجّدك أيها المسيح؛ لأنك، أيها المولود الوحيد سيد الكلّ، أيها العادم الخطيئة وحدك، أنت من أجلي أنا الخاطئ غير المستحق قد سُلِّمْتَ إلى الموت على الصليب لكي تحرّر نفسَ خاطئ من قيد الخطيئة.

وكيف أوفيك حقك أيها السيد؟ المجد لك يا محب البشر! المجد لك أيها الرحيم! المجد لك يا طويل الأناة! المجد لك يا مَن تغفر كل سقوط في الخطيئة! المجد لك يا مَن تنازلتَ لتخلّص نفوسنا! المجدُ لك يا مَن أخذتَ جسداً في رحم العذراء! المجد لك يا مَن قاسيتَ العبودية! المجد لك يا مَن قبلتَ الجَلْد! المجد لك يا مَن جُعلْتَ هدفاً للذلّ! المجد لك يا مَن صُلبتَ! المجد لك يا مَن دُفنْتَ!

المجد لك يا مَن قمتَ من الأموات! المجد لك يا مَن تكلّم الأنبياء عنه! المجد لكَ يا مَن به آمنّا! المجد لكَ يا مَن صعدتَ إلى السماء! المجد لك يا مَن جلستَ بمجدٍ من عن

ميامن الآب ويا مَن ستأتي ثانية مع قوات الملائكة لتَدين كلَ نفسٍ قد ازدرَت آلامك القدوسة!

في تلك الساعَة المخيفة والمقلقة، عندما تُثار القوات السماوية، عندما سيقف كل الملائكة ورؤساء الملائكة، السيرافيم والشيروبيم، بخوف ورعدة أمام مجدك، عندما ستهتز أساسات الأرض، وعندما سيرتعب كلُ ذي نَفَس بعظمة مجدك غير القابل للمقارنة بسواه: في تلك الساعةً ضعني تحت جناحك، ولتُعتَق نفسي من النار المخيفة ومن صريف الأسنان، من الظلمة الخارجية والنواح الأبدي، لكي أباركك وأقول: المجد للذي رغب في أن يخلّص خاطئاً بحسب عظيم رأفة رحمته!

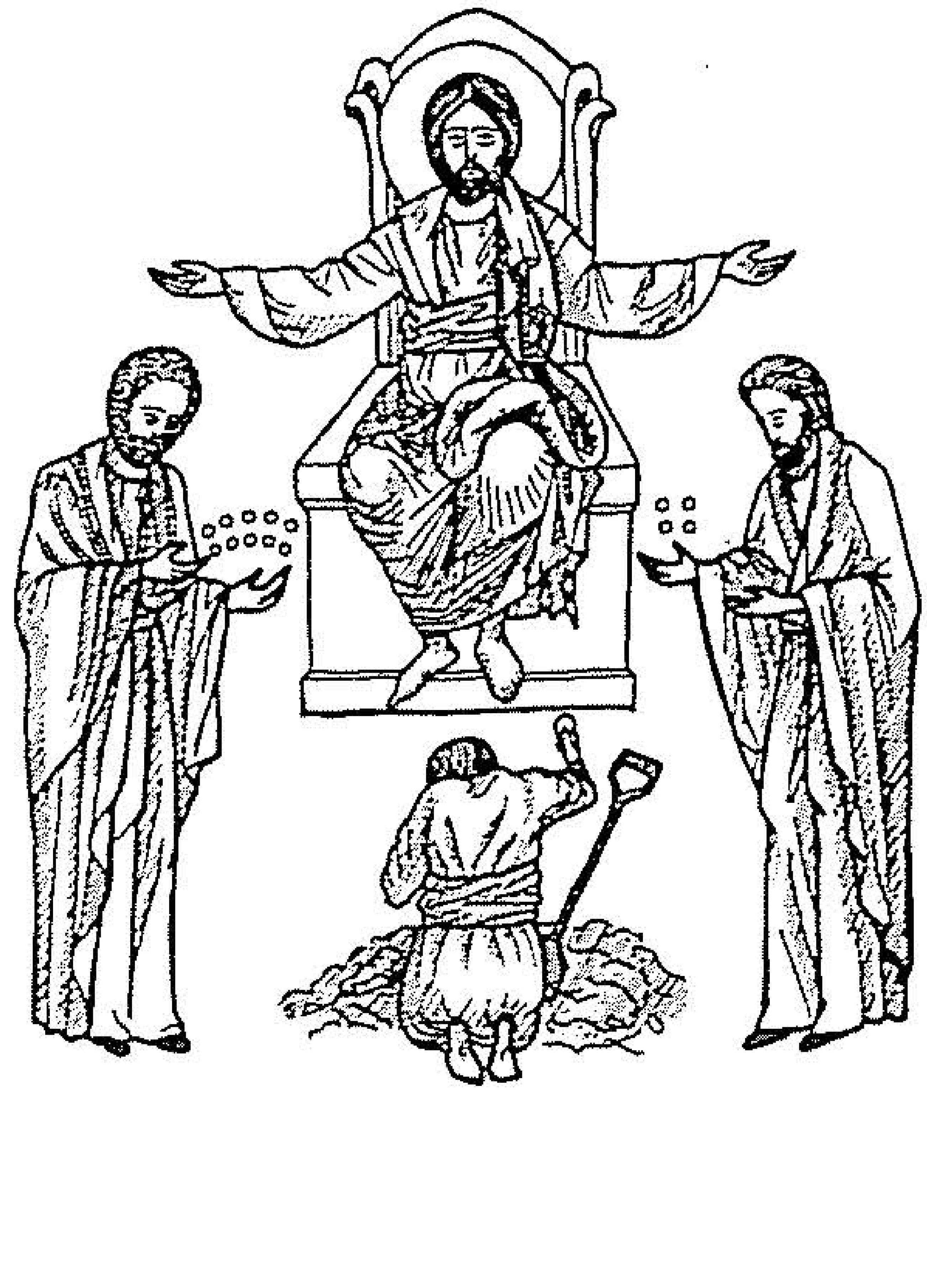

-٣-

امنح نعمة لتلبيِّ كل احتياج

اشـفني يا رب فـأشـفى! أيها الطبيب الحكيم والرحـيم وحدك، أتضرّع إلى حنوك: اشف كلومَ نفسي وأنرْ عينيِّ ذهني لكي أفـهم مكاني في خطتك الأبدية! وبمقـدار ما تشـوه قلبي وذهني فلتُصلحْهما نعمتُك، لأنها مثل ملح حقيقي.

ماذا أقول لك، أيها العارف القلبَ، يا مَن يفـحص القلب وأعمال الإنسان الباطنية؟ حـقاً، إنك تعرفُ أن نفسي تعطش إليك وأن قلبي يشتاق إليك مثل أرض لا ماء فيـها. نعـمتكَ أشبعَتْ دائماً الذين يحبونك. هكذا كما استمعتَ إليّ دائماً لا ترذل صـلاتي الآن. لأنك ترى أن ذهني، مـثل أسـير، يسـعى إليك، أيها المخلّص الحقيقي وحدك.

أرسلْ نعمتك لتُشبع جوعي وتطفئ عطشي. لأني أشـتاق إليك يا سَيّدي بدون شبع! ومَن يستطيع أن يكتفي منك إن كـان يحبك حقاً ويعطش إلى حقيقتك؟

لبِّ تضرّعاتي، يا واهب النور، وامنحني عطاياك بحسب صلاتي؛ امنح قلبي مجرد قطرة واحدة من نعمتك، لكي يبدأ لهيب محبتك بالاشتعال فيّ قلبي؛ وكنارٍ فليحرقْ الأفكار الشريرة مثل الأشواك والحسك!

اعطني كل هذا بوفرة؛ امنحني هذا كما يمنح اللهُ الإنسانَ، والملكُ تابعيه، وزِدْه كأبٍ رؤوفٍ.

-٤-

كل ما نحتاج إليه هو فيك يا رب

نحن نبحث عنك في الصلاة يا رب، لأن كل شيء يُفْهم فيك. فلنغتن بك لأنك الثروة التي لا تضمحل وفقاً لتغيّرات الزمان.

فلتأتِ رأفتك إلى معونتنا! ولتدافع رحمتك عنّا! ومن كنزك اسكبْ علينا التجديد لشفاء قروحنا.

يجب أن نطلبك فوق كل شيء آخر، وألاّ نطلب أي شيء سواك، لأن مَن يطلبك يجد كلَّ شيء فيك.

فيك الثروة للمحتاجين، والفرح القلبي للمحزونين، والشفاء لكل المجروحين، والعزاء لجميع المتفجعين.

اقبل صلاتنا يا ربنا، وامنحنا ذاتك، لنحيا فيك، لنمتلكك بدل كل شيء آخر، لأن كل شيء عندئذ سيكون ملْكاً لنا.

امنح يا رب أن نكون ملْكك. وبحسبَ رأفتك كنْ ملْكاً لنا. لأن الآب البار أعطانا إياك لشفاء قروحنا.

إنك ملْكنا بحسب مشيئة أبيك؛ وأنت ملْكنا بحسب رغبتك أنت. إنكَ معنا يا عمانوئيل! إنك معنا كرب لنا.

اقبل هذه الصلوات منا، يا إلهنا، يا مَنْ نزلت إلينا. اقبل دموع الخاطئين وأظهرْ رحمةً على المذنبين.

بحسب رغبتك صرتَ متحداً بنا؛ كنْ شفيع صلاتنا. ارفعها إلى أبيك ووطّد سلاماً في نفوسنا.

-٥-

كن كل شيء لنا
وأعطنا أن نكرس لك كل شيء نملك

كحدقة عينك احفظني أيها الرب الإله؛ دافع عني، وتحت جناحيك احمني من التجارب.

كن حارس العين كي لا تهيم مثل لص؛ كن حارس الأذن كي لا تستقبل النفاق.

كن حارس الشفتين كي لا يخرج منهما الافتراء والدينونة والنقد والكلمات البطالة.

كن حارس القلب كي لا يميل إلى الشر ولا يرتكب الإثم.

اعطنا يا رب المعرفة، معرفة ما يجب أن نفعل ومعرفة كيف نُشرع فيه.

اعطنا يا ربنا أن نكون لك أحلى من الروائح والعطور.

اعطنا يا ربنا أن نحبك ونكره العالم. اعطنا يا رب أن نقتنيك أنت وحدك دون جميع المقتنيات الزائلة.

اعطنا يا ربنا أن نُحضر إليك ثلاث هدايا مختارة. اعطنا يا ربنا أن نحرق ثلاث مباخر عطرة أمامك.

اعطنا يا ربنا أن نُشعل لك ثلاثة مصابيح متقدة ساطعة: الروح والنفس والجسد، هذه الهدايا الثلاث للثالوث الواحد.

لنكرِّس الروحَ للآب، والنفسَ للابن، والجسدَ للروح القدس، الروح الذي سيقيم (الجسد) ثانية من التراب.

أيها الآب، كرّس روحنا لك! أيها الابن، كرّس نفسنا لك! أيها الروح القدس، كرّس لك جسدنا المُبتَلى بالقروح!

اعطنا يا رب أن نبتهج فيك، وأن تبتهج أنت فينا في اليوم الأخير. لك السبح، من الروح والنفس والجسد. ولتحلَّ مراحمك علينا.

-٦-

آمال الذين تركوا العالم

ابن يسَّى يناغم مزماره وينشد: "طوبى للذين لا عيب فيهم السالكين في طريق الرب، السائرين في شريعته". قال مخلّصنا في إنجيل الحياة: "طوبى لأنقياء القلب لأنهم يعاينون الله؛ طوبى للنائحين لأنهم سيُعزَّون، طوبى للباكين لأنهم سيبتهجون".

للذين يهجرون العالم وأعماله الباطلة، الذين يحتقرون شهواته ويمقتون رفاهياته، قد أُعطي وعدٌ بالمكافَأة في إنجيل الخلاص: ألا وهو السكنى الأبدية والحياة الأبدية.

محبةً بسيّدهم تركوا عائلاتهم في هذا العالم، ووالديهم، وثروتهم وممتلكاتهم؛ لأنهم سمعوا "طوبى للفقراء بالرّوح". مقابل هذا ينتظرهم الملكوت السماوي.

جعلوا أجسادهم هيكلاً للروح القدس؛ بطريقتهم الصّارمة في الحياة تغلّبوا على الشهوات، حملوا نير العمل الشاق؛ محبةً بربهم نبذوا حياتهم.

صلبوا أنفسهم وسَمَّروا أجسادهم على الصليب، وبجهاداتهم النسكية دفعوا خالقهم إلى الرحمة.

ازدروا شهوات الجسد وأحبوا الإمساك. أقصوا مفاسد الجسد وأحبوا العفّة.

اختاروا لأنفسهم المحنة وكل طريقة من الحرمان ونبذوا الراحة. طرحوا الكبرياء ولبسوا التواضع.

قهروا العدو وانتصروا عليه. دفعوه إلى الفرار ونالوا مجداً لأنفسهم. قهروه وهم معظَّمون. ازدروه وهم مكلَّلون.

الآب يحبهم، والابن بالمحبة يحتضنهم، والروح القدس في أجسادهم الطاهرة يسكن.

المسيح يدعوهم قائلاً: تعالوا يا مَن تعبتم باسمي، ادخلوا المسكن الذي لا يخرج منه المدعوون.

لأمثال هؤلاء يمنح الربُ أكاليلَ فيتذوقون النعيم في مساكنه بدلَ الأحزان التي حملوها معه من الصبح حتى المساء.

الملكوت السماوي ينتظر الذين أحرزوا النصر في المعركة ونالوا بالتالي المجد.

من المعتاد للملائكة أن تنزل وتقوِّي المحاربين خلال المعركة.

فالأرواح تندفع لملاقاة المنتصرين. إنها تدعوهم مطوِّبين وتقول: تعالوا أيها المضطربون وارتاحوا من أتعابكم؛ لقد قهرتم الشرير بصبركم في الآلام.

الفردوس يفتح أبوابه لهم؛ إنهم يسكنون في مساكن النور وهناك يجدون السكينة.

في فمهم نشيد مجدٍ وتسبيحٍ له، للذي قوّاهم في المعركة.

-٧-

النفس التي اختبرت الخلاص في الرب

أنت أيها المسيح مخلِّصنا، قد صرتَ لي طريق الحياة المؤدّي إلى الآب. لا يوجد سوى طريق واحد، وهو فرحي وفي نهايته يوجد الملكوت السماوي.

أنت أيها السيد، يسوع، ابن الله، قد صرتَ لي طريق الحياة والاستنارة.

في قلب عبدك صارت نعمتك نوراً وفرحاً، اللذين هما أحلى من عسل الأقراص على شفاه عبدك.

في نفس عبدك صارت نعمتك كنزاً قد جعل فقره غنى، وأقصى عنه البؤسَ والفساد.

نعمتك صارت لعبدك ملجأ وقوة ودفاعاً وسمواً وتسبيحاً وطعاماً لحياته بكاملها.

كيف يمكن لعبدك أن يكون صامتاً أيها السيد، بعد أن تذوَّق حلاوة محبتك ونعمتك العظيمة؟ كيف أتجرأ أنا الخاطئ مرة ثانية على سدِّ أمواج النعمة التي تتدفق في قلبي، والطافحة حلاوةً بحسب كثرة عطاياك؟

سأتغنّى بمجد سيد القوات السماوية وسأعظّم نعمتك أيها المسيح مخلّصنا، ولن يكفّ لساني عن التغنّي بمحبتك.

محبتك تجذبني نحوك أيها المخلّص، يا تسبيح حياتي.

نعمتك تجعل اتّباعك في ذهني أمراً حلواً لي.

ليكن قلبي حقلاً خصباً لك، ولتنضحه نعمتُك بندى الحياة الأبدية. لتحصد نعمتُك حصاداً صالحاً من حقل قلبي: التواضعَ، التقوى، القداسةَ، وكلَّ ما هو مرضيّ لك.

أعدْ نفسي إلى جنة الفردوس الحلوة، ولتسكنْ في النور هناك، محاطة بملَذّات الفردوس، فأقول أنا أيضاً مع جميع القديسين: المجد للآب غير المائت؛ الكرامة للذي يُحضر النعمَ السماوية لغير المستحق هذا، كي يقدّم عُشْراً من المجد لملك الكل!

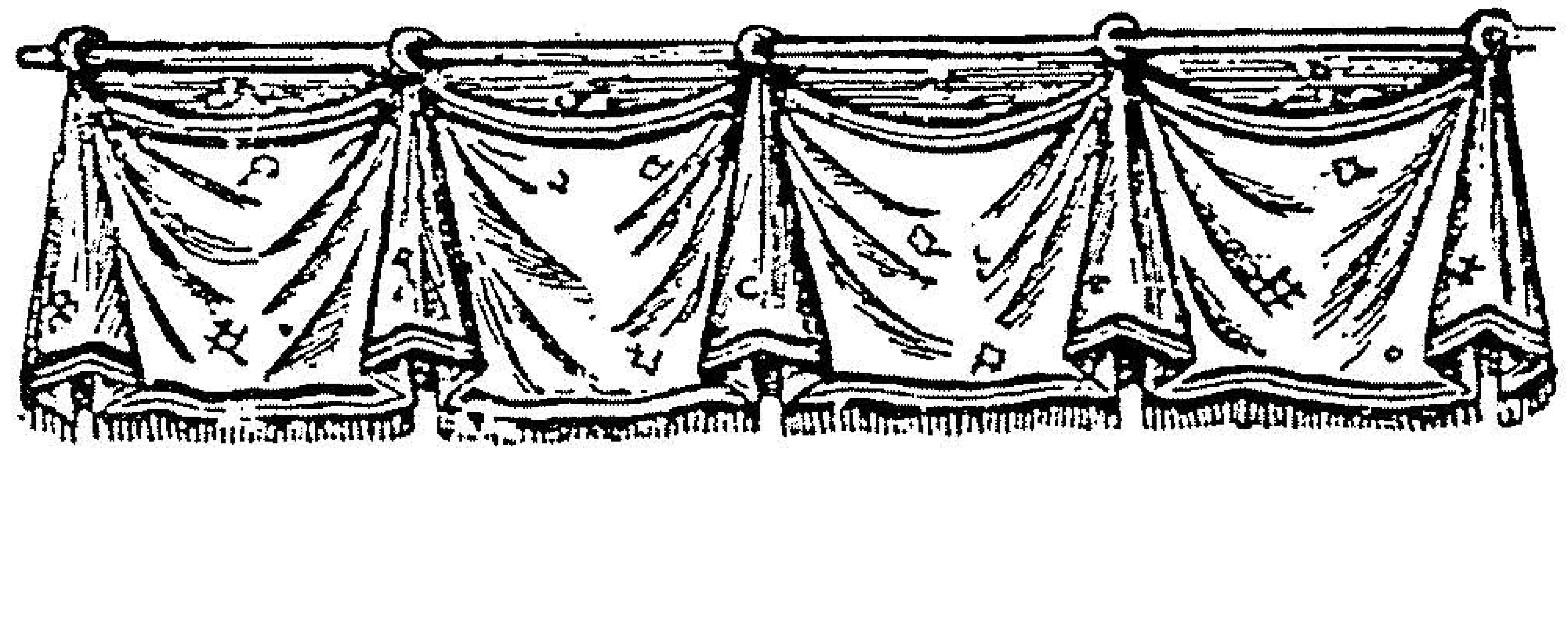

-٨-

الرجاء الواحدُ للخاطئين الساقطين هو الرب المصلوب

نوحوا على عريي يا إخوتي الأحباء! لقد أغضبتُ المسيحَ بحياتي الفاجرة. لأن الصالح خلقني وأعطاني حريةً، لكني أسأتُ استعمالها وقابلته بالشر بأعمالي المتمردة.

لقد جعلني ربُ الكل كاملاً وثبّتني كأداة لمجده لكي أخدمَه وأمجّد اسمه؛ لكني أنا البائس جعلتُ أعضائي أدوَات للخطيئة واستعملتها لابتكر كلَ أسلوب من أساليب الخداعً. الويل لي، لأنه سيدينني بعدلٍ!

أعمالي المخزية تُنبئ بمصيري عند الدينونة، لأنها ستقاضي نفسي البائسة. أتضرّع إليك بدون هوادة يا مخلّصي: استرني تحت جناحيك ولا تفضح دنسي عند دينونتك الهائلة، لكي أمجّد حنوّك.

كل ضربٍ من الأعمال الشريرة التي فعلتُ أمامَ رب الكل يُقصينيً من شركة القديسين. وبما أني لم أخدم الله في حياتي كما خدموه، فلا نصيب لي في أعمالهم الصالحة. وحسرتاه! لقد هلكتُ.

يغمرني الآن الحزنُ الذي أستحق. لأني لو جاهدتُ معهم لَمُجِّدتُ آنئذ مثلهم. لكن لأني كنتُ مُهملاً وخدمتُ الأهواء فلا أنتمي إلى جمهرة الغالبين، بل صَرتُ وارث الجحيم.

لك، أيها الغالب المسمَّر بالمسامير على الصليب الذي يدعو الخاطئين قائلاً: تعالوا، نالوا المغفرة مجاناً، لك أصلّي بدون هوادة يا مخلّصي: اصرفْ عينَيك عن تمرّدي، وبآلامك اشفِ قروحي لأمجِّد حنوّك.

أيها الكليّ الصلاح، يا مَن حنّوه أعظم من خداع العالم بما لا يُحَدّ: قوِّ نفسي الشقية بالرجاء في حنوّك، لأنها ضعُفت وأنهكَتْ تماماً بأسقام الخداع والخطية الساحقة، ولن تقوم هي إلا بالاعتماد عليك لأنها ترجو أن تجد التعزية فيك!

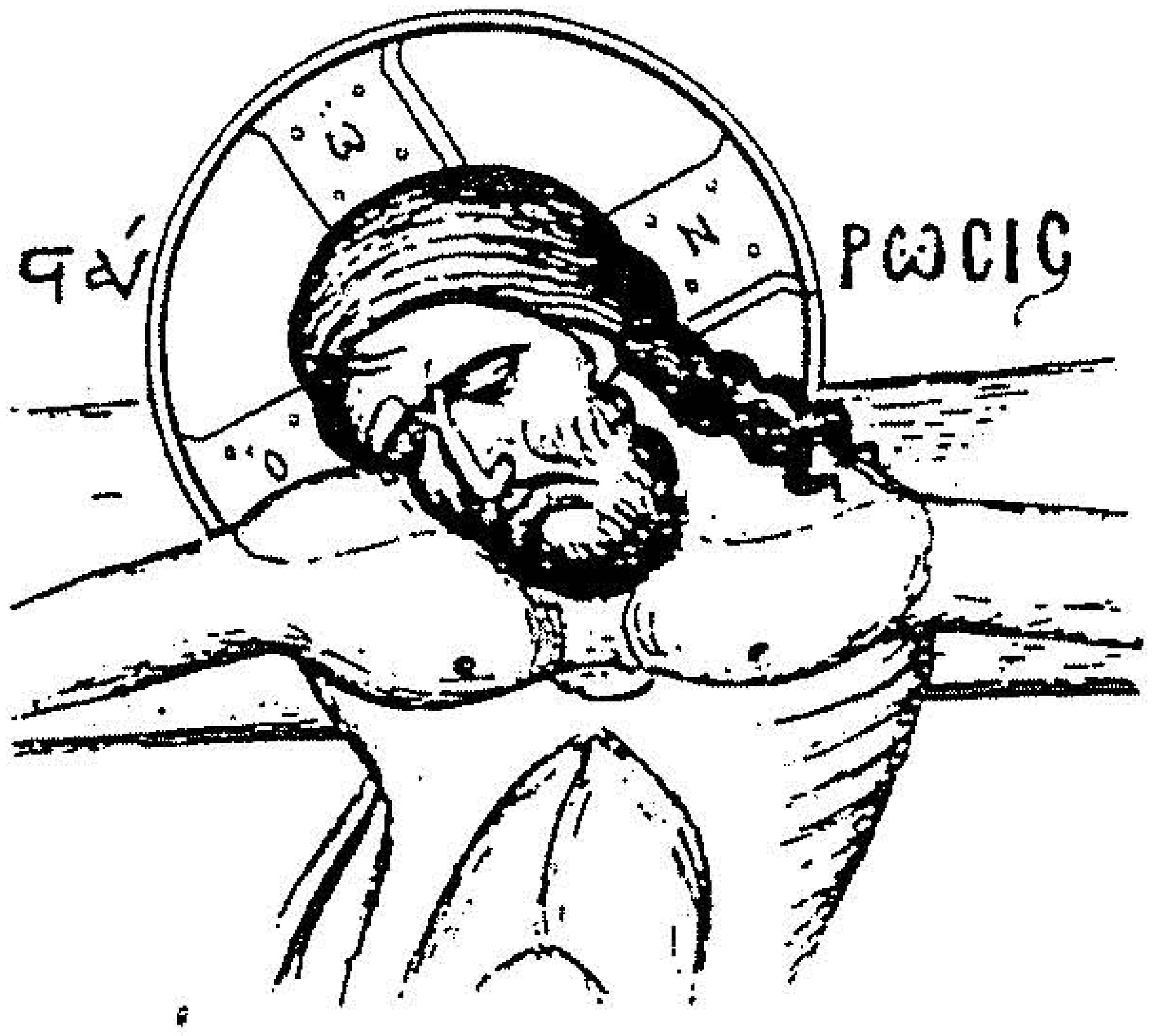

-٩-

نوحوا لأن تأثير النعمة قد تمّ تجاهله

مثلَ العشّار أتنهّدُ، مثلَ الزّانيه أذرُف الدموع، مثل اللص أصرخ، مثل الابن الخليع أتوسّل إليك. أيها المسيح مخلّصي ومحب البشر، قوِّ نفسي التي ضعفت، التي شُلَّت بسمِّ المسرّاتِ، اشفِ جَربَهَا واغسله بدمك المكرّم فقد اسودّت بالخطية!

بحسب كثرة حنوّك اهدني أيها الطويل الأناة وحدك، وخلّصني من كل انغماسٍ حسّي. أطفئْ أتون أهوائي لكي لا تحرقنيَ في النهاية.

الويل لي! أنت يا رب قد أعطيتني نور المعرفة وأنا عَتَّمته. الويل لي! باستمرار كنتَ تفتقدني بنعمتك وما زلت تفتقدني بها، لكني باستمرارٍ رفضتُ هذه العطية لشفائي وما زلتُ أرفضها.

أي جمع عظيم من النعم قد منحتني ومازلتَ تمنحها لي أنا الخاطئ أيها السيد؛ لكني كنتُ، أنا البائس، وما زلتُ جاحداً أمامك عن عمد!

نعمتك تعزّيني، تنيرني وتقوّيني، لكني في إهمالي

أحوّل انتباهي نحو أمور باطلة ودائماً أغوصُ مرة ثانية في صفراء أهوائي ومرارتها.

إنك تذكّرني، يا كلي الصلاح، بالموت والعذابات الأبدية وتجذبني نحو الحياة لتخلّصني، لكنني دائماً أنأى بنفسي عن هذه الأفكار المخلِّصة. إني أقصيها وأنشغل بالتي لا فائدة منها لي. هكذا ليس لي مبرّر أمامك.

إني أقرع باب حنّوك يا رب لكي ينفتح لي. لا أكفّ عن الصلاة لكي أنال ما أطلبُ، وأسأل الرحمة بثبات.

كن صبوراً معي دائماً، أنا الفاسق؛ خلّصني من الخطايا التي تمتلكني لكي، وقد صرتُ معافى، أنهضُ من فراش موت الخطية المُفسدة.

حرّرني من عاداتي الفاجرة قبل أن تأتي النهاية عليَّ، لأنه مَن سيعترف بك في الجحيم؟

بيِّض ردائي قبل أن يمسكني الأمْر المرعب وأنا غير مستعد ومخزي.

حرّر نفسي المنسحقة من أفواه الأسُود وخلّصها بحسب نعمتك ورحمتك، بصلوات سيدتنا الكلية النقاوة والدة الإله وجميع القديسين.

-١٠-

لا أستطيع تدبير نفسي؛ امنحني روح التوبة

أمام مجدك أيها المسيح مخلِّصي سأبلّغ كل إساءة لي وأعترف بمراحمك غير المتناهية التي تسكبها عليَّ بحسْب رأفتكِ.

من رحم أمّي بدأتُ بإحزانك واستخففتُ تمامًا بنعمتك لأني أهملتُ نفسي. وأنت يا سيدي نظرتَ إلى شرِّي كلِّه بصبر ولطف بحسب كثرة رحماتك. نعمتك رَفَعتْ رَأسي لكن ًخطاياي تنكِّسها يومياً.

عاداتٌ سيئة تُنصب لي شراكاً مثل الفخاخ وأنا أفرح بتقييدي هكذا. أغوصُ إلى أعماق الشر ذاتها وهذا يفرحني. يومياً يعطيني العدو قيوداً جديدة لأنه يرى كمْ يُسرِّني هذا النوع من القيود.

إن حقيقة تقييدي بشهواتي يجب أن تُثير البكاءَ والنواح، الخزيَ والعار. والأسوأ أيضاً هو أني أكبّلُ نفسي بالقيود التي يكبّلني بها العدو، وأذبح نفسي بالأهواء التي تُسرُّه.

أنا أعرف كم هذه القيود مُرعبة، ومعً ذلكِ أُخفيها وراء

مظهر محترم أمام عيون جميع الذين قد يرونها. أظهرُ لابساً ملابسَ التقوى الجميلة، بينما نفسي متورِّطة في أفكار مخزية. إني محترَمٌ أمام كل مَن قد يراني، أما في داخلي فأنا ممتلئ من كل ضرب من البذاءة.

ضميري يتّهمني بكل هذا، وأنا أتصرف كما لو كنتُ أرغبُ بالانعتاق من قيودي. كل يوم أهتمُّ وأتنهدُ بسبب هذا، ومع ذلك أبقى دائماً بالأشراك نفسها مقيّداً.

يا لبؤسي؛ ويا لبؤس توبتي اليومية، إذ لا أساس ثابتاً لها. كل يوم أضع أساساً للبناء وأهدمه بيديّ المرة تلو المرة.

لم تصنع توبتي ولا حتى بدايةً صالحة واحدة بعدُ؛ ومع ذلك لا نهاية لإهمالي الشرير. صرتُ عبداً للأهواء ولإرادة العدو الشريرة الذي يُهلكني.

مَن يعطي الماء لرأسي، وينابيع الدموع لعينيَّ، لكي أبكي أمامك دائماً أيها الإله الرحيم، لكي ترسل نعمتك وتجذبني أنا الخاطئ خارجَ البحر الهائج بأمواج الخطية، الذي يزلزل نفسي كل ساعة؟ لأن شهواتي أسوأ من الكلوم التي لا يمكن تضميدها.

أنتظرُ الرجاء في التوبة وأخدعُ نفسي بهذا الوعد الباطل حتى موتي. أقولُ دائماً: سأتوبُ، لكني لا أتوبُ أبداً. كلماتي تصطبغ بهيئة التوبة القلبية، لكني بالأفعال بعيدٌ دائماً عن التوبة.

-١١-

لا أستطيع السيطرة على نفسي ولا على العدو ساعدني يا رب!

لا يستطيع أحد أن يشفي مرضي إلا الذي يعرف أعماق القلب.

كم من مرة وضعتُ حدوداً لنفسي وبنيتُ جدراناً بين نفسي والخطية! لكن أفكاري تعدَّت الحدود وإرادتي هدمت الجدران، لأن مخافة الله لم تضمن الحدودَ، والجدران لم تتأسس على توبة صادقة.

وها أنا أقرع البابَ ثانية لكي يُفْتح لي. لا أكفّ عن السؤال حتى أنال ما أطلب؛ ولا أعرف عيباً في طلب رحمتك يا رب.

أيها الرب مخلّصي! لماذا تخلّيت عني؟ ارحمني يا محبَّ البشر وحدك. خلّصني أنا الخاطئ أنت أيها العادم الخطية وحدك.

اسحبْني من حمأة آثامي حتى لا أتلطّخ إلى الأبد بها. خلّصني من فكّ العدو الذي يزأر كأسد ويلتمس ابتلاعي.

أنهضْ قوتك وهلمَّ إلى خلاصي. أرسل برقك وبدِّد قوته كَي يضربه الخوف فيفرّ من وجهك، فلا قوة له

للوقوف أمامك وأمام وجه الذين يحبونك. وحالما يدرك علامة نعمتك يستولي عليه خوفك وينسحب من هذا مُخزىً.

خلّصني الآن يا سيد لأني ألجأ إليك!

-١٢-

ساعتي الأخيرة قد أزفَت.

اعطني يا رب أن أتوب وأتممَ، وأنا محميٌ هكذا، ذلك العبورَ المخيف بعد الموت

هل يستغرق أمرك طويلاً يا نفسي البائسة كي تتوبي! الدينونة على الأبواب، اَلنار مهيأَة لأعضائك.

كل أيام حياتي انغمستُ في بحر الشر ولم أنحْ على خطاياي. وللحال سيضع الموتُ قيوده عليَّ. لقد أغراني الشيطان وإذ قيَّدَني بشهواتي أسَرني وطرحني على الأرض بدون رحمة. وحسرتاه، ماذا أفعل الآن؟

أنت أيها القاضي العادل اِخزِ الشيطان الذي يحاربني والذي ينصب لي سراً أشراكه الماكرة عندما أودُّ التوبة.

كن معيني أيها الرب الجزيل الرحمة، فأقوم واهزأ منه، سأمزق إرباً إرباً كل أشراكه. الويل لي في ذلك اليوم عندما ستدين الخطاةَ يا رب! آه، لا أكنْ مخزىً أمام قوات الملائكة آنئذ.

كوني مهتمة ومرتعبة يا نفسي. صلِّ إلى ربك وقولي له: ارحمني يا مخلّصي، وأنقذني، لأني انغمسَتُ في

الرذيلة. أنا مثل الزانية وأستحي أن أصلّي إليك. خلّصني بنعمتك يا رب من جهنم.

سيسطع يومُ الرب فجأةً لكل الخليقة وسيخرج الأبرار ويقابلون الرب بمصابيح مشتعلة؛ إنما أنا في الظلام؛ ولا يوجد زيتٌ في مصباحي كي أقابل العريس عندما يأتي.

نفسي ترتجف عندما تسمع أن يوم الدينونة وشيك الحدوث؛ أفكاري تهتاج عندما أتأمل النار التي تنتظر العاقّين. بحسب رأفتك التي هي رحيمة على الخطاة ارحمني أنا الذي هلكتُ، فأرتل تسابيحك عندما يأتي ملكوتك.

ليصحبْني صليبك خلال ذلك العبور المخيف، ليُقْص قوى الظلام عني؛ ليكن لي المفتاح الذي يفتح أبواب الفردوس، لأدخل إلى نعيمك، فأبتهج وأمجّد رأفتك أيها الجزيل الرحمة!

-١٣-

أنِرْني وقوِّني من أجل الفداء

امنحني معونتك يا كلي الصلاح ولا تهجرْ نسلنا أبداً! تعطَّف علينا بحكمتك الشاملة لندرك سرعةَ زوال كل الأشياء. اشف قروحنا بالتوبة.

افتقدنا كي لا نستمر في خطايانا. أنت، يا مَن هو مغدق الرحمة على نفوسنا، اغرس فينا تذكّر الصلاح لأننا كثيراً ما أحببنا الشرَّ. بدِّدْ كل ضررٍ فينا أيها الصالح.

تقبّل كل مشيئة صالحة فينا مهماً تكنْ، وأرسل إلينا مقداراً موافقاً من القوة. نفسنا عاجزة عن أن تقدّم لك عطية عظيمة كعظمتك. فليدفعك موتك العجيب إلى الرأفة يا رب.

خطأنا أقوى بكثير من صلاتنا. صلاتنا غير مهمَّة لكن ذنبنا فاحش. أية ذبيحة يمكننا أن نقدّم لتصالحك أنفسنا؟ لا نملك شيئاً نقدِّمُه لك. لذا نسألك أن تصالحنا بدمك أيها الكلي الرحمة.

الشكر للآب الذي أرسلك يا مخلصنا! فبك تَبَرَّرْنا نحن المذنبين. لقد أقصيت خطايانا بصليبك؛ أقصِ ذنبنا أيضاً في مجيئك.

-١٤-

يا فادي الكل خلّصني وامنحني دموعاً تغسل الجدار الذي يفصلني عنك

السبح للصالح الذي نزل من أجلنا وصار مثلنا، وشفى قروحنا بجسده المقدّس الكل ودمه المقدّس الكل! ليرنّم الكل تسابيح له!

الشكر للرؤوم القلب الذي يحمل دائماً حمْلنا، رغم أنَّهُ يعرف شرّنا، الذي خلقنا ويُطعمنا، والذي يَأمر شمسه أن تشعَّ علينا! لنسبّحْ صلاحه!

افتح لي باب الرّقة يا ربنا، يا مَن هو مليء بالرحمة؛ امددْ يَدَكَ إليّ أيها الصالح الرحيم، وأعدني إلى حظيرة خرافك، لكي أمَجِّد حنوّك.

خطاياي جدارٌ بيني وبين صلاحك. اهدمْه لكي اقترب من رقَّتك الحنون؛ اسكب محبتك عليَّ وارْفعني إلى ارتفاعاتك.

لكن جدار خطاياي لا يُهدم إلا بالدموع والانسحاق؛ لذا امنحني كل أيام حياتي أن أنوح باجتهاد على خطاياي، وأن أجمع الثمار التي ستخدمني حسناً في يوم الدينونة.

-١٥-

الله صار إنساناً

الآب هتفْ: "هذا هو ابني الحبيب الذي به سُررت، فله اسمعوا". هكذا تكلم على الابن الذي هو غير منفصل عن مجد الألوهة. لأن للآب والابن سوية مع الروح القدس طبيعة واحدة، قوة واحدة، جوهراً واحداً، وملكوتاً واحداً.

ومريم دُعيت أم الله بابنها في الجسد، الذي كان غير منفصل عن مجد ألوهيته. لأن الله واحد، الذي ظهر للعالم في الجسد.

مجده أعلن طبيعَته الإلهية التي هي من الآب، وجسده أعلن طبيعَته البشرية التي كانت من مريم؛ كلتا طبيعتيه اجتمعت واتحدت في أقنوم وحيد.

كان هو المولودَ الوحيدَ من الآب، وأيضاً المولودَ الوحيد من مريم. إن الذي يقسم الأقنوم فيه سيُفصَل أيضاً عن ملكوته، والذي يمزج طبيعتيه سيُحْرَم من الحياة التي منه.

إن الذي يجحد ولادة مريم للّه لن يرى مجد ألوهيته، والذي يجحد التحافه بجسد بدون خطية لن ينال الخلاص ولا الحياة التي مُنحت بفضل جسده.

أعماله بالذات تشهد وقوّته الإلهية تعلّم المزدرين أنه الله الحق. وآلامه تبرهن أنه إنسانٌ حق(٤).

(٤) تعليم عقائدي رائع: يسوع أقنوم واحد غير منقسم بين طبيعتيه. له طبيعتان إلهية وبشرية غير ممتزجتين. هو إله وإنسان. أعماله وقوته الإلهية دليل على ألوهته. آلامه دليل على ناسوته. مريم أم الله. جسده من مريم. هو بريء من الخطية. تعليم أفرام هذا مشابه لتعليم غريغوريوس اللاهوتي ويدحض أبوليناريوس المعاصر له القائل بالطبيعة الواحدة، ويدحض أوطيخا الأردأ منه الذي يخلط الطبيعتين. كما أنه يدحض سلفاً نسطوريوس القائل بأقنومين وطبيعتين منفصلتين، وبأن العذراء هي أم المسيح لا والدة الإله.

-١٦-

أرسلْ نعمةً لتحييني، فكل الأَشياء تحيا بنَفَس الحياة

يا محب البشر الصالح! إذا كانت نعمتك تنسكب على العشب، على الزهور وكل النباتات الأرضية في موسمها، فهكذا ستمنح عبدك عندئذ ما يطلب إليك أكثر من ذلك جداً.

فالهواء يصير نقياً والطيور تزيِّن أصواتها بألحان متنوعة، مترنمة لحكمتك العظيمة. كل الأرض تكتسي برداء ذي زهور عديدة الألوان لم تَحِكْه أيدٍ بشرية، وتبتهج وتحتفل باليوم المقدس.

ارو قلبي أيضاً بندى نعمتك يا محب البشر الصالح! مثل حقَل مغروس لا يمكن أن يُنبت نباتاته أو يغذِّيها بدون أمطار كافية، هكذا قلبي عاجز عن إنتاج الأشياء المُسرّة لك وعن حمل ثمار الحقيقة بدون نعمتك.

عجباً، المطر يغذِّي النباتات والأشجار مكلَّلة بزهور متنوعة. فليَرْ ندى نعمتك أيضاً ذهني وليزيِّنْ قلبي بزهور الانسحاق والَتواضع والمحبة والصبر.

-١٧-

في توجيه النعمة وفي الدموع

أيها المحبُّ الإنسانَ الصالحُ، يا مَن قَبلَ الفلسَين ومدَحَ مشيئةَ الأرملة الصالحة، اقبلْ صلوات عبدك؛ عزّزْ صلاتي واستجب لطلباتي، لكي أصير هيكلاً لنعمتك؛ لتسكن فيّ وتعلّمْني هي بذاتها كيف أُسرُّها. فلتداعب أوتارَ قلبي ولتعزفْ أغانيَ الانسحاق الممتلئة من الفرح. لتثبِّتْ ذهني كما بلجامٍ كي لا أُخطأ أمامك عندما أضلّ، وكي لا أُطرَح خارج النور.

أصغ يا رب، أصغ إلى صلاتي وهَبْ أن أصير أنا غيرَ الطاهر نقيّاً، وأن أصير أنا عديمَ الإحساس حكيماً، أن أصير أنا البطّال مفيداً في رعية فَعَلتك المختارين ورعية كل القديسين الذين أرضوك، وأن أدخَل إلى ملكوتك.

المبتهجون في الفردوس يتشفّعون من أجلي ويصرخون إليك يا محب البشر وحدك. التفتْ إلى صلواتهم. بهم سأردُّ إليك المجدَ، لأنك قد استمعت إلى صلواتهم وكنتَ سخيّاً معي ولم تزدرِ صلواتي.

أنت يا رب قد قلت بنبيّك: "افتح شفتيك فأملأهما". ها إن قلب عبدك وشفتَيه مفتوحة؛ املأها من نعمتك لكي أباركك بدون انقطاع أيها المسيح، إلهي ومخلّصي.

إن صلاتي عديمة القوة، لكن آثامي فاحشة وقوية. تسحقني الخطايا وتُرعبني ضعفاتي؛ إنك ثريٌّ وصالح، رقيق الفؤاد ورحيم.

أنت يا مَن فتحت عينَي الأعمى، افتح عينَي ذهني كي أعاين جمالك بلا انقطاع.

أنت يا مَن أسّست للبحر حدوداً بأمرك، أسِّسْ حدوداً لقلبي بنعمتك، كي لا يحيد إلى اليمين أو إلى اليسار عن جمالك.

أنت يا مَن أعطيتَ الماء في البرية للشعب الذي لم يضع نفسه والذي قاومك، امنحني تخشّعاً وتعطّفْ عليَّ مانحاً عبرات لعينيّ، لكي أبكي نهاراً وليلاً طوال حياتي بوداعة، بمحبة وبقلب نقي.

أصغِ يا رب إلى صلاة عبدك، بحسب شفاعات كل قديسيك، يا مَن هو مبارك فوق كل شيء إلى الدهور.

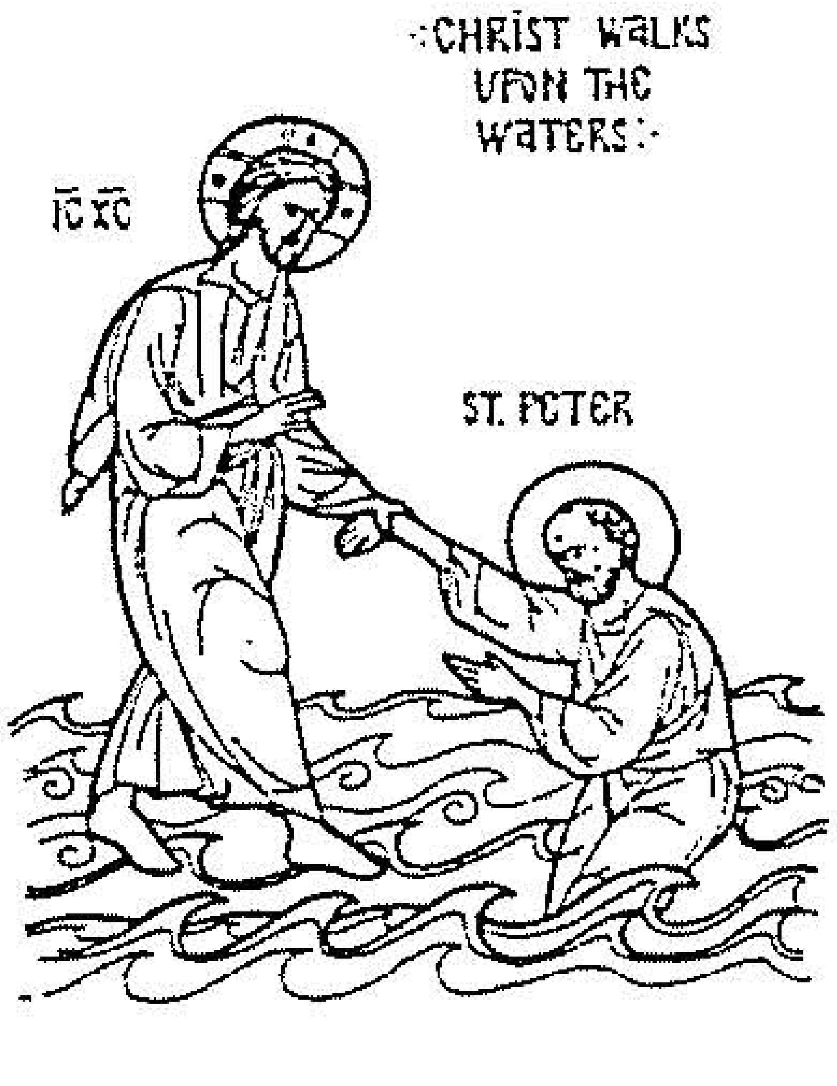

-١٨-

رغم خطاياي أصغِ إليّ

أقصِ العدو وقوِّني نحو الصلاح

أيها الإله الصالح والمسبَّح، أيها الإله الكائن قبل الأزل: أصغِ إلى هذا الإنسان، إلى هذا الخاطئ في هذه الساعة!

استمع إليَّ يا الله، استمع إليَّ في حصنك، لا تذكر عقوق عدم استحقاقي الدائم.

استجب لصلاتي بنارٍ كما فعلتَ مرة لنبيّك.

يا إله القوات المقدسة! يا خالق عادمي الأجساد! أنت يا مَن نطقت: اسألوا تُعطوا! لا تتشبّط بي أنا النجس، الذي نجَّستُ شفتيَّ وأنا مغطًّى بالخطايا.

استمع إليَّ يا مَن وعدتَ أن تسمع الذين يدعونك في الحق، ووجِّه خطوات عبدك إلى طريق السلام.

إني أصرخ إليك من كل قلبي: يا الله، يا الله، استمع إليّ، يا رجاء جميع أقاصي الأرض والذين يرحلون بعيداً. اطردْ كلَّ الأرواح النجسة كي تفرَّ من وجه عبدك.

تقلّد أسلحتك وترسك وانهضْ لمعونتي. استلَّ سيفك واسحق الذين يضطهدونني. يا رب اخبرْ نفسي: أنا خلاصُكِ.

لينسحب من نفسي روحُ الخوف، روح القنوط وروح الكبرياء وكل طرق الخبث. لتنطفئْ فيها كلُ طرق الإثارة التي أنتجتها أعمال الشرير. لتستنرْ روحي ونفسي وجسدي بنور معرفتك. فلأبلغْ أنا إنساناً كاملاً مخلوقاً بحسب مقياس قامة ملء المسيح مع الملائكة وكل الذين أرضوك طوال العصور، وسأمجّد اسمك الكلي الاحترام والوقار أيها الآب والابن والروح القدس.

-١٩-

كيف تُحلُّ الضمير من القلق الداخلي

أيها الرب والسيد! يا إله السماء والأرض! اظهرْ معروفك وافتح لي باب التوبة، إني اصلِّي إليك بنفسي المنكوبة.

عاملني بحسب عظيم رحمتك. أدرْ أذنك إلى صلاتي واغفر لي، أنا المذنب بالسقوط في خطَايا كثيرة؛ اغفر لي كل الأشياء البائسة التي فعلتُها، لأن إرادتي الشريرة قد غلبتني.

أنا أطلب سلاماً فلا أجده، لأن ضميري ملوَّثٌ؛ لا يوجد هدوء فيَّ بسبب حِمْل آثامي.

أصغِ يا رب إلى قلبٍ يصرخ إليك بتوجّع. لا تبال بأعمالي بل بوجع قلب نَفسي، وسارع إلى شفائي أنا المجروح بشدة. امنحني أن أرجع سريعاً إلى حواسّي بحسب نعمة محبتك للبشر.

انتزعْ مني عبءَ خطاياي ولا توقع بي ما تستحقه أعمالي، كي لا أفنى في النهاية، وكي لا أُحرَم بالكلّية من العناية والاهتمام بتجديدي.

إني أجثو أمام رأفتك؛ ارحمني أنا الذي أُلقيتُ في الهوان بدينونة أعمالي.

أيها السيد، استدعني، أنا الأسير الممسوك والمقيَّد بأعماله كما بسلاسل، لأنك وحدك تعرف كيف تحرّر المقيَّدين وكيف تشفي القروح الخفيّة والمعروفة لديك وحدك، يا مَن تعرف كل الأسرار.

اظهرْ معروفك وامددْ يدك إليّ. انتشلني من حمأة آثامي، أنت يا مَن لا تبتهج بهلاك الإنسان، ويا مَن لا تصرف وجهك عن الذين يصرخون إليك بدموعٍ.

أصغِ، يا رب، إلى صوت عبدك الذي يصرخ إليك: اظهرْ وجهَكَ لي، لأني مُعتَّمٌ؛ أنرني بمجيء روحك القدوس.

امنحني، يا رب، اجتهاداً، لأني قد أصبحتُ مدنَّساً، وحوِّلْ تعبي إلى فرح. مزِّق مسوحي ومَنْطقني بالسرور؛ فلينفتحْ باب ملكوتك لَي لكي، عندما أدخل إلَى هناك، أمجّد اسمك الكليَّ قدسه أيها الآب والابن والروح القدس.

-٢٠-

امنح مروراً يسيراً عبر الجبايات(٥) ومغفرة في الدينونة

بقوةٍ أمجدكَ يا رب، يا مَن اعتبرتَ تواضعي ولم تُسلمني إلى أيدي أعدائي، وخلَّصتَ نفسي من الفاقة.

فلتسترْني يدك الآن، يا سيد، ولتحُلَّ رحمتك عليّ، لأن نفسي مضطربة وتحزن جداً بسبب كون يد المخاصم (العدو) الماكرة قد تجد نفسي، عندما تترك هذا الجسد الفقير، فتحفظها وراءها في الظلام بسبب الخطايا التي ارتكبتها في هذه الحياة، بمعرفة وبجهلٍ معاً.

كن رحيماً لي يا سيد الكل، كي لا ترى نفسي ومضة الشياطين الماكرين الشنيعة؛ بل كي تستلمها ملائكتك الأطهار والمشعّين.

---

(٥) الجبايات:"Toll-Houses" بعض المصادر الآبائية تذكر وجود مراحل ستمر فيها النفس بعد الموت مباشرة، في طريقها إلى السماء، حيث ستتعرض لتجارب وامتحانات من الشياطين التي ستختبر النفس في كل الخطايا. على كل حال، الكثير من اللاهوتيين يفسرون هذه الإشارات الآبائية بصورة رمزية أكثر منها واقعية (المترجم). راجع

Father Seraphim Rose: The Soul After Death. St Herman of Alaska Brotherhood, 1993.

ولا أساس لها في الكتاب المقدس.

أعط مجداً لاسمك القدوس، وبقوتك أنهضني إلى عرشك الإلهي.

عندما أُدان، لعلَّ يد أمير هذا العالم لا تُمسك بي وتجرّني، أنا الخاطئ، بعيداً إلى أعماق الجحيم، بل احمني وكن محاميَّ.

ارحم يا رب نفسي التي تنجّست بأهواء هذه الحياة؛ وإن كنتُ قد خطئتُ في أي شيء كإنسان، بسبب ضعف طبيعتي، سواء بالقول أو الفعل أو الفكر، فارحمني أنتَ يا مَن له القدرة على إعتاق البشر من خطاياهم، وحررني كي أنال سلوانك المنعش وأوجَد بدون نَجَس أو تلوُّث، نقيّاً وبدون ملامة أمامك؛ ولتستقبلْني يدك يا سيد، لأنكَ مباركٌ مدى الأجيال.

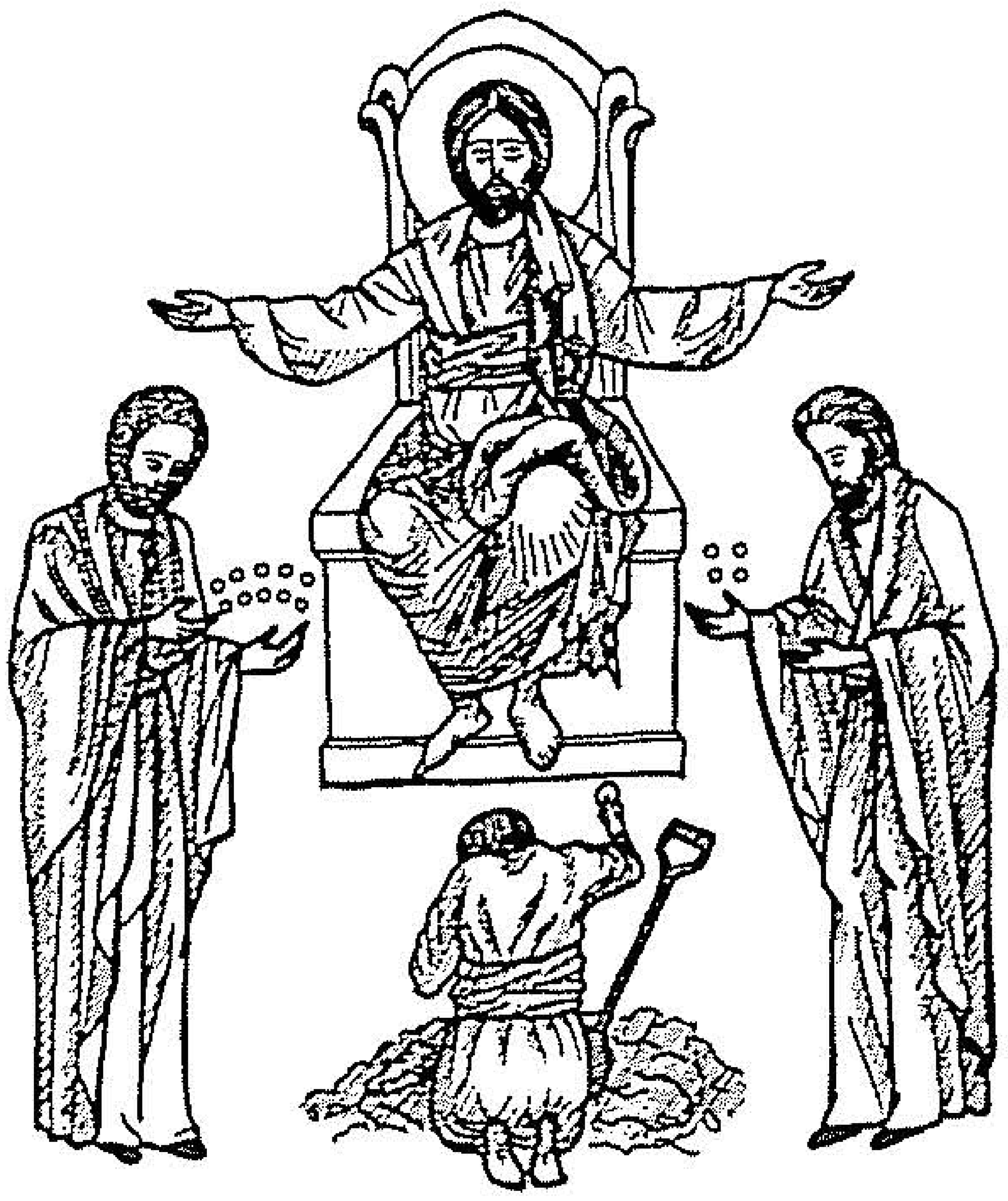

-٢١-

انطلقْ في التوبة

لأن الرب على وشك أن يستقبلك

يا مَن تُسَرُّ بالتائبين أمِلْ ذاتك إليَّ أنا الخاطئ. املأني بالفُتات من مائدتك العظيمة؛ لا تدعْ حياتي تفنى على الجهة اليسرى في الظلام. لا تدع حقك يرى نجاسة بؤسي الفاحشة في ذلك الصباح العظيم عندما سيُعلَن الحُكم مدى الأبدية.

فرحُ هذا العالم مرٌّ، الويل للذي أُغري به! كمركب تتقاذفه الأمواج هكذا تنتفض حياتي ببؤسي. إن فرحاً باطلاً يسببها بوهم الإشباع. كن قبطاني ووجِّه سفينتي نحو مينائك في ذلك الصباح العظيم عندما سيُعلن الحكم مدى الأبدية.

الله يحب الخاطئ عندما يأتي إلى التوبة بعينيه المليئتين بالدموع، متنهِّداً ناشجاً، ويصرخ إليه: يا ربنا، خلِّصني من النار! أرجوك اقبل دموع بؤسي. لقد خطئتُ أمامك طوعاً، ومع ذلك طوعاً أتوب إليك أيضاً.

هكذا تقدَّمْ بشجاعة أيها الخاطئ. فالباب مفتوح سلفاً

وجاهز لاستقبالك. أحضِرْ للرب ذبيحةً من دموعٍ وامضِ بحرية إليه. إنه لا يطلب عطايا، ولا يأبه بالأشخاصِ أبداً. إنه رؤوف القلب نحو البشر ويغفر بطيبة خاطر خطايا الخاطئين التائبين.

-٢٢-

تطويبات

طوبى للإنسان الذي يقتني في ذاته مخافة الله، لأن الروح القدس يدعوه مطوَّباً، قائلاً: طوبى للإنسان الذي يخاف الرب.

طوبى للإنسان الذي يقتني في ذاته محبة الله، لأنه يحمل اللهَ في نفسه. الله محبةٌ، ومَن يسكن في المحبة يسكن في الله.

طوبى للذي أدرك التحمّلَ، لأن الإنسان الطويل الأناة عظيمٌ في الفهم.

طوبى للمتغرِّب عن الغضب والنزق، لأن الغضب لا يلد إنساناً من حقيقة الله.

طوبى للذي أحب الوداعة بحسب كلمة الله: طوبى للودعاء.

طوبى للذي أدرك الطاعةَ الحقة، لأن إنساناً كهذا يحاكي الرب مخلِّصنا، الذي كان مطيعاً حتى الموت.

طوبى للمتغرِّب عن الحَسَد والمنافسة، لأنه بالحسَد دخل الموت إلى العالم.

طوبى للذي لا ينجّس لسانه بالافتراء، لأن قلب المفتري مملوء من كل نوعٍ من النجاسة(٦).

طوبى للذي أدرك التقشّفَ، لأن هذه الفضيلة هي دعامة كل الفضائل الباقية.

طوبى للمحسن إلى الفقراء، لأنه سيجد الكثيرين يدافعون عنه يوم الدينونة.

طوبى للذي يعيش حياة سامية ومع ذلك يحافظ على اقتناع متواضع: إنه يحاكي المسيح ومعه سيجلس في المجد.

طوبى للذي يُقهر نفسه لإتمام كل نوع من الأعمال الصالحة، لأن الغاصب سينتزع ملكوت السموات.

طوبى للذي يسير في الطريق المستقيم، لأنه سيدخل إلى السموات حاملاً إكليلاً.

طوبى لجميع هؤلاء، لأنهم سيقفون بجرأة أمام القاضي وينالون مكافأة مقدسة من يديه.

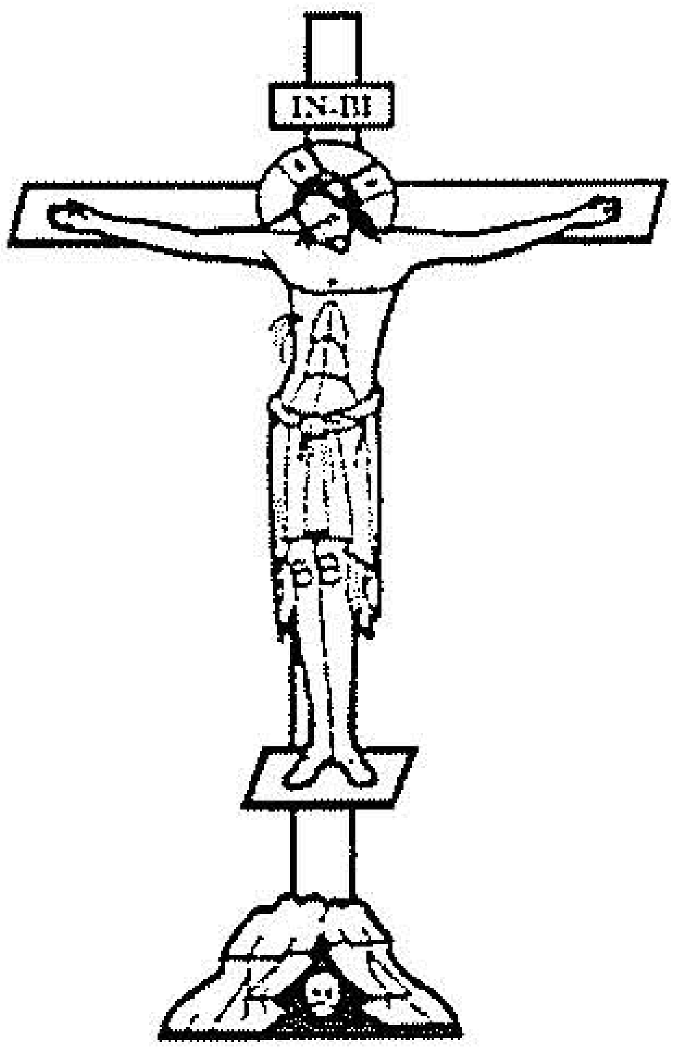

(٦) إذاً: الافتراء ينجّس القلب والفم. في رأي ثيئوذوريتوس القورشي هو قتل معنوي.

-٢٣-

مخلّصنا، إله وإنسان معاً

نعترف بشخص واحد نفسه كإله تام وإنسان تام. إنه الله الكلمة الذي صار جسداً(٧). لأنهً إن لم يصرْ جسداً فلماذا تم اختيار مريم؟ وإن لم يكن الله فلماذا يدعوه جبرائيل رباً؟

إن لم يصرْ جسداً فلماذا وُضع في مذود؟ وإن لم يكن الله فمَن كانت تمجِّد الملائكة التي نزلت من السماء؟ إن لم يصرْ جسداً فمَن تمّ لفّه بأقمطة؟ وإن لم يكنْ الله فعلى شرف مَن ظهر النجم؟

إن لم يصرْ جسداً فمَن حمل سمعان بيديه؟ وإن لم يكن الله فلمَن قال سمعان: الآن أطلقْ عبدك يا سيد بسلام؟

إن لم يصرْ جسداً فمَن أخذ يوسفُ عندما هرب إلى مصر؟ وإن لم يكن الله فمَن تمّم النبوة: "من مصر دعوت ابني؟"

إن لم يصرْ جسداً فمَن عمَّد يوحنا؟ وإن لم يكن الله

(٧) لفظة الجسد هنا، كما في الكتاب المقدس أيضاً (يو ١: ٤١)، تعني إنساناً.

فلمَن قال الآب: "هذا هو ابني الحبيب الذي به سُررت؟"

إن لم يصرْ جسداً فمَن جاع في البرية؟ وإن لم يكن الله فإلى مَن جاءت الملائكة وخدمت؟

إن لم يصرْ جسداً فمَن دُعي إلى عرس قانا الجليل؟ وإن لم يكن الله فمَن حوَّل الماء إلى خمر؟

إن لم يصرْ جسداً فمَن أخذ الأرغفة في البرية؟ وإن لم يكن الله فمَن أطعم الخمسة آلاف رجلٍ ونساءَهم وأولادهم بخمسة أرغفة وسمكتين؟

إن لم يصرْ جسداً فمَن نام في السفينة؟ وإن لم يكن الله فمَن انتهر الأمواج والبحر؟إن لم يصرْ جسداً فمع مَن جلس سمعان الفريسيّ على المائدة؟ وإن لم يكن الله فمَن غفر خطايا الزانية؟

إن لم يصرْ جسداً فمَن ارتدى لباس الإنسان؟ وإن لم يكن الله فمَن شفى المرأة النازفة الدم عندما لمست رداءه؟

إن لم يصرْ جسداً فمَن بصق على الأرض وصنع طيناً؟ وإن لم يكن الله فمَن أعطى البصر لعينّي الأعمى بذلك الطين؟

إن لم يصرْ جسداً فمَن بكى على قبر لعازر؟ وإن لم يكن الله فمَن أمره أن يخرج من القبر بعد أربعة أيام من موته؟

إن لم يصرْ جسداً فعلى مَن قبض اليهود في البستان؟ وإن لم يكن الله فمَن ألقاهم على الأرض بكلمَتي: "أنا هو"؟

إن لم يصرْ جسداً فمَن تمَّت إدانته أمام بيلاطس؟ وإن لم يكن الله فمَن أخاف زوجةَ بيلاطس في حلم؟

إن لم يصرْ جسداً فثياب مَن تمّ انتزاعها منه واقتسامها من الجند؟ وإن لم يكن الله فلماذا أظلمت الشمس عند صلبه؟

إن لم يصرْ جسداً فمَن صُلب على الصليب؟ وإن لم يكن الله فمَن هزَّ أساسات الأرض؟

إن لم يصرْ جسداً فأيدي وأقدام مَن تمّ تسميرها على الصليب؟ وإن لم يكن الله فكيف اتفق أن انشقَّ حجاب الهيكل إلى شطرين وتشقّقت الصخور وتفتّحت القبور؟

إن لم يصرْ جسداً فمَن عُلِّق على الصليب بين لصين؟ وإن لم يكن الله فكيف استطاع أن يقول للص: "اليوم تكون معي في الفردوس؟"

إن لم يصرْ جسداً فمَن صرخ عالياً وأسلم الروح؟ وإن لم يكن الله فصرخة مَن دفعت الكثير من أجساد القديسين الراقدين إلى النهوض(٨)؟

---

(٨) أفرام يقول هنا بقيامة الراقدين يوم الجمعة لا يوم الأحد كما توّهم بعض المترجمين. وعلى هذا يوحنا فم الذهب في تفسير الآية ٢٧: ٥٢ من متّى.

إن لم يصرْ جسداً فمَن رأت النسوة مسجًّى في القبر؟ وإن لم يكن الله ففي مَن قال الملاك لهن: "قد قام، إنه ليس ههنا؟"

إن لم يصرْ جسداً فمَن لمس توما عندما وضع يديه في آثار المسامير؟ وإن لم يكن الله فمَن دخل الأبواب المغلقة؟

إن لم يصرْ جسداً فمَن أكل عند بحيرة طبرية؟ وإن لم يكن الله فعند أوامر مَن امتلأت الشباك بالأسماك؟

إن لم يصرْ جسداً فمَن رأى الرسلُ مرفوعاً إلى السماء؟ وإن لم يكن الله فمَن صعد لدى هتاف الملائكة المفرح، ولمَن أعلن الآبُ: "اجلسْ عن يميني؟"

إن لم يكن إلهاً وإنساناً إذن، فحقاً خلاصنا كاذب، وكاذبة كل أقوال الأنبياء(٩).

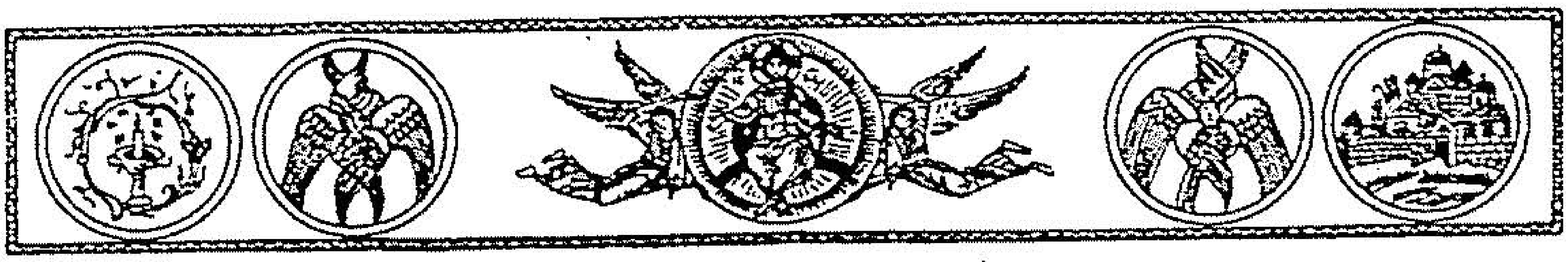

(٩) أفرام هنا قريب جداً من رسالة غريغوريوس اللاهوتي إلى كليدونيوس، ورسالة ثيئوذوريتوس (٤) إلى الرهبان: يوضح وحدة الشخص وثنائية الطبيعتين والفعلين. هذا ما صار تعليم خلقيدونيا والمجمع السادس المسكوني.

-٢٤-

عطية الدموع وانهزام العدو

أيها الرب يسوع المسيح، ابن الله، مخلِّصنا! امنحني أنا عبدك انسحاقاً واستنارة قلب، حتى، بقلب مستنير، تنبع دموعُ الحلاوة من الصلاة النقية، حتى لا يتطلب الأمرُ الكثيرَ من دموعي لكي تمحوَ سجلَّ خطاياي، وكي، من أجل نواح قصير، تُطفئ النارَ المشتعلة فيَّ. لأنك إن سمحت لي، أيها السيد، أن أبكي هنا، فإنك ستحررّني عندئذ من النار التي لا تُطفأ.

أنا أعرف، أيها الرب الطويل الأناة ومحب الإنسان، أنني أمرمرك وأُغيظك بشكل فادح كل يوم وساعةٍ، لكن حنوّ تحمّلك سيهزم خبثي ومرارتي.

أيها الرب، يا مَن تحب الصالحين وأنت إله الرحمة والرأفة! خلِّصني من العدو الفاسد الرهيب، الذي يقيِّد نفسي كل ساعة ويضطهدها بأفكارٍ شريرة وفاسدة.

قوتك لا توصَف أيها المسيح، لأنها انتهرت أمواج البحر. فلتنتهر (العدو)، ولتجعلْه عاطلاً، ولتطردْه بعيداً عنّي، أنا خادمك.

كل يوم يجدّد غدره بي ويسارع إلى امتلاك ذهني المعاق ليبعدني عنك وعن وصاياك الإلهية.

لكن، أيها السيد، الرب الكلي الرحمة، أرسلْ قوتك بسرعة واطرد مني، أنا عبدك البطّال، هذا الثعبان القوي بكل أفكاره الماكرة والمخزية، لكي أسبّحك بطهارة مع أبيك الأزلي وروحك الكلي قدسه الصالح والمانح الحياة، الآن وكل أوان وإلى دهر الداهرين. آمين.

-٢٥-

خلّصني من البلادة والكسل

لقد اختار حمل الله البريء من الخطايا أن يكابد الصليب طوعاً في الجسد وذُبح من أجل خلاصنا نحن الخطاة. لقد ذاق الموتَ في جسد غير فاسد ليخلِّص طبيعتنا الساقطة. فيا مَن أنت الحكمةُ وقوة الله الآب، شعاع مجده، يا يسوع الفائق الفهم، أيها المسيح الذي لا يُسبَر غوره، يا محب البشرية الرؤوف القلب وحدك، اسكبْ عليَّ، أنا الخاطئ، رحمتك العظيمة؛ وبنعمتك اطرد مني كل بلادة وكسل ونزق، لكي لا أسمع في مجيئك الثاني شجبك الرهيب: ماذا تألّمت من أجلي؟

في ذلك اليوم الرهيب والمخيف، أيها الرب، ستقول لنا نحن الخطاة: ستعرفون تماماً ماذا تألّمتُ من أجلكم. أنا، الله، اتخذت جسداً من أجلكم. أنا، غير المنظور، سكنت منظوراً على الأرض من أجلكم. من أجلكم جعتُ، عطشتُ وتعبتُ. من أجلكم أُضطهدتُ ورُجمتُ. أنا، البريء من العيب، ضُربتُ على الوجهَ وبُصق عليَّ من أجلكم. أنا، البريء من الخطية، قاسيتُ موتاً شائناً من أجلكم. من أجلكم طُعِنَتْ أضلاعي بحربةٍ وأُعطيتُ خلاً

ممزوجاً بمرارة لأشربَ. كل هذه عانيتُ من أجلكم، لكي أجعلكم قديسيٍّن في السماء. أعطيتكم ملكوت السموات، دعوتكم كلّكم أخوة، أرسلت إليكم الروحَ القدس. أيها الناس، ماذا تألّمتم من أجلي؟

ماذا أعطي جواباً أنا، التعيس، الشرير، الخاطىء، المدنَّس؟ الشهداء سيشيرون إلى كلومهم، إلى عذاباتهم، إلى أعضائهم المبتورة، إلى تحمّلهم حتى النهاية. النساك سيشيرون إلى نسكهم، إلى أصوامهم الطويلة، إلى سهرانيَّاتهم، إلى عدم قنيّتهم، إلى دموعهم وكل معاناتهم. أما أنا، الكسول والخاطئ، فإلى ماذا أشير، إلا إلى ثمار الشراهة المخزية، إلى الانغماس في الشهوات الحسِّية، إلى البلادة وحب القنية، إلى النزق والمجد الباطل والبلادة؟

كيف سأبرِّر نفسي أيها الرب إن سألتني حساباً عن الزمان الذي أُعطيته للتوبة لكني أنفقته في التواني؟ وإذا تمَّ استجوابي عن كلامي الباطل وأفكاري وشهواتي الشريرة، فعندئذ أي خوف وأي تشوّش سيتملكاني أنا البائس، وأية عذابات ستلي ذلكً؟

اصفح عني يا رب! اصفح عني يا رؤوف القلب، اصفح عني يا محبَّ البشر! اصفح عني أيها الصالح وحدك! كن رحيماً وارحمني بحسب لطفك الفريد. قوِّ

نفسي التي أُفسدت بكسلي وبلادتي، يا مَن ترفع الوضعاء وتنقذ المكروبين!

أنت تعرف كم أنا مهملٌ وبائسٌ، أنت تعرف كم من الأفكار الكثيرة الماكرة والشريرة تحاربني، أنت ترى خبث العدو وخدَعه الكثيرة التي يستعملها ضدي. ساعدني بحسب عَظيم رحمتك، اجعلني صاحياً ويقظاً، نشِّطني وخلِّصني بنعمتك بصلوات سيدتنا الكلية الطهارة أم الله وجميع القديسين.

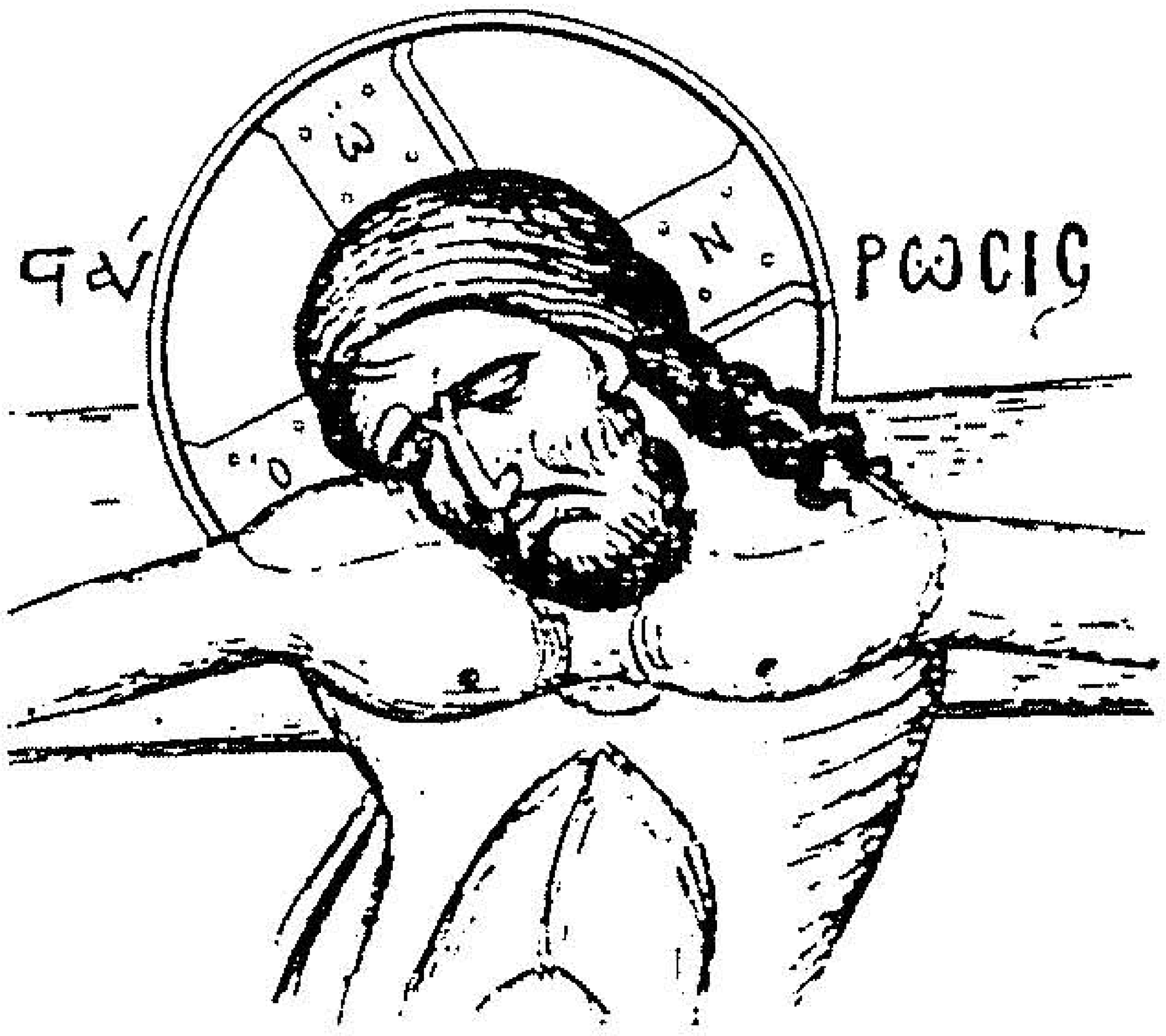

يا رب الكل، بحسب رحمتك، ميناء خلاصٍ لي، ملجأ محبة وخلِّصني.

أتضرَّعِ إلى حنوّك يا مخلّصي. من الآن فصاعداً اسكب عليَّ مراحمك في تلك الساعة وأبعدني عن الذين سيُعذَّبون.

أيها المسيح، يا مَن شئت أن تصير ذبيحة من أجلنا، قوِّض الخطيئة التي وخزَتْ كل أعضائي. انزلْ واسكنْ في أعضائي.

عندما يسمع الشرير هذا ستتكسّر أسنانه وستنطفئ نار جهنم ببهائك.

لقد تقيّأ الشيطان الشرير سمَّه عليّ، لقد أفسدني وأبخسني بالخطيئة. إنما بما أني أتبع طريقك، وأنت كليّ القدرة، فإني، في ضعفي، أضمر رجاء في أنك ستزدريه وتساعدني بغفران الخطايا، عندئذ سيُخزَى مُفسدي.

أمراءُ الشرّ أعموني بأهوائهم، وبمكرهم سَلبوني جمال شبابي. ماذا أستطيع أن أفعل، وقد أضعتُ الآن نقاوتي؟ سأصرخ إلى المسيح لكي يعيد جمالي إليّ، وعندئذ سيُخزَى الأشرار.

مـخلّصي يناديني أنا تلميذه: لا تيأسْ من خلاصِك؛ سأستعيدك وأغفر لك خطاياك. لقد وجدتك ولن أتركك؛ لقد فديتك بدمي الخاص.

اصرخْ أيها الخاطئ بكل قوتك، ولا توفِّر صوتك؛ لأن ربَّك رحيم ويحبُّ الذين يتوبون. حالما تعود سيخرج الآب سلفاً ليقابلك. سيذبح العجل المسمَّن، ويكسوك برداء جميل ويبتهج بك.

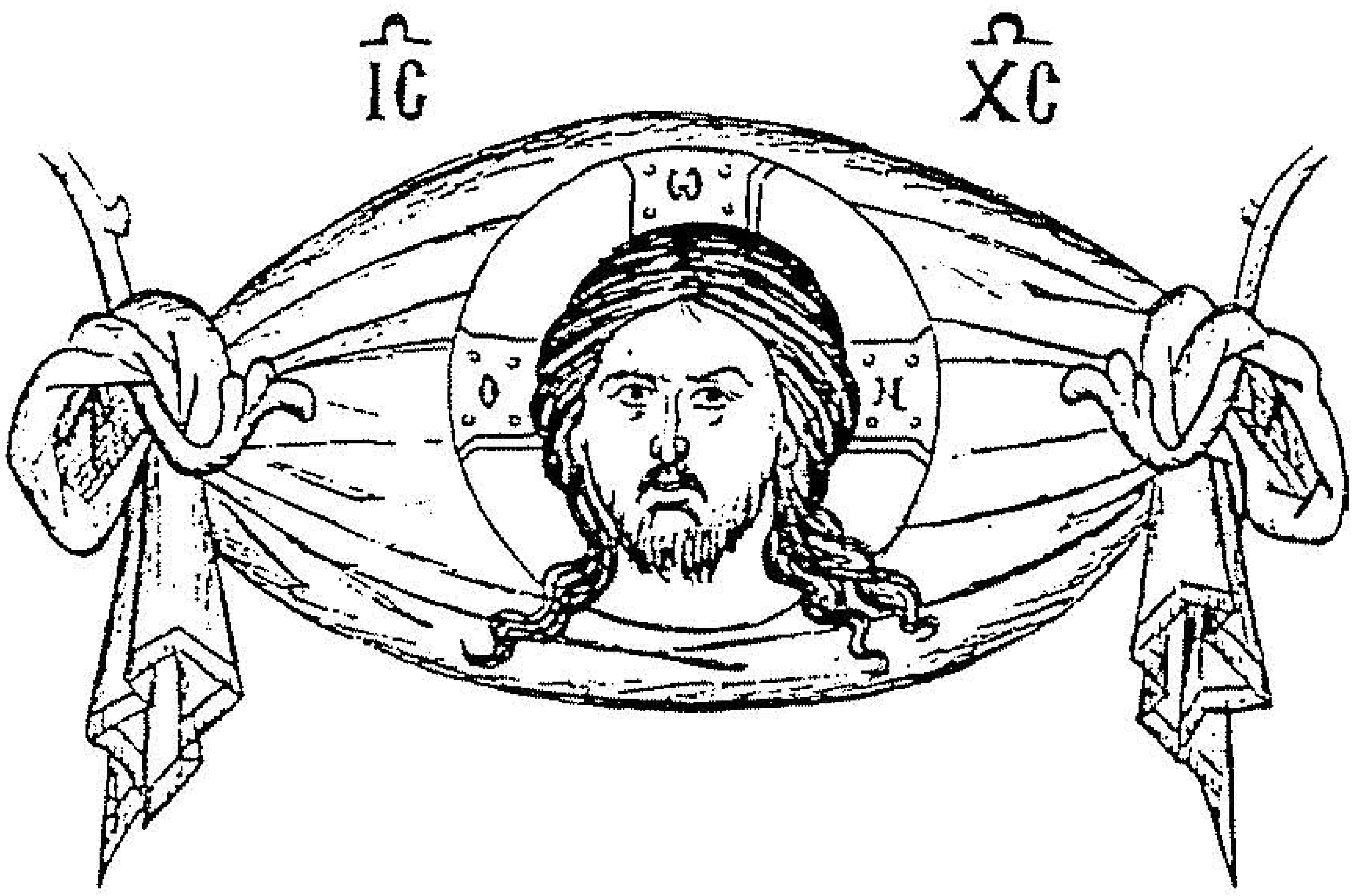

-٢٧-

لا تجبن. يوجد رجاء وهو المسيح

لا تَجبُني يا نفس ولا تحزني؛ لا تنطقي الحكمَ النهائيَّ على نفسك بسبب كثرة خطاياك، لا تسلّمي نفسك إلى النار ولا تقولي: الرب قد طرحني من وجهه.

كلمات كهذه لا تُسرُّ اللهَ. ألا يمكن للذي سقط أن ينهض؟ ألا يمكن للذي ضلَّ أن يعود ثانية؟ ألا تسمعي كم رؤوف هو الآب بالخليع؟

لا تستحي بالعودة والقول بجرأة: سأنهض وأذهب إلى أبي. انهضي واذهبي!

سيستقبلك ولن يوبّخك، بل بالحري سيبتهج بعودتك. إنه يترقبك؛ فقط لا تستحي ولا تختبئي من وجه الله كما فعل آدم.

من أجلك كان صلْبُ المسيح، فهل سيُخرجك خارجاً؟ إنه يعرف مَن يُغمُّنا. إنه يعرف أن لا مُعين آخر لنا إلا هو وحده.

المسيح يعلم أن الإنسان بائس. لا تسلِّمي ذاتك للقنوط والبلادة، مفترضة أنك قد أُعددتِ للنار. المسيح لا يجني

أية تعـزية من إلقـائنا في النار؛ إنه لا يجني شيئاً إذا أرسلنا إلى الهاوية لنتعذّب.

حاكي الابن الخليع: اتركي المدينة التي تضورّك جوعاً. تعالي وتوسّلي إليه فتعاينين مجد الله. سيستنير وجهك وستفرحين بحلاوة الفردوس. المجد للرب ومحب الإنسان الذي يخلّصنا.

أن تحيا حياة لائقة؟ مارس التواضع، لأنه من المستحيل بدونه أن تحيا حياة لائقة.

قم بكل عملك باسم مخلِّصنا يسوع المسيح، فتُحمَل ثمارك هكذا إلى السماء.

يبدأ الإنسان بالضلال عندما ينسحب من التواضع. فالذي هجر اللهَ يغمُّه الروحُ الشرير كما أغمَّ شاول.

شراك العدو مدهونة بالعسل. فالذي ينجذب بحلاوة العسل تصطاده في الأشراك ويمتلئ من كل نوع من الويلات.

أحببْ التواضع فلا تسقطَ في فخ الشرير أبداً، فبالتحليقَ على جناحَي التواضع الرشيقين ستبقى فوق شراك العدو دائماً.

العجرفة هي مثل شجرة عالية جداً لكنها مسوَّسة. كل أغصانها هشَّة، وإذا تسلَّق عليها أحدهم فسيسقط حالاً من العلوّ الذي بلغه.

طوبى للذي اغتنى بالآمال الصالحة واستنار بالأفكار الصالحة: مجده عظيم ودائم.

لنجاهدْ في سبيل اقتناء الانتباه اليقظ(١٠)، حتى نميّز خطايانا ولنكنْ متواضعين دائماً، حتى لا نحضن كالأفعى شراً أو فكراً عالياً عن أنفسنا.

لنحبَّ اليقظة، حتى نملك قلباً نقياً كي نحفظ الهيكل الذي أودعناه غير مدَّنس بالفساد الخاطئ.

عجِيبة هي الصلاة المصحوبة بالتنهدات والدموع، خاصة إن كانت الدموع مذروفة سراً.

الذي يصلّي في ذهنه بإيمان يعاين الرب أمامه. لأننا "به نحيا ونتحرك ونوجَد"(١١).

انتحبْ أمام الرب إن قسا قلبك، ليُضيئك الرب باستنارة المعرفة ويمنَّ عليك بأن تُحمَل إليه بقلب متوهّج.

---

(١٠) اليقظة موضوع رهباني هام جداً. نلاحظ لدى أفرام مجموع الفكر الرهباني اللاحق ولو مبَعثراً لا منَسَّقاً كما لدى يوحنا السلّمي وخلفائه. سمة أفرام هي بثّ الأفكار في صلوات. قانون يسوع متأثّر جداً بأفرام.

(١١) أعمال الرسل ١٧ : ٢٨.

-٢٩-

اعترافٌ بالله الذي صار إنساناً في يسوع المسيح الرب

إن الذي هو من الله، الله الكلمةُ، ابن الآب المولود الوحيد، له وللآب جوهر واحد، هو كائن من كائن، مولود الآب بصورة لا توصف بدون أم قبل كل الدهور: هذا الواحد ذاته وُلد في الأيام الأخيرة من ابنة بشر، من العذراء مريم بدون أب. الله وُلِدَ متجسِّداً، لابساً جسداً اتخذه منها، صائراً إنساناً، وهَذا ما لم يكنْهُ، وباقياً الله، وهذا ما كان عليه(١٢)، لكي يخلّص العالم.

وهو المسيح، ابن الله، المولود الوحيد من قِبَل الآب والمولود الوحيد من قِبَل أمه.

أعترفُ بأن الواحد نفسه هو إله كامل وإنسان كامل، في طبيعتين، متحدتين في أقنوم أو شخص واحد(١٣)،

(١٢) أي صار ابنُ الله في الزمن إنساناً مع أنه لم يكن قبلاً إنساناً. وبقي إلهاً على ما كان عليه قبل الأزل.

(١٣) نرى لدى أفرام ترادف لفظتي شخص وأقنوم في طبيعتين: عبارة مجمع خلقيدونية.

مُدرك إلهاً غيرَ قابل للتجزئة، غيرَ مختلط، غير متبدِّل، الذي ٱلتحف بالجسد، وأُحييَ بنفس عاقلة[١٤]، وجاء ليشبهنا في كل شيء عدا الخطيئة[١٥].

إن الواحد ذاته هو أرضي وسماوي، زمني وسرمدي، ببداية وبدون بداية معاً، فوق الزمانُ وخاضع للزمان، مخلوق وغير مخلوق، يتألم وبلا تألم[١٦]، إله وإنسان وهو كامل في كليهما[١٧]. واحد في طبيعتين، وحدوي في كليهما.

---

(١٤) "نفس عاقلة": ضد أبوليناريوس.

(١٥) عبرانيين ٤ : ١٥.

(١٦) يتألّم كإنسان وغير متألّم كإله.

(١٧) كامل في كلا الطبيعتين: ضد أبوليناريوس القائل بأن الطبيعة البشرية في يسوع كانت بلا روح (بلا نوس nous)، وبلا نفس عاقلة. إجمالاً هذا النص والنص الآخر أعلاه يتفقان مع رسالة المصالحة التي أرسلها الأنطاكيون إلى كيرلس الإسكندري ومع تحديدات المجمع الرابع الخلقيدوني.

حياتي قد تبدَّد بالهموم والأفكار المخزية. امنحني يا رب شفاءً لكي أُشفَى تماماً من قروحي الخفيَّة. قوِّني، لكي أكدَّ باجتهاد في كرمك، حتى ولو لساعة واحدة. لأن حياتي في تفاهتها قد وصلت سلفاً إلى ساعتها الحادية عشرة.

وجِّه سفينتي وبضاعتها بوصاياك، وامنحني، أنا التاجر غير المستحق، حضورَ ذهن لأبيع حمولتي طالما يوجد زمان قائمٌ بعد.

زمان الإبحار يقترب سلفاً نحو النهاية؛ إنه كما لو كنتُ أسمعُ صوت القاضي سلفاً قائلاً لي، أنا الفاسق: اظهِرْ لي أيها الكسول الأمتعة التي ربحتها خلال حياتك.

إن ساعة الموت تُرعبني، أنا البائس. لأني أنظر إلى أعمالي ونفسي ترتجف، إني أرى بلادتي وكسلي؛ وعظامي يبست.

ساعة الرحيل تلوح أمام عينيّ ويستولي عليَّ خوف مروّع عندما أفكّر فيها. بدلاً من الفرح أصير أكثر خوفاً،

لأني لم أقم بأعمال مستحقة لله عندما كانت لديَّ النعمة.

الويل لي، يا نفسي! لماذا تهملين حياتك! لماذا تنفقين أيامها المعدودة في التبذير؟ أمن الممكن أن لا تعلمي أنك ستُستَدعين في لحظة؟ ماذا ستفعلين هناك بعدما عشت حياة مُهملة هنا؟ بأي جواب ستبرّرين ذاتك عندما تقفينَ أمام عرشَ القاضي الرهيب؟ العدو يخدعك ويوماً فيوماً يسرق ميراثك، لكنك تفشلين في فَهْم هذا.

كوني يقظة؛ استردِّي حواسك وصلّي إلى الله بدموع، صارخة إليه بحزن قلبيِّ: امنحني يا رب أن أحبّك من كل قوّتي وأن أخدمك باجتهاد، متمِّمة وصاياك المقدسة، حتى إذا حانت ساعة الرحيل تجدني جاهزة ومنتظرة لقياك بفرح عظيم، وحتى تقودني إلى ملكوتك الأبدي لأبتهج مع كل القديسين الذين أرضوك.

-٣١-

اعطني تذكُّر الحياة الأبدية، لأستعدَّ لها كما يجب عليَّ

خلِّصني أيها الرب الطويل الأناة! خلِّصني يا ابن الله، أيها المسيح البريء من الخطية! امنحني تأملاً في الحياة الأبدية حتى عندما لا يكون أي فكر آخر في قلبي سوى هذا الفكر أفعل، أنا الخاطئ، مشيئتك دائماً ونعمتك تساعدني؛ حتى أسير طوعاً في وصاياك، لكي أستعمل الوزنة التي أعطيتني إياها أيها الملك السماوي نحو غاية صالحة، وحتى أوجَد مستحقاً المديح منك أيها السيد، عندما أجني ربحاً باستثمارها حسناً. وعندما تأتي يا رب أقول بجرأة وبقلب نقي: طوبى لي، لأنك قد أتيتَ يا سيد!

ألبسني يا رب في عرسك رداءً أهلاً، الذي ستعدّه نعمتك من أجلي طالما أنا هنا. امنحني عندئذ أن أشعل مصباحاً، قد أعطاني إياه سخاؤك.

هكذا بفرح سأخرج لملاقاتك، ممجِّداً ومباركاً إياك، على رجاء أن أكون شريكاً للأبرار والقديسين الذينَ أرضوك عبر الدهور.

ديون الذين يسألون المغفرة مغفورة، لكن انتبه أن لا تُؤوي كراهية لأخوتك عندما تسأل مغفرة ديونك.

تبقى الصلوات المقدَّمة لله وراء أبواب مُوصَدة، وذلك إن كانت لا تحوي رحمة، لأن المحبة وحدها تستطيع فتح الأبواب أمام الصلاة.

إن كان أخوك غاضباً عليك، يكون الرب آنذاك غاضباً عليك أيضاً. وإن صالحتَ أخاك في الأسفل، تكون آنذاك قد صالحتَ الربَ في الأعلى أيضاً. إن استقبلتَ أخاك، تستقبل الرب آنئذ أيضاً.

هكذا تصالحْ مع الرب في شخص المهانين؛ أعطه سبباً ليكون مسروراً في شخص الذين يحزنون؛ زره في شخص الضعفاء؛ أطعمه في شخص الجياع.

أعددْ له سريراً طريئًا في شخص مسافر منهَك، اغسل قدميه، أَجلسْه على رأس مائدتك، اكسرْ خبزكَ وشاركه فيه، وأعطه كأسك أيضاً.

لقد أظهر سلفاً محبته العظيمة لك؛ لقد كسر جسده من أجلك وأعطاك دمه لتشرب.

يكلّم الربُ كلَّ نفس: اغفر لأخيك تعدّياته، فأغفر أنا خطاياك. أنت ستغفرً أخطاءً صغيرة، ربما ديونًا بعملات قليلة أو ثلاث بنسات، وأنا سأمنحك آلاف الوزَنات. فما عليك سوى أن تغفر فقط، بدون تقديم أية عطية؛ لكني سأغفر لك خطاياك وأمنحك الشفاء والملكوت السماوي.

سأقبل عطيتك عندما تصالح مَن يكنُّ لك عداوة؛ عندما لا يخامرك أيُّ خبث، عندما لا يغشاك غروبُ الشمس غاضباً، عندما تقابل كلَّ الناس بسلام ومحبة: عندئذ ستكون صلاتك مقبولة وتقدمتك مُسرَّة، وسيكون بيتك مباركاً وستجد بركة أيضاً.

أما إن كنتَ لا تصالح أخاك، فكيف ستسألني آنئذ المغفرة؟ أنا سيدك، أنا آمرك وأنت لا تنتبه إليّ. إنك خادم؛ كيف تتجرأ أن تُحْضِرُ صلاةً لي، أو ذبيحة، أو بواكير حصادك، إن كنتَ تكنُّ خبثاً لأي واحد؟ إن كنتَ تُشيح بوجهك عن أخيك، فهكذا سأشيح بعينيَّ عن صلاتك وعن تقدمتك.

-٣٤-

امنح دموعاً كي أغسل نفسي وأتحرر من أهوائي

يا محبَّ البشر، يسوع المسيح إلهنا: أتضرع إليك راجياً الثبات في رحمتك، لا تضعني من عن يسارك مع الجداء الذين سببّوا لك الحزن الكثير؛ لا تقل لي: "آمين، آمين أقول لك: لا أعرفك". بل بحسب حنوك امنحني دموعاً لا تُحصى، أعط قلبي انسحاقاً وتواضعاً وأغسله بخوفك، ليصير هيكلاً لنَعمتك.

وإن كنتُ أكبر الخطاة وغير مستحق، فإني أقرع بابك بدون انقطاع. وإن كنتُ بليداً وكسولاً ولا أهتم بخلاصي، فإني أرغب في اتّباع طريقك.

خلّصني من أجل رحمتك، لأنك صالح يا رب في كل طريقة من طرائقك، وحنوّك هو في كل أعمالك.

ساعدني يا سيد الكل، فنِّد سقم نفسي، حتى أُعتَق من الفساد الخاطئ وأتحرَّر من قيود الأهواء. فلا يعذِّبني خبثي ولا يسبيني الشيطان المعادي، بل فليُوافيني ملكوت روحك الإلهي الموقَّر، وليدفع الأهواء الفاسدة، التي تسودني الآن وتتحكّم بي، إلى الانسحاب مني. لأنك إله الرحمة والحنوّ والمحبة لكل البشر.

-٣٥-

إلى والدة الإله: في النيّات الصالحة وكيف نتطهَّر من الأهواء

يا أمَّ الله الكلية القداسة، أيتها السيدة الوحيدة التي هي طاهرة تماماً في النفس والجسد معاً، انظري إليَّ أنا المقيت والنجس، الذي سوَّدتُ النفسَ والجسد بلطخات حياتي الشهوانية الشرهة. طهِّري ذهني الأهوائي؛ قوِّمي أفكاري العمياء والهائمَة، واجعليها غير فاسدة؛ اصلحي حواسِّي وأرشديها؛ حرِّريني من الانجراف الشرير والبغيض وراء الميول والأهواء النجسة التي تعذّبني؛ أوقفي كل خطية تعمل فيَّ؛ امنحي ذهني التعيس والمكفهر يقظةً وفطنةً لأصحِّح نيّاتي ونقائصي، لكي، وقد تحرَّرتُ من ظلمة الخطية، أكون مستحقاً لأمجدَك وأسبِّحك بجرأة، يا مَن هي وحدها الأم الحقيقية للنور الحقيقي، المسيح إلهنا؛ لأن كل الخليقة، المنظورة وغير المنظورة، تباركك وتمجِّدك، معه وفيه معاً.

للممتلئ دائماً من الفرح الروحي والذي يحمل نير الرب الصالح بدون تعب، لأنه سيُكلَّل بالمجد.

طوبى للذي طهَّر نفسه من كل فساد خاطئ، لأنه بشجاعة يستطيع أن يستقبل في بيته ملك المجد، ربنا يسوع المسيح.

طوبى للذي يقترب بوقار وخوف ورعدة من أسرار المخلِّص الكلية النقاوة، عالماً أنه ينال في جسده حياة لا تفنى.

طوبى للذي يتأمّل الموتَ كل ساعة والذي أبطل في ذاته الأهواء المخزية التي تعشّش في قلوب المهملين، لأن إنساناً كهذا سيتعزَّى وقتَ رقاده.

طوبى للذي يتذكّر على الدوام عذابات جهنم ويسارع إلى التوبة أمام الرب بدموع وتنهدات محبواً بالإخلاص، لأنه سيُعتق من كل حزن.

طوبى للذي يضع نفسَه دائماً طوعاً، لأنه سيُكلَّل من قبل الأحد الذي وضع نفسَه طوعاً من أجلنا.

طوبى للذي يبقى عند قدمي الرب (في الصلاة) بكل ورع مثل مريم، والذي يسارع إلى استقبال الرب والمخلّص (بالأعمال الصالحة) مثل مرثا.

طوبى للذي يحمل في نفسه دائماً دفء الروح القدس وهو ملتهب بخوف الله، والذي أحرق أشواك الأفكار الشريرة.

طوبى للذي يحب الوداعة بوعيٍ روحي، ولا يسمح لنفسه بالانخداع بالثعبان الشرير، بل يضع كل آماله في الرب الصالح والرؤوف.

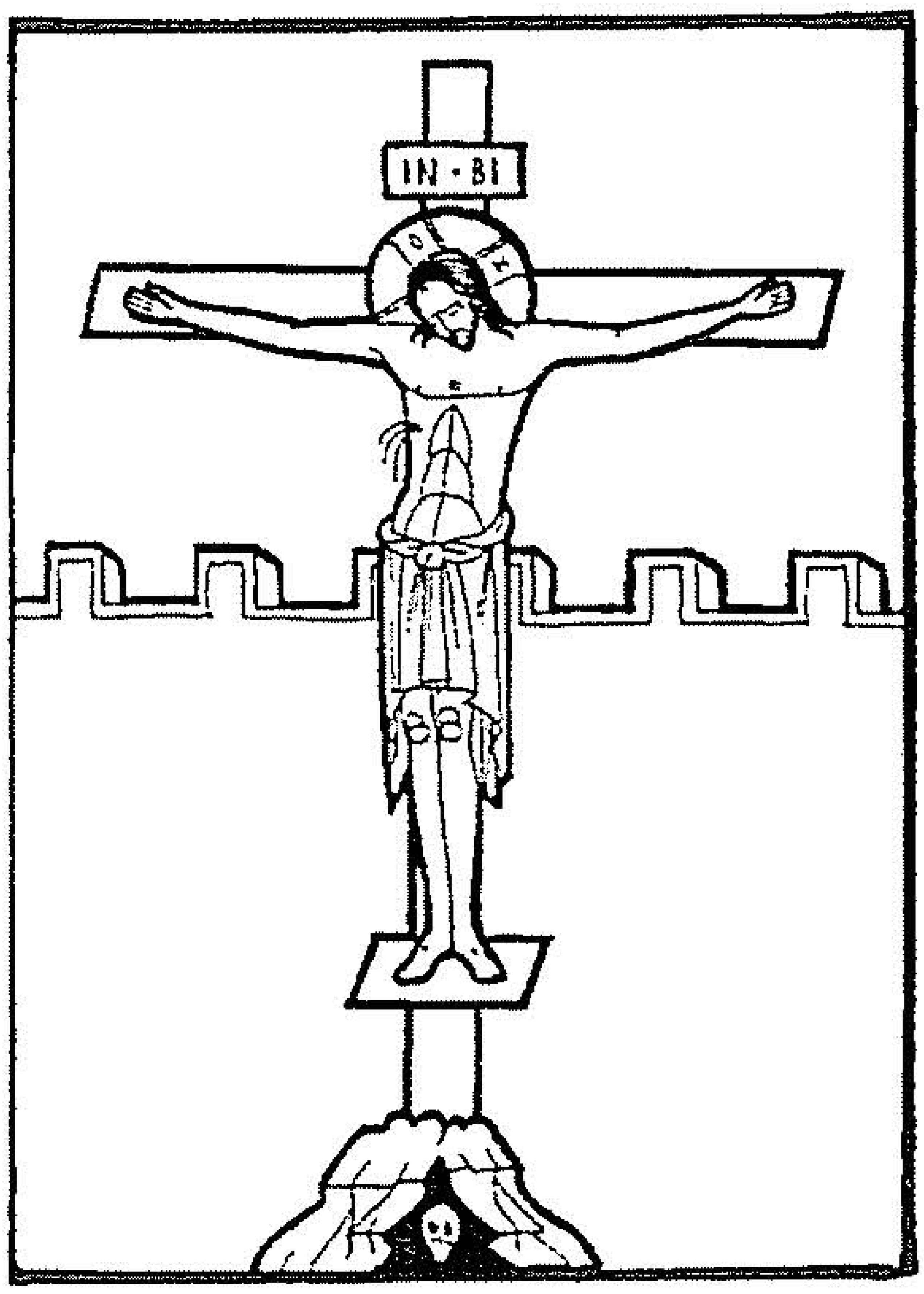

-٣٧-

اعترافٌ بالثالوث القدوس

شخصٌ واحد هو الآب، وشخص واحد هو الابن، وشخص واحد هو الروح القدس: ألوهية واحدة، قوة واحدة، ملكوت واحد في ثلاثة أشخاص أو أقانيم.

فلنمجِّد إذاً الوحدة المقدسة في الثالوث والثالوث القدوس في الوحدة.. هذا هو اعتراف كنيسة الله المسكونية المقدسة.

في الثالوث القدوس تُعمِّد الكنيسة لحياة أبدية؛ الكنيسة تقدِّسه بكرامة واحدة، تعترف به بدون انقسام وبصورة أبدية، تنحني له بدون خطية، تمجدّه بدون انقطاع.

بهذه الوحدة الثلاثية الأقانيم: الآب والابن والروح القدس، يليق المجد والعرفان والكرامة والقوة والعظمة إلى الدهور.

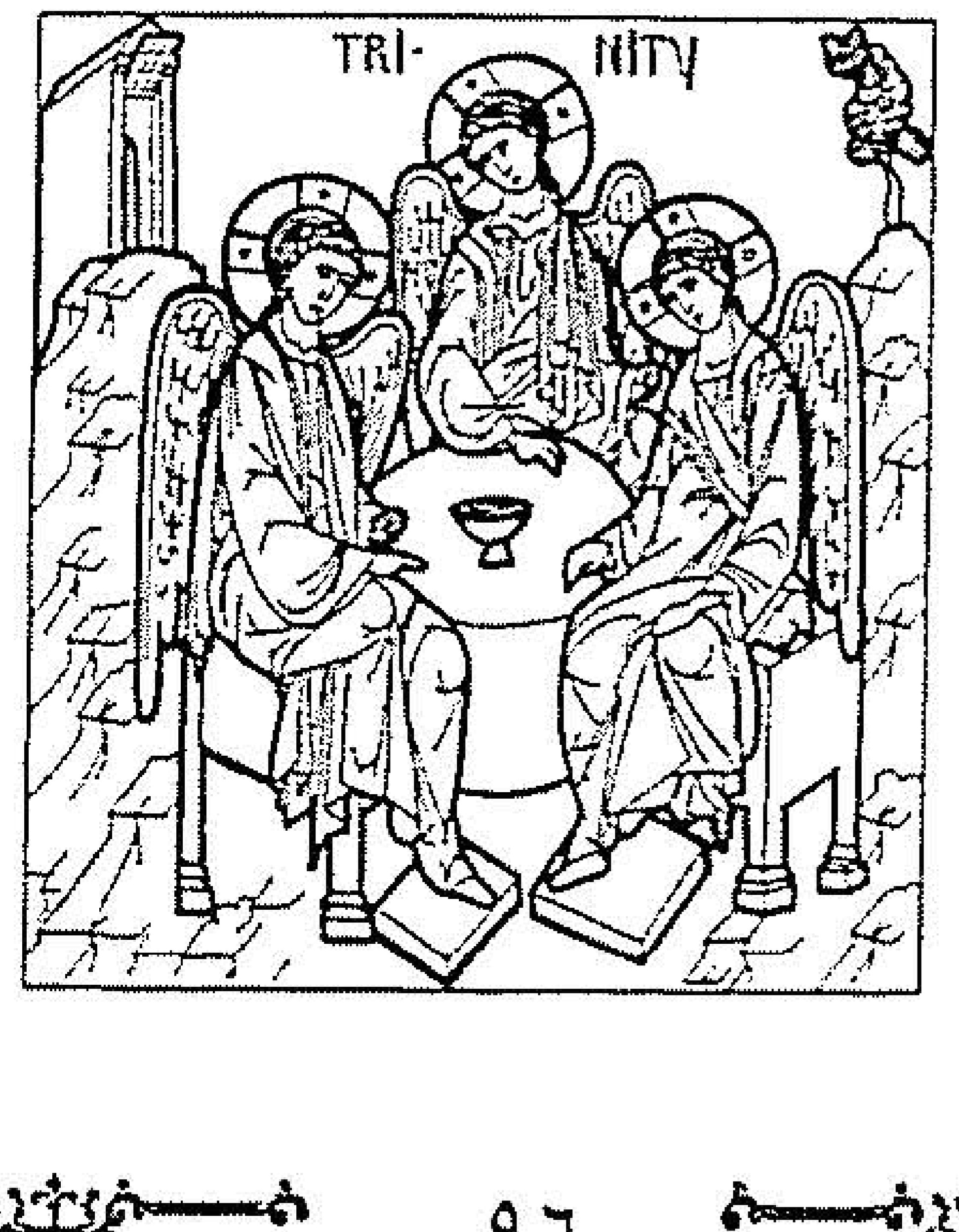

-٣٨-

تذكَّرْ المجيء الثاني وكنْ يقظاً

ارفعْ عينيك إلى السماء عندما تنير، بروعةٍ، الأرضَ بنجومها مثل مرآة صافية، وقلْ بخوفٍ: إن كانت النجوم تسطع بمجدٍ كهذا، فكم بالأكثر جداً سيسطع الأبرار والقديسون الذين عملوا مشيئة الله القدوسة بنور مجد خالص لا يوصف عندما يأتي الرب.

وإذا تذكَّرتَ ذلك المجيء الرهيب، فارتعدْ بالجسد والنفس، وقلْ لنفسك بتوجُّع قلبٍ: أي نوع من الأشخاص سأظهر به أنا الخاطئ في تلك الساعة المرعبة؟ كيف سأقف أمام عرش القاضي الرهيب؟ كيف يمكنني أنا الفاسق أن احتلّ مكاناً بين هؤلاء الكاملين؟ أم كيف يمكنني، أنا الجدْي، أن اقف بين الخراف عن يمين المسيح؟ أم كيف يمكنني، أنا العقيم، أن أُحصَى بين القديسين الذين أظهروا ثمار الحقيقة؟

الشهداء سيُظهرون عذاباتهم، والنساك أعمالَهم الصالحة؛ لكن ماذا أملكُ أنا لأُظهِر سوى بلادتي وتوانيّ المستمر؟

أيتها النفس الخاطئة، النفس المخزاة، أيتها النفس التي كنت تكرهين دائماً طريق الحياة المرضية لله! كم من الزمان ستتمَتعين فيه بانجرافك البائس وراء الأفكار الشريرة؟ ماذا تتوقَّعين من بلادتك؟

أتظنين أن الديّان سيتأخّر في المجيء؟ لن يتلكّأ؛ بالحري، سيكون مجيئه من السموات مثل برق مخيف.

حاولي الاستعداد لتلك الساعة الرهيبة، لكي لا تبكين آنئذ طوال الدهور.

-٣٩-

عاقبني هنا وأصلِحني بالنعمة كي لا أُخزى آنئذ

أيها الرب الرؤوف القلب، اصفح عن عبدك، كي لا أوجَد في خوف وخزي كبير لدى دينونتك، كي لا أكون عاراً للملائكة والبشر.

عاقبني هنا يا مخلّصي، كأب رؤوف القلب يحب أولاده، واغفر لي هناك، لكونك الله الكلي الرحمة والبريء من الخطية وحدك.

لأنك إن كنتَ لا تعطي فهماً لتعيس ولا تنير قلبه حتى يقدّم كل يوم توبة عن خطاياه لا عيب فيها: فماذا يستطيع عمله هناك إن لم تكن لديه وسيلة ليبرِّر بها نفسه؟

قبل وجودي على الأرض لقد سرَّك يا سيد بحسب رأفتك العظيمة أن تشكّلني في رحِم أمّي الخاطئة. عندما وُلدتُ، جعلتني بحسب رحمتك مستحقاً لأن أصير إناءَ نعمة. لكن، بعد أن نلتُ هذه العطية، أنا الضعيف والخاطئ، كنتُ في كسلي أنفر من تقديم عوض عنها.

هكذا إذ أنطرح أمام لطفك، أتضرَّع إليك أيها الإبن المولود الوحيد مخلِّصنا: أصْحني وأنهضني وأشرق نعمتك عليّ مرة أخرى، لكي تنير َذهني المكفهر،ّ كما يليق بنعمتك. لتبقَ معي دائماً، ولتجعلني بتوجيهها الخفيّ مستحقاً للملكوت السماوي. فكما كانت نعمتك بالنسبة إليّ أنا غير المستحق في كل الأوقات، استنارةً، وحماية، ودرعاً، وملجأ، وفرحاً: هكذا فلأجدْ إذاً يا مخلّصي ملجأ من الدينونة الرهيبة تحت حمايتها؛ وبحنوّها وأنا مخلَّص برحمتك لأقف أنا عن يمينك في ملكوتك، مسبِّحاً وممجِّداً رأفتك الطويلة الأناة، يا خالقي القدوس؛ لأنك لا تغفل عن دموع عبدك البطّال الخاطئ.

-٤٠-

أنهضني، وأعطني طاقة ودموعاً

أمددْ يا ربِ يدك إليَّ أنا الهاجع في الرماد وساعدني. لأني أريد أن أنهض لكني لا أستطيع. إن عبء الخطيئة قد سحقني؛ عادات شريرة سمَّرتني إلى الأرض، وأنا مثل مشلول بالكلية. أتعهَّدُ أن أغيِّر طرقي وأنا أصوم، لكن كل شيء يبقى على حاله. إني غيّور على تمجيدك بشفتيَّ، لكن ليس لي غيرة لأسرَّك بالأفعال.

كيف أجرؤ أن أسأل مغفرة خطاياي السابقة عندما لا أكون قد قمتُ بأية محاولة لهجر حبي السابق للخطية؟ أم كيف سأطرح الإنسان القديم عندما لا أكون قد قطّعت اشتهائي الإغراءات الخاطئة؟

أنهضْني يا رب أنا المشلول؛ أيقظني أنا النائم، أقمني أنا المُمَات بالخطية! خلِّص يا رب نفسي البائسة من الموت، يا مَن له سلطان على الحياة والموت!

أفْنِ كلَ خطيةٍ فيَّ قبل أن تأتي النهاية؛ امنحني يا محبَّ البشر أن أذرف دموعاً قلبية لغسل لطخات نفسي طوال

حياتي القصيرة، لكي أُخلَّص عندئذ تحت سقف يدك الكلية القدرة، عندما ترتعد كل نفس أمام مجدك الرهيب.

أصغِ إليّ يا سيد واقبلْ تضرّع عبدك الخاطئ غير المستحق. خلِّصني مجاناً بحسب نعمتك، لأنك إلهٌ رؤوف القلب ومحبٌّ للإنسان، وإليك نرسل المجد والشكر والسجود، أيها الآب والابن والروح القدس.

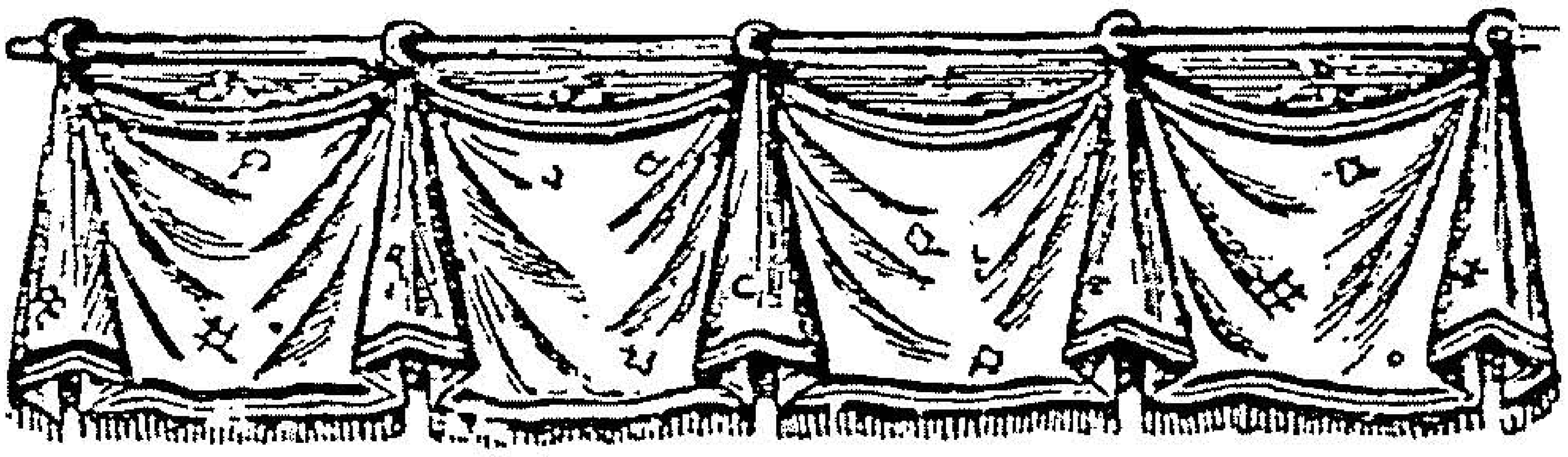

-٤١-

أنا في الداخل على خلاف ما أظهر؛ اشفني

الويل لي، لأية دينونة سأخضع، وأيَّ عار أنا مستحق! ذاتي الداخلية على خلاف مظهري الخارجي: فأنا أتكلم عن كيفية تحرير المرء لذاته من الأهواء، لكني أنا نفسي ليلاً ونهاراً أفكّر في الأهواء المخزية. إني أقود نقاشات حول الطهارة، لكني أنا نفسي أنغمس في سلوك مخزٍ.

وحسرتاه! أية محاكمات تنتظرني؟ في الحقيقة أنا أحمل صورة البرّ، لكني أفتقد المقدرة عليه. أيَّ وجه سأحمل أنا المذنب ببذاءة كهذه عندما أقترب من الرب الإله الذي يعرف أسرار قلبي؟ حين أقف في الصلاة أخاف أن تنزل نارٌ من السماء وتحرقنيْ، كما حدث في البرية لمّا نزلت نارٌ من لدن الرب والتهمت الناس الذين قدَّموا بخوراً أجنبياً.

ماذا يمكنني أن أتوقّع، أنا المثقَل بحمل ثقيل جداً من الخطايا؟ قلبي ملتهِم بالنار، وذهني مكفهرٌ، والأفكار البارّة قد أخفقت فيَّ. مثل كلب أعود دائماً إلى قيئي.

ليست لديّ جرأة أمام مَن سيحاكم قلبي وأعمالي الداخلية. ليست لديّ أفكارٌ طاهرة، ولا دموع خلال الصلاة. وإن كنتُ أتنهّد وأسجد على وجهي المملوء من

العار وألطُم صدري، إلا أنه يوجد مسكن للأهواء، ومحل حلوٌ للأفكار الشريرة.

أنت تعرف يا رب أهوائي الخفيَّة في الظلام؛ قروح نفسي معلومة لديك. اشفني، يا رب، فأُشفى. إن كنتَ لن تبني بيت نفسي فباطلاً أتعب أنا محاولاً بناءه بنفسي.

صحيح أني أحاول أحياناً أن أهيّئَ نفسي للمعركة مع الأهواء حين تَغير عليَّ، لكن حيَلَ الثُعبان الشريرة تشلّ جهود نفسي بالمتعة الحسيَّة وأنا أذعَن لها. وإن كان لا يوجد مَن يكبّل يديَّ بصورة منظورة، إلا أن الأهواء غير المنظورة تجرّني بعيداً كأسير.

يا رب، أنرْ عينَي قلبي، لكي أميّز جيداً خداع الأهواء وخبثها. لتسترْني نعمتك لكي أستطيع أن أقف بثَبات وأقاوم وقد تمنطقتُ بالشجاعة.

أنت يا رب منحتَ شعبك ذات مرة معبراً أميناً عبر بحر غير قابل لأن يُسلَك فيه. لقد نفحتَ شعبك العطشان ماءً من صخرة صمّاء. أنت وحدك وبحسب رحمتك قد خلّصت الذي سقط بين أيدي اللصوص. ارحمني أنا ايضاً، لأني سقطتُ أنا أيضاً بين أيدي اللصوص وأنا مقيَّدٌ، مثل أسير، بأفكار شريرة.

ما من أحد سواك أنتَ يا رب قويٌّ بصورة كافية ليشفي مزاج نفسي الأهوائي، يا مَن تعرف أعماق نفسي. تعطّف وخلّصني بلطفك!

-٤٢-

لقد سقطتُ: أنهضني وامنحني أن أجتهد ولو لفترة يسيرة، كي لا أُخزى في الدينونة

نقِّني بنعمتك أيها الآب الرؤوف القلب. امسح لطخاتي بزوفاك التي تغسل كل شيء واشفِ قروحي لأقدِّم الشكر لنعمتك!

لقد سقطتُ: أنهضني وقوّني يا رب؛ لأنك تقيم جميع الذين سقطوا. أمدد يدك إليَّ وأحيني مرة ثانية برأفتك!

لقد خدعني الغريم؛ لقد جرَّدني من لباسي وسرقه. بسببه أبقى أنا غير مثمر ولابد لي من أن أمضي إلى الدينونة وأنا عارٍ تماماً. فلتكن رحمتك لي رداءً في يوم الدينونة!

أيّ خوف شديد سيكون في يوم الدينونة عندما يؤدّي كل إنسان عرضاً عن أعماله وأفكاره وحتى عن كل وقت أومأ فيه بعينيه. بررني يا ديّاني في ذلك اليوم، لأني أودّ أن أتوب ولو كنتُ مذنباً.

ستتعذّب قلوبنا وتتألّم بشدة حين يُستعرَض كل شيء قد أثار شهوتنا، حين يقف كلّ إنسان عارياً ويُطالَب بالإجابة عن نفسه.

في ذلك اليوم، الويل للإنسان الذي ارتكب مثلي تعديات كثيرة، الذي خطئ وأخفى خطاياه لكي ينجو من العار في هذا العالم! ستومئ الأصابع إليه في يوم الدينونة.

لقد كثرت تعدّياتي، أيامي انقضت وتلاشت؛ النهاية تقترب لكن لا توجد توبة فيّ. الويل لي يوم الدينونة إن لم تجد الرأفة بي مكاناً لها.

طوبى للذي تعب قليلاً في هذا العالم، لأنه سيرث الملكوت في العالم الآتي. مقابل أتعاب قليلة سيجني ميراثاً عظيماً.

في دينونتك يا ربَّنا لن تقوم محاباة. كل إنسان سينال ما يستحق. فالذي فعل أفعالاً صالحة سينال الملكوت، والذي فعل أفعالاً شريرة سينال العذاب.

افتح لي أبواب رأفتك يا رجاء التائبين، وامددْ إليَّ يدك الشافية لتضمّد جروحي وتشفي قروحي.

مشيئتي ترفض اتّباع مشيئتك. أخضعني أنتَ نفسك لمشيئتك لأنال بالتالي خلاصاً وأمجّد مشيئتك، لأنها رأفة بالتائبين.

استقبل صلاتي برحمة لتعقد سلاماً بيني وبينك؛ وبحسب رأفتك امنحني حياةً في مجيئك. آنئذ سيُخزى الشرير عندما يرى حقّك قد صفح عني.

-٤٣-

دروس الحياة

عندما ترى متَع الحياة انتبه لئلا تشتِّتك، لأنها تخفي أشراك الموت. كذلك لا يُلقي الصيّاد بصنّارته بدون غاية.

كطعْم صنّارة يستعمل العدو خداع الشهوانية ليثير الشهوة، لكي يصطاد بالتالي نفوس الناس ويُخضعها لنفسه.

إن النفس التي تمّ اصطيادها لتخدم إرادة العدو ستخدم آنئذ كشرْكٍ لنفوس أخرى، لأنها تخفي وجع الخطية بمتعتها الظاهريَة.

حين تمارس الفضائل لا تغتمَّ بالأتعاب الممارَسة، إذ لا يمكن أن توجد فضيلة بدون تعب.

عندما تقاسي التعب، ارفع عينَ نفسك فلا ترتدَّ عن أي عمل، وأنت تتأمّل ذلك الفرح العلوي.

أتعاب الأبرار تحصد ثمر الحياة، لكن أتعاب الخطاة مليئة بالهلاك. انضمَّ إلى الأتعاب السابقة وانسحب من الأخيرة. تجنَّب الأتعاب العقيمة التي لا تُثمر ثمراً صالحاً.

تألّم من أجل الله آلامَ الحياة الحاضرة فلا يكون رجاؤك في القديسين باطلاً.

إن الذين يتعبون من أجل أمور باطلة في الحياة يجدُّون ليجعلوا الذين يتعبون من أجل الله متعثّرين، حتى لا يواجهوا الأمثلة التي تدين ضميرهم؛ لكنهم بفعلهم هذا لا يفعلون سوى زخرفة أكاليل المجاهدين ذوي الضمير الحي.

التزم موقفاً متواضعاً حتى لا تخسر ثمار الأعمال الصالحة. فإن طرحتها فستُحصى مع الذين يتعبون باطلاً.

هل تريد أن تصير حارساً لنفسك؟ انسحب من كل مكان نحو ميناء أمين، حتى لا تسرق الأفكارُ الشهوانية سفينَتك وتحمّلها.

إن أردتَ ميناءك آمناً، فسوِّره بمتاريس لا يمكن أن تهزّها عاصفة الأهواء؛ وإلا فسَيصير ميناؤك مكان غرقك.

إن وجدتْ الكلماتُ الشهوانية مكاناً في نفسك، فستجرّها كما بصنارة نحو الشرّ، نحو هاوية الخراب.

تجنّب الاجتماعات المُفسِدة للنفس فستنعم نفسُك بالسلام على الدوام.

-٤٤-

ترنيمة تسبيحٍ للفادي

إنه واجب أن نشكر الصالح الذي خلَّص جنسنا من العبودية للشرير ومن الموت، والذي عقد سلاماً بيننا وبين حقِّك السامي الذي نهينه بخداعنا.

مبارك رؤوف القلب الذي طلبنا رغم أننا لم نطلبه، الذي ابتهج بخلاصنا وأعطانا صورة عن كيفية ضلالنا وعودتنا، في مَثَل الخروف الضائع.

صرخ الوريث والابن وأعاد طبيعتنا التي ضلَّت؛ لقد مات ونهض ثانية وسرّ محافلَ الأرواح بإعادتنا وبدفعنا إلى التوبة.

عظيمة بصورة لا توصف هي المحبة التي أظهرها محب البشرية؛ فمن نسلنا اختار شفيعاً وبه عقد سلاماً بين العالم وعظمته.

لقد صنع الله عجيبة جديدة في الإنسان، عظيمة لنا ولكل الخليقة. لأنه جعل جسدنا هيكلاً وملأه بما يحترمه الكل.

هلمّي أيتها الكائنات الأرضية والسماوية، تعجّبي واذهلي بهذا العطاء العظيم للكرامة، لأن نسلنا قد رُفع إلى

علوِّ الألوهية الذي لا يُقاس.

لترتّل السماء والأرضُ وجميع ما فيهما تسابيح معنا للواحد الذي عظَّم نسلنا، لأنه جدَّد صورته فينا، ومسح خطايانا، وأعطانا اسمه، وأخضع كل الأشياء لنا.

إن الذي رفعنا فوق كل الأشياء يستحق كل نوع من التسبيح من الذين يكرّمونه. لنرتّلْ كلُّنا بصوت واحد تسبيحاً له وللآب الذي أرسله وللروح القدس.

قدوس، قدوس، قدوس! مبارك الذي بمشيئته الصالحة اختار أن يضع نفسَه ويخطب الكنيسة المقدسة لنفسه!

إن نورك، يا يسوع ربنا، قد سطع فوق الخليقة وبدَّد ظلام الضلال. فليشعّ نورك الآن في نفوسنا أيضاً، يا يسوع ملكنا أنت النور الحقيقي.

خلّصنا من كل الأفكار الهدّامة التي تُزعج نفوسنا. عندئذ نسبّحك بذهن نقي، يا ابن الآب غير المنظور، لأنك النور الحقيقي.

-٤٥-

فقدان الاهتمام بالبركة الأبدية والعذاب اللانهائي هو أمرٌ لا يمكن تصوّره. الكل مدعوون للانسحاق

الويل لي! أية تعزيات ومسرّات مهيَّأة لنا؛ إنّما لا يوجد من أحد قد تعب من أجل الخلاص، ولا من أحد يشتهي أموراً كهذه. بدل ذلك نحن نفضّل ما هو جاهزٌ، ومؤقت وزائل. حتى إننا لا نُدخل (ذكر) هذه المسرّات الأبدية في الذهن أبداً. أيّ عمى! أيّ خداع شيطاني!

الويل لي! أية عذابات معدَّة لعقاب الخطاة مثلي الذين يعيشون بإهمال. ما من أحد بيننا يخاف ويرتعد. بكلمات جوفاء نكرِّر ما تعلّمناه، نُسَرُّ بأهواء الجسد، لأننا مقيَّدون بها كما بسلاسل حديدية؛ ما من أحد يحاربها؛ بل بالحري نحن المقيَّدون نبتهج؟

يا لخِدَع الثعبان النجس المُهلكة تماماً! كيف سوَّد أذهان كل الناسَ بحيث انحرفت أفكارَنا ونحن نحبّ الهلاك أكثر من الصالحات الآتية.

هلمّوا لنوجِّه قلوبنا نحو الانسحاق، فنبكي أمام الرب نهاراً وليلاً. تعالوا، لنتذكَّر تلك الساعة وحتميتها، فنذرف دموعاً بانسحاق. تعالوا، لنتذكّر تلك المسرّات الفائقة التعبير والوصف، ولنجعلْ قلوبنا منسحقة. تعالوا، لنتذكّر العرش الرهيب المخيف والخزي الذي ينتظرنا عندما نقف أمامه: ونحن سنندب على أنفسنا.

هلمّوا، لنتذكّر كيف سيشعّ الأبرار مثل الشمس وكيف سيكون الخطاة مثل السُخام على قدور محترقة؛ لنكن غيّورين في الأعمال الصالحة بعد أن نجعل قلوبنا منسحقة.

هلمّوا، لنثبِّت أنفسنا في مخافة الله، لنُصيِّر مستحقين للبركة الأبدية.

هلمّوا، لننطرحْ أمام الله بانسحاق وبساطة قلب، لأنه صالح ورؤوف القلب ويخلّص الذين يتوبون.

لنتوسّلْ إليه ليُدخلنا إلى ملكوته، ملكوت البركة التي لا توصف التي لا نهاية لها.

-٤٦-

إلى والدة الإله: ليست لديّ الجرأة الكافية صلّي من أجلي، يا مَن هي سريعة في مساعدتي

أيتها السيدة العذراء، أمُّ الله، الكُلِّية البركة والنعمة من الله، أميلي أذنك واسمعي كلماتي، التي تنطق بها شفتايَ المدنَّستان الملوَّثتان. لا تنبذيني، أنا البائس؛ لا تدعيني، أنا خادمك غير المستحق، أن أهلك بالكلية، بل استعملي صلواتك الوالدية لشفاء نفسي التعيسة، التي تحطّمت بأهوائي الشريرة بدون رحمة. لقد حطّمها العدو الشرير بخطايا الشهوة ومرَّغها بالوحلَ. لهذا لا أجرؤ أنا المملوء من كل نوع من الخزي؛ ليست لدي الشجاعة لأسأل محبَّ البشرية، إلهي، الصفحَ عن جملة خطاياي، وشفاءَ قروحي العضالة. لأني دنَّست هيكل جسدي، بشهواتي الرديئة، أثقلته بجملة نجاسات؛ لقد عطَّلت حواسي بأعمال شائنة. هكذا لا أجرؤ على الوصول إلى السماء بيديَّ، وهما ملوَّثتان بمساعٍ خبيثة. لهذا، أنا البائس والخليع، أُخضع ذاتي لرأفتكِ الّتي لا توصف، أيتها السيدة الطاهرة. فليس

لي ملجأ آخر إلا أنت، يا مَن هي وحدها تعزيتي ومحاميتي الجاهزة. إني أضع رجائي فيك: لا تهجريني. إن ابنك المولود الوحيد يقبل تضرّعاتك، إنه يبتهج بشفاعتك وهو جاهز ليستجيب لصلواتك من أجلنا. لا تنبذيني أنا البائس جداً، فلا تبترْ بذاءةُ أعمالي رحمتَك التي لا حدود لها، يا أمَّ الله. اقبلي هذا التضرّع غير الكفؤ وبصلواتك الوالدية اجعليه مقبولاً لدى ابنك وإلهك، ليمنحني الملكوت السماوي وأنا أسبّح وأبارك الآب والابن والروح القدس.

-٤٧-

لا أجرؤ على فعل هذا بنفسي: صلّوا من أجلي أيها القديسون

مَن لا يتفجّع عليَّ، أنا الذي أهملت الملكوت السماوي من أجل مسرّات هزيلة، جاهلاً النار الأبدية؟ وإذ أحطت نفسي بالأهواء بدّدتُ سلامة نفسي وصرتُ مثل الوحوش غير العاقلة.

في وقت ما وجدتُ نفسي غنياً بالعطايا، أما الآن فقد بلغت محبةَ فقر الأهواء. لقد صرتُ غريباً من الفضائل ورحلت إلى أرض فساد بعيدة. إني نصف مائت؛ لديّ مجرد أثر ضئيل من الحياةً فيّ.

لأني على هذا النحو باختياري الطوعي، فإني لا أستطيع حتى رفع عينيَّ نحو الرب الرؤوم.

نوحوا عليّ أيها المباركُون والأبرار، لأني مُمسَك بقبضة الأهواء والخطية.

نوحوا عليّ أيها النسَّاك، أنا الشره والشهواني.

نوحوا عليّ أيها الرحماء والمتعطّفون، أنا المقسّى الفؤاد وسبب الحزن الكثير.

نوحوا عليّ يا مسرّي الله، أنا الساعي لإرضاء الناس.

نوحوا عليّ يا مَن بلغتم الوداعةَ، أنا النزق والغضوب.

نوحوا عليّ أيها المتواضعون، أنا المغرور والمتعجرف.

نوحوا عليّ يا مَن بلغتم عدمَ قنية الرسل[١٨]، أنا المتعلّق بالأشياء المادية والمثقَل بمحبتي للممتلكات.

نوحوا عليّ يا مَن أحببتم النواح وكرهتم الضحك، أنا الذي أحببت الضحك وكرهتُ النواح.

نوحوا عليّ يا مَن تتأملون الدينونة التي ستأتي بعد الموت، أنا الذي أؤكد أني أتذكّر الدينونة لكني أتصرف بخلاف مقتضياتها.

صلّوا يا قديسي الله من أجل نفسي التي تنتفض بكل أنواع الأهواء. ساعدوني يا قديسي الله بمقدار ما تستطيعون.

لأني أعلم أنه إن تضرَّعتم إلى الله، محبّ البشر، فستُمنحون كل شيء من يمّ رأفته. وعلى غرار إلهنا المحب للإنسان، هكذا أنتم أيضاً حينما أتضرَّع إليكم أنا الخاطئ، لا تنبذوا تضرّعي؛ إذ لا جرأة لي على الصلاة إليه بنفسي بسبب جملة خطاياي.

---

(١٨) كان الرسل مثل ربهم يسوع: متجرِّدين من التعلّق بالمال والمقتنيات. وهذا ما صار قانوناً في الرهبنات. الراهب الحقيقي ملاكٌ في جسد زائل.

دوركم أيها القديسون هو أن تتشفعوا في الخطاة؛ دور الله هو أن يرحم الذين ييأسون.

يا قديسي الله، صلّوا إلى الملك من أجل المسجون. صلّوا إلى الراعي من أجل القطيع. صلّوا إلى الحياة من أجل الجثة، لكي يَعير يده ليساعدني ويقوّي نفسي الوضيعة في وهنها.

-٤٨-

كل شيء سيظهر في ذلك الوقت. سارع إلى تصحيح ذاتك طالما هناك وقت متاح.

أجثو أمام حنوّ رأفتك يا سيد الكل! اقبل صلاة خاطئ، حَلِّ نفسي التي تضعف في مرارة الخطيئة. اعطني شراباً، أنا العطش، من ينبوع الحياة وأرشدني في طريقها.

كسيد لي أنقذ عبدك من الأسر، لأتحرَّر من العبودية للأهواء المخّزية التي شبكت قلبي.

ليدركْني حنوّك قبل أن أنجرّ إلى الجحيم سوية مع الذين يفعلون السيئات.

في ذلك الوقت سيتّضح كل ما أفعله الآن في الظلام. الويل لي؛ أي خزي سيشملني عندما يراني مديناً الذين يظنون الآن أني بلا لوِم، عندما يرون عندئذ كيف أهملتُ، أنا التعيس، الأعمالَ الروحية وتعبت من أجل الأهواء.

الويل لي! يا نفسي، لماذا شمس ذهنك مكفهرّة بضباب الأهواء؟ ولماذا لا يختفي هذا الضباب عندما تشعّ أشعة النور؟ لماذا تسمحين للأهواء بجرِّكِ إلى الأرض، ولماذا فضّلت القيود على الحرية؟

لقد جعلت الرداء الذي حاكه الله لك غير صالح للاستعمال وغيَر أهل للعرس الملكي. لقدَ سلَّمتِ ذاتك طوعاً إلى الخطية وعبَّدت ذاتك لعدو الحياة.

ماذا ستقولين للقاضي في يوم الخوف والرعدة ذلك؟ استردِّي حواسَّك طالما الوقت متيسِّر، وما تزالين أمَة أفكارك، وما يزال ذهنك يعمل، طالما توجد حركةٌ قائمة بعد في جسدك، وما يزال الأمر ممكن للنعمة أن تلمس قلبك، وما يزال باستطاعتك ذرف الدموع المطهِّرة: قفي بجرأَة ضد الأهواء وبمساعدة الله قارعي جليّات[١٩] ببسالة.

أسرعي، لا تدعي لصّاً يسبقك، لا تدعي زانية تصل إلى المدخل قبلك، لا تدعي أحداً من المغتصبين الذين يأخذون ملكوت الله بالغصب يسدّ البابَ دونك.

أسرعي، فعندما تنتهي المسابقة لا يعود من الممكن الدخول في المنافسات. لدى إغلاق السوق لا يمكنك أن تفتشي عن البضائع؛ وحينما تتم المقايضة لا يمكنك أن تشتركي فيها.

طالما الوقت متيسِّر أسرعي إلى الاشتراك في المعركة، لكي تتغلّبي على أعدائك وتُظهري ذاتكِ أهلاً لتنالي إكليلاً.

(١٩) خصم داود النبي

-٤٩-

غبطة الغفران

طوبى للذي حبوته بالفهم بحسب محبتك يا رب، لأنك لا تتنحَّ عن الذين يحبونك. لا تتنحَّ عني أيضاً يا رب حتى لا يُهلكني الشرير.

بحسب صلاحك ترأف عليّ أنا الواهن، وامنحني مغفرة خطاياي الكثيرة؛ لكي أمجّد صلاحك أنا أيضاً وجميعُ الذين أرضوك.

ترأف يا رب بحسب صلاحك؛ ارحمنا جميعاً نحن الذين رفضنا حقّك لأننا فشلنا في حفظ كلمتك؛ لأننا لو حفظناها لكنّا قد نلنا الخلاص.

أنا أيضاً قد رُفضتُ وجميعُ أمثال هؤلاء الناس، بل حتى أكثر منهم. ومع ذلك اجعلني أهلاً، بحسب نعمتك، لأنال غفران الخطايا وأرجو الخلاص بقوة هذا الغفران.

بالمحبة تأمّلتُ يومياً كلمتك. اجعلني أهلاً لأهتف سوية مع الأبرار هذا التسبيح من البركة: السبح للذي رحمني! المجد للذي غفر لي!

فالأعالي تباركك، والأعماق تعظّمك، كل الأشياء تجلّك، لأن كل شيء قد خُلقَ بك. كل شيء يفيض تسبيحاً لك، أيها الرب الرؤوف القلب.

-٥٠-

الرجاء بالغفران

ارحمني يا الله بحسب عظيم رحمتك، وبحسب كثرة رأفاتك امح مآثمي. لأنك إن كنت سترحمني وتحرّرني من وجع الأهواء المزري، فهذا يتمّ إن رحمتني، فآنذاك سأطيع نعمتك برغبة.

إن كنتَ ستفعل هذا بحسب عظمة صلاحك، فحينئذ ستحرِّرُني. إن كنتَ ستسكب عليّ صلاحك، فسوف أُخلُص.

أنا واثق بأن هذا ممكن لك. أعرف أنك قد غفرت وتغفر لكل الذين يتّجهون إليك من كل قوتهم.

أعترفُ أني قد تمَتّعتُ سلفاً بمنافع نعمتك على دفعات كثيرة؛ لكني في كل مرة كنتُ أرفضُ نعمتك وأخطأُ بصورة لم يخطأ بها أحدٌ إليك.

لكن أنت، يا مَن أقمت الموتى، أقمني أيضاً أنا المُمات بالخطية. أنت يا مَن شفيت الأعمى، أنرْ عينَي قلبي المكفهرّتين. أنت يا مَن خلّصت آدم من فم الثَعبان، انتشلني من حمأة آثامي؛ لأني أنا أيضاً أنتمي إلى خرافك، وإن كنتُ قد صرتُ طعاماً للأسُود باختياري الحر.

الخطايا صنعت مني كلبًا(*)، لكني سأصير ابنك بعد أن أُشفى بنعمتك. لقد طُرحتُ خارجاً مثل جثة، لكن إن شئتَ هكذا فسأُعاد إلى الحياَة.

أعرف أني خطئتُ عن وعي، لكن ادَّخرتُ قديسيك ليصلّوا من أجلي. أعرف أني تجاوزتُ كلَ حدٍّ بخطاياي، لكن يستحيل أن يعلو المرء على صلاحك.

أنت يا مَن فضّلَت العشّار، فضّلني أنا أيضاً، أنا الذي أُدركُ أني قد تجاوزتُ الحدَّ جداً في الأفعال الخسيسة. أنت يا رَب رحمتَ زكّا الذي كان غير مستحقٍ. هكذا ارحمني أنا غير المستحق أيضاً.

كان بولس حيناً ما ذئباً، وطارد خراف قطيعك؛ لكن بحسب نعمتك صار راعياً اهتمَّ بالخراف باجتهاد.

أعرفُ أنه خطئ عن جهل، وأنه مُنح مغفرةَ خطاياه ونعمةً كثيرة بسبب جهله. لكن أنت يا رب دنْ خطيئتي المرتكَبة عن معرفة، وارحمني يحسب نعمتك الوافرة جداً.

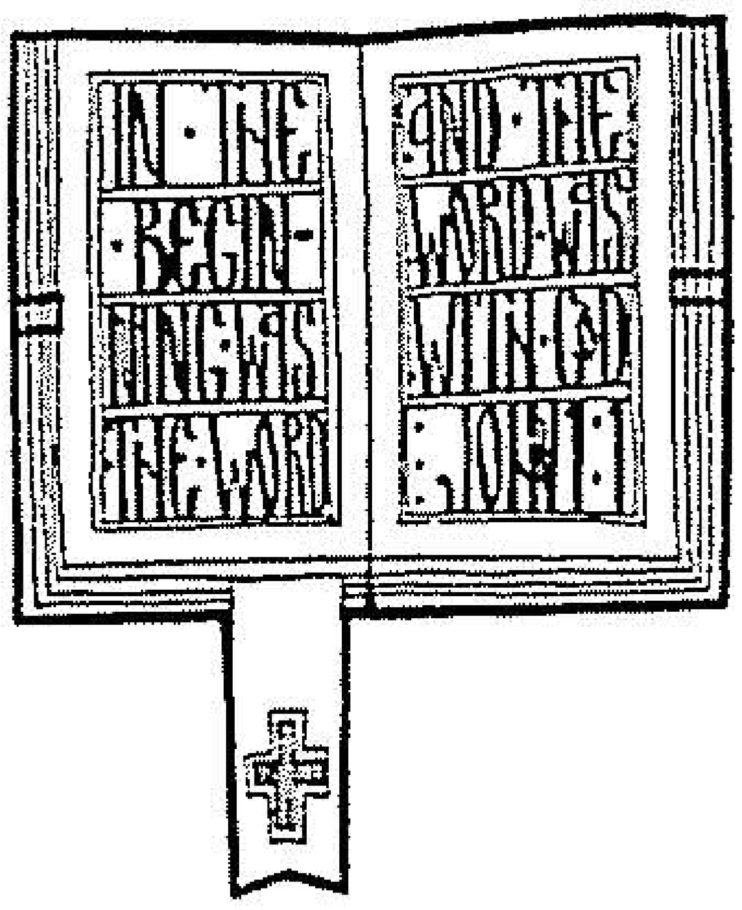

(*) فم الذهب وسواه على هذه الخطى من التواضع قهّار العجرفة المشرقية.

-٥١-

تطويبات

طوبى للذي أنار عينَي قلبه، ويرى الرب دائماً في ذاته كما في مرآة؛ مثل هذا سيُعتَق من الأهواء والأفكار الشريرة.

طوبى للذي يحبُّ الكلام الصالح والجميل ولكنه يكره الكلمات المخزية والمفسدة؛ لأنه لن يُسبى من قبَل الشرير.

طوبى للذي يرشد قريبه في مخافة الله[٢٠] ولا يغري نفسَه؛ لأنه دائماً حارسُ عصا الراعي العظيم الحديدية.

طوبى للذي يطيع قريبه بحسب مشيئة الله ويعاني الإهانة بامتنان؛ مثل هذا سيُكلَّلُ كمعترفٍ للرب.

طوبى للذي يحب التقشّف بحسب مشيئة الله والذي لا يخضع للدينونة كشهواني فاسد بحسب بطنه؛ مثل هذا سيتعظَّم في الرب.

طوبى للذي لا يُسكر نفسَه بالخمرة، بل هو مبتهجٌ دائماً في تذكّر الرب، الذي فيه يبتهج كل القديسين على الدوام.

(٢٠) ما أجمل هذا التركيز على مشيئة الله!

طوبى للذي يدبّر ممتلكاته بحسب مشيئة الله، والذي لا يضع نفسه عرضة للإدانة من المخلّص كبخيل يفتقر إلى الرأفة بقريبه.

طوبى للمتيقّظ في الصلاة والقراءة والأعمال الصالحة؛ سوف يستنير ولن يرقد حتى الموت.

طوبى للذي صار شبكة روحية رائعة واصطاد الكثير لمعلّمه الصالح؛ بمثابة عظيم سيُمدح في الرب.

طوبى للذي صار مثالاً رائعاً لقريبه والذي لم يجرح ضمير زملائه الخدَم بأعمال شائنة؛ إنه سيتبارك في الرب(*).

(*) عجبًا لهذه النفس الزكية وهذا الضمير المرهف وهذه المعاملة الرائعة للاخوة!

-٥٢-

شكوى ضد العدو. صلاة للتخلّص منه، ورأفة عند الدينونة لكي نُفتدى

أيها القاضي الذي قضاؤه عادلٌ والذي كل خفيّ معروفٌ لديه: لا تَدنِّي عند قضائك العادل، حين تنكشف كلُ الأسرار.

الزانيةُ بالدموع التي أحضرَتها إليك أتلفَت سجلَّ تعدِّياتها. ها أنذْا أيضاً أُحضر إليك عطيةً من الدموع. تقبلّها مني يا رب كما قبلتها منها.

لقد خدعني الشرير بملاطفاته وسبى عقلي بإغراءاته. أقصه عني أنا البائس يا ربّنا؛ اخطفني من يديه كي لا يمزّقني إرباً إرباً.

احكم عليّ يا رب وهدّئ نزاعي مع العدو الذي لا يرحم. لقد جعلني هدفاً لسهامه. بحسب رأفتك فلتخترقه تلك السهام بدلاً مني.

كن معيناً لي يا رب، لأني بائس ولا معينٌ آخر لديّ. لا تدع العدو يراني مهزوماً ويهزأ بي كما هزأ من أمّنا الأولى.

الويل لي إذا انكشفت كلُ أسراري وأُخضعت للتفحُّص آنئذ، عندما لن يؤخذ بأي تبريرٍ. إن روحي تَرتعد يا رب،

لأني أسمع أن النار ستلتهم العصاة وأنا عشبٌ وقشٌ. وإذا اعتبرتَ يا رب خطاياي فسوف أُفنى.

ليدركني، أنا البائس، صلاحك يا رب الذي رفعكَ مرّةً على الصليب لفداء جنسنا لكي أُنعَم بمغفرة خطاياي.

لقد فديتَ الكلَ يا يسوع بدمك؛ وبموتكَ ربطتَ المخاصم القوي. حرّرني من قيود الشرير؛ حطّم أصفاده ورُبطَه.

وبّخه توبيخاً يجعله ينسحب مني، أنا البائس، لكي لا تتحقّق إرادته فيَّ. اجعل مشيئتي موافقة لمشيئتك، يا رب، يا مَن تمسح خطاياي بحنوّك.

لا تتركني بين يدَي فاعل الشرّ، ولا تعطه سلطاناً عليّ، لأنك أعددتَ جسدك ودمك طعاماً من أجلي، وصليبك قد انطبع في جبيني.

قوّني يا رب لأني ضعيفٌ. امحُ تعدّياتي، لأني قد خطئتُ كثيراً. اجعل حواسيّ عفيفة، لكي تتبّع الطريق الملوكي بخضوعٍ وبدون ترنّحٍ.

فليضئ نورك في أفكاري، ولتستنرْ بأشعّتك، وليفرحْها شعاعك البهي، لأنك أنت الشمس التي تنير الكلّ.

طهّر لطخاتنا بزوفاك؛ اغسل قروحنا بدمك؛ قدّس أعمال أفكارنا الخفية بجسدك.

السبح لك يا مَن فديتَ الجنس البشري الذي هلك، ورفعته على منكبيك وحملته إلى بيت أبيك.

-٥٣-

نوحوا على ندرة القديسين

قلبي يتوجّع، نفسي تتلوّى، وأجزائي الداخلية تتمزّق! أين أجد الدموع، أين أجد الانسحاق والآهات فأتفجّع بحقٍ على حالتنا اليتيمة وعلى ندرة القداسة بيننا؟

إني أرى يا سيد أنك تأخذ قديسيك، مثل ذهب مصطفى، من العالم الباطل إلى استراحة الحياة.

مثل مزارع يرى ثماره قد نضجت جداً ويسارع بحكمة إلى تجميعها حتى لا تفسد ولو بأقل مقدار، هكذا تجمع أنت أيضاً يا مخلّص مختاريك الذين تعبوا بحقٍ.

ومع ذلك، نبقى نحن، الكسالى والضعاف الإرادة، مقسّين، وثمارنا لا تنضج أبداً؛ إذ ليس لدينا العزم لنتعب بدون توفير أنفسنا، لكي ننضج في الأعمال الصالحة ونُجْمع باستحقاق إلى مخزن الحياة.

قل: الويلُ لي، وحسرتاه يا نفس، وابك؛ لأنك تُركت يتيمةً، وأنت يافعةً، من قبل الآباء الذين لا عيب فيهم والنسّاك الأبرار. أين هم آباؤنا؟ أين هم القديسون؟

أين هم الساهرون؟ أين هم اليقظون؟ أين هم المتواضعون؟ أين هم الودعاء؟ أين هم الذينَ نذروا الصمت؟ أين هم المتقشِّفون؟ أين هم الذين بقلب منسحق وقفوا أمام الرب في صلاة كاملة، مثل ملائكة اللّه(٢١)؟ لقد انطلقوا من هنا لينضمّوا إلى إلهنا القدوس بمصابيحهم المتوهجة باتقاد.

الويل لنا! أية أزمنة هي هذه التي نعيش فيها؟ إلى أي بحرٍ من الشرّ قد أبحرْنا؟ لقد دخل آباؤنا إلى ميناء الحياة، حتىً لا يروا الآلام والإغراءات التي تنتابنا بسبب خطايانا. إنهم مكلَّلون أما نحن فهاجعون؛ نحن ننام وننغمس في ملذات أنانية.

أشفق علينا يا رب! اجعل أفكارنا التي تهيم باطلاً صاحية. امنحنا انسحاقاً ودموعاً، لتلقي بعض النور على عمى قلوبنا، فنرى الطريق الذي فيه سلك آباؤنا عندما اتبعوك. امنحنا الرغبة والقوة لنسلك في هذا الطريق نفسه، حتى ننال نحن أيضاً معهم نصيب المخلَّصين، لمجد اسمك.

(٢١) نرى هذا التأسُّف لاحقاً لدى يوحنا السلّمي ومكسيموس المعترف واسحق السوري.

-٥٤-

الأيام تمضي؛ لا تؤجِّل التوبة

تحثُّني المحبة على مكالمة لله، لكن عدم استحقاقي يجبرني على الصمت. آلام روحية ملتوية تدفعني إلى التكلّم، لكن الخطايا تقهرني فتحملني على السكوت. نفسي تضعف وعيناي تتوقان إلى الدموع.

لقد خطئت يا نفسي؛ فتوبي، لأن أيامنا تمضي كظل. سنرحل عبر أماكن مرعبة ومخيفة. لا تؤخرّي يوماً فيوماً الالتفاتَ إلى الرب. كوني على الأقل منسحقة يا نفسي.

كوني منسحقة في التفكُّر في جميع الصالحات التي استلمتها من الرب ولكنك لم تحفظيها. كوني منسحقة في التفكّر فيما فعلت، وكم كان الله صبوراً عليك. كوني منسحقة حتى لا تُرسَلي إلى الظلام الخارجي عند دينونة المسيح الرهيبة.

الويل لي أنا الخاطئ! فبسبب ضعفي قد صرتُ ملوَّثاً، ودائماً ألوّث طهارة قلبي. البلادة والكسل قد أخزيا جرأة قلبي. الشهوة الشريرة تأمرني مثل سيد يأمر عبده، وأنا كطفلٍ أطيع للحال بخوفٍ. إنها تقودني إلى الخطيئة وهذا يسرّني.

الويل لي يا رب! نعمتك تجرّني نحو الحياة لكني أفضّل الموت بدل ذلك. أنت تثابر كي أصير أنا مكرَّماً كالملائكة؛ لكني في فسقي، أحطّ من قدر ذاتي. قد تكاثرت خطاياي يا رب وتتكاثر بدون انقطاع ولا يوجد حدٌّ لكثرتها.

مَن سينوح عليَّ أو يصلّي من أجلي؟ أنت يا مخلّصي ذاتك، تنازلْ وارحمني بنعمتك وتداركْني بحنوّك أنا البائس! إذ كيف أصلّي إليك يا سيد وفمي مملوء من الكلمات البذيئة؟ أم كيف سأرتّل لك تسابيح وضميري ملوَّث؟ أم كيف سأحبك وأنا مملوء من الأهواء؟ أم كيف ستسكن الحقيقة فيّ وأنا قد لعنتُ نفسي بالكذبات؟ أم كيف سأناشدك وأنا لم أحفظ وصاياك؟

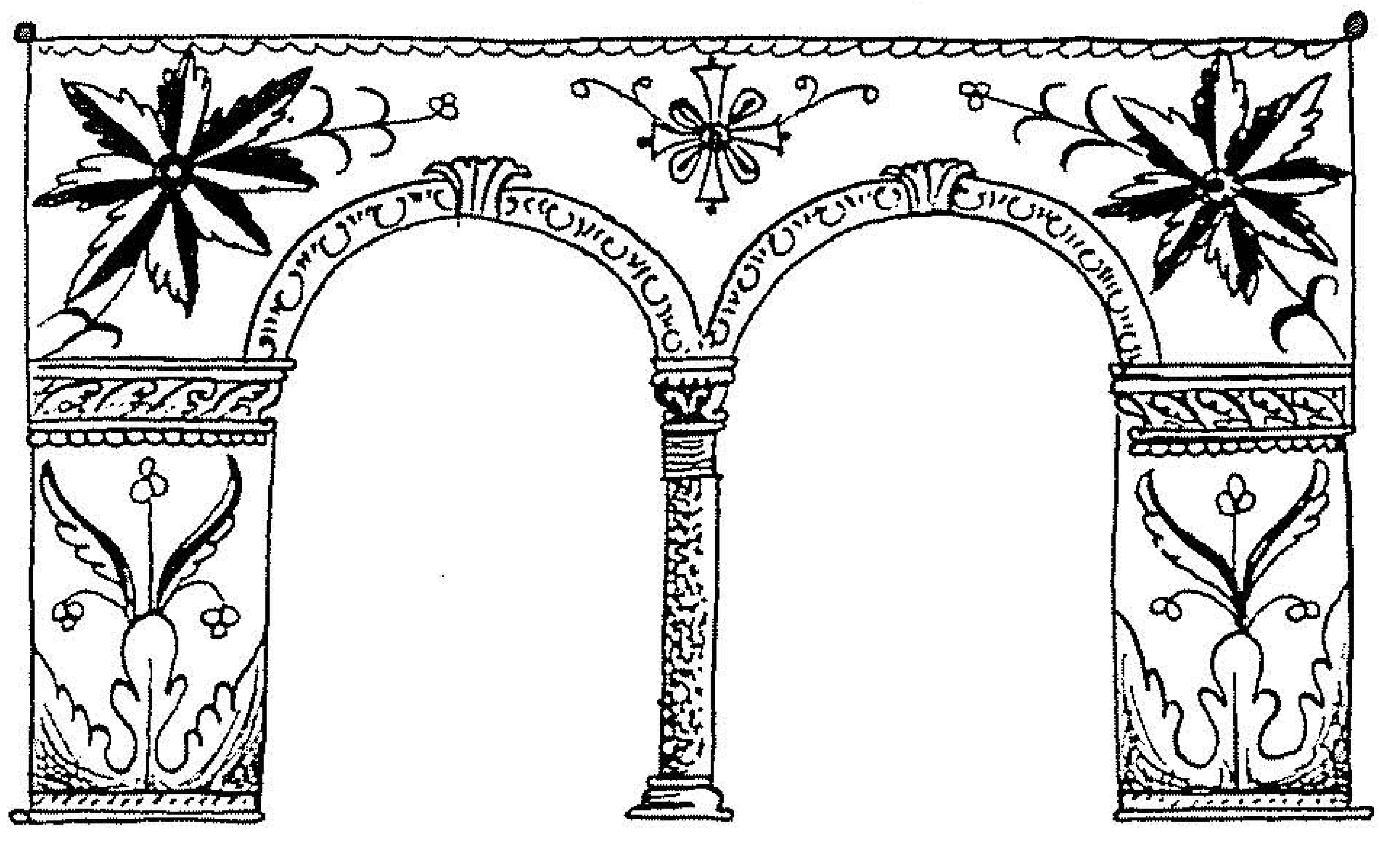

-٥٥-

كيف تتفحّص وتوبّخ ذاتك؟

بعد أن اكتسبتُ معرفة الحقيقة صرتُ مشاجراً ومُهيناً. إني أجادل في التوافه؛ صرتُ حسوداً وقاسياً نحو قريبي، غير رحيم للمستعطين، غضوباً، مجادلاً، عنيداً، كسولاً، نزقاً. إني أكِنُّ أفكاراً خبيثة، إني أحب الثياب الفاخرة. وحتى هذا اليَوم لديّ أفكار فاسدة كثيرة ونوبات من الأنانية والشراهة والشهوانية، والمجد الباطل، والعجرفة والشهوة، واجترار الإشاعات، وكسر الأصوام، والقنوط والمنافسة والنقمة.

إني تافه، لكني مغرورٌ بنفسي. إني أكذب دائماً، لكني أغضبُ على الكاذبين. إني أدنِّس هيكل جسدي بأفكار خليعة، لكني أُدين بصرامة الخليعين. إني أدين الذين يسقطون، لكني أنا نفسي أسقط باستمرار. إني أدين المفترين واللصوص، لكني أنا نفسي لصٌّ ومفترٍ معاً. إني أسير بسيماء لامعة، ومع ذلك فإني نجس تماماً.

في الكنائس ولدى الموائد أريد دائماً أن أحتلَّ مكان الكرامة. أرى النسّاك فأتصرّف بجلالٍ؛ أرى الرهبان فأصير

طنَّاناً. أحاول الظهور كملاطف للنساء، ومبجَّلاً للغرباء، وكذكي ومنطقي لأقربائي، وكمتفوِّق للمفكرين. مع الأبرار أتصرّفُ كما لو كنتُ امتلك حكمة وافرة؛ أما غير الأذكياء فأترفّع عنهم كأمّيين.

إذا أُهنتُ فإني أنتقم. إذا كُرِّمتُ فإني أجتنب الذين يكرِّمونني. إذا طلب أحدٌ ما مني ما هو حقٌ له، فإني أبدأ بإقامة دعوى. والذين يخبرونني بالحقيقة اعتبرهم أعداءً. وعندما يفتضح خطأي أغضب، لكني لا أمتعض هكذا عندما يتملّقني الناس.

لا أريد أن أكرِّم المستحقين، لكني أنا نفسي غير المستحق أطلب كرامة. لا أريد أن أُنهك نفسي بالعمل، لكن إذا فشل أحد ما في خدمتي أغضب عليه. لا أريد أن أسير بين العمّال، لكن إذا فشل أحدٌ ما في مساعدتي في عملي أفتري عليه.

أنكر بعجرفة أخي حين يكون في حاجة، لكني عندما أحتاج إلى شيء ما فإني ألجأ إليه. أكره المرضى، لكن عندما أكون أنا نفسي مريضاً، أودُّ أن يحبني كل أحد. لا أريد أن أعرف الذين هم أرفع مني، وأوبّخ الذين هم أدنى مني.

إن أحجمتُ عن الانغماس في شهواتي الحمقاء، أمدح نفسي بمجد باطل. إن نجحتُ في اليقظة أسقط في شراك الغرور والتناقض. إن أحجمتُ عن الأكل أغرقُ في الكبرياء والعجرفة. إن كنتُ يقظاً في الصلاة فإن النزق والغضب

يهزمانني. إن رأيتُ الفضيلة في أحدهم فإني أتجاهله عن قصد.

لقد احتقرت الملذّات الأرضية، لكني لا أهجر اشتهائي الباطل لها. إذا رأيتُ امرأة أنتشي. لكل المظاهر أنا حكيم بتواضع لكني في قرارة نفسي متعال. لا أبدو أني مولعٌ بالقنية، لكني في الحقيقة أعاني من الهوس بالممتلكات. وأية فائدة من التمعّن في مثل هذه الأشياء؟ إني أبدو وكأني قد هجرتُ العالم، لكني في الحقيقة ما أزال أفكّر في الأشياء الأرضية كل وقت من الأوقات(٢٢).

خلال الخدَم أُشغل نفسي دائماً بالمحادثات، والأفكار الهائمة والتذكَارات الباطلة(٢٣). خلال الوجبات أنغمس في ثرثرة تافهة. أتوق إلى الهدايا. أشارك في سقطات الآخرين الخاطئة وأنشغل في منافسة مُهلكة.

هكذا هي حياتي! فبأية خسّة أحجب إذاً خلاصي! عجرفتي ومجدي الباطل لا يسمحان لي بالتفكير في قروحي التي يمكن أن أشفيها بنفسي. هاهي الموائد الفاخرة! انظر كم هي هائلة أمواج الخطايا التي يرسلها العدو لتعسكر

---

(٢٢) تحليلات أفرام لحالاتنا الخاطئة عميقة جداً. هي سجّل حافل بكل ألوان مظاهر بؤس الإنسان بعد السقوط. التناقض في حياة الإنسان مشكلة المشاكل: يحب ويكره، يتواضع وينتفخ، يتعفّف ويتمرّغ، يصوم ويتكالب على بعض المآكل...

(٢٣) كاسيانوس يذكر أن مواضيع الأدب اليوناني واللاتيني كانت من هواجسه أثناء الخِدم الدينية. ما أضعفنا روحياً!

ضدي! ومع ذلك، في مواجهة هذا كله أحاول، أنا البائس، أن أتبجَّح بالقداسة. إني أعيش في الخطيئة، لكني أريد أن يكرِّمني الآخرون كإنسان بارٍّ.

في كل هذا لا أملك سوى شيء واحد أقوله في دفاعي: لقد اقتنصني الشيطان. لكن هذا لم يكفِ ليُحلَّ آدم من خطيئته. طبعاً لقد حضَّ الشيطانُ قايينَ، لكنَه لم يفلت من الإدانة أيضاً. ماذا أفعل إذا أتى الرب إليّ؟ ليس لدي من وسيلة لأبرّر إهمالي.

أخشى أن أُحصَى بين الذين يدعوهم بولس آنية غضب، الذين سيشاركون مصير الشيطان، والذين سلَّمهم الله، بسبب ازدرائهم له، إلى أهواء الهوان. هكذا يقوم خطرٌ ألا وهو أن يُحكم عليّ بالمصير نفسه.

إن كنتَ ستخلّصني، أنا غير المستحق، أيها الرب الرحيم، فتعطّفْ عليّ، أنا الخاطئ، بالتوبة؛ أحيي نفسي المُماتة بالخطايا يا مانح الحياة. أخرج القساوة الصخرية التي في قلبي البائس، وامنحني ينبوع انسحاقٍ، يا مَن تسكب الحياة فينا من ضلعك الخالق الحياة.

-٥٦-

الشيطان ينجح لدى المتوانين، لكنه يجهّز أكاليل للحكماء

إن الشيطان الشرير، بعدما قُهِرَ بصورة قاطعة من القديسين الأطهار والنساك ولُجم بنعَمة الله، جلس ولام نفسه، منتحباً وقائلاً: «الويلَ لي أنا البائس! لماذا قد أُخضعتُ؟ كيف اتفق أن فقدتُ الصراع وخسرتَ الربح على ذَاتي؟ لكن أنا مَن صار صانع خزيه، لأني بدأتُ هذه المعركة الطويلة ضدهم.

بعدما هُزمتُ في المعركتين الأوليَين كان يجب أن انسحب للحال، وأنا أرى المسيح معهم. لكن لأني رمتُ النصر عليهم، فإني لعاري لا أفعل سوى زيادة مجازاتهم.

كان يجب أن أدرك خطأي قبلاً، عندما تألّمتُ على يدَي المسيح، عندما هزم كلَ قوتي. لأني فعلتُ كل شيء استطعته لأضمن صلبه، لكن كان موته بالذات هو الذي قهرني.

لقد عانيت الشيء نفسه بالذات على أيدي الشهداء. لقد نصّبتُ ملوكاً وهيأت عذابات حتى يرى الشهداء هذه

الأشياء ويرتعبوا وينكروا المسيح. لم يرتعدوا بالأحرى من الأشكال المتنوعة للعذاب، بل اعترفوا بالمسيح حتى موتهم.

والآن مـرة أخـرى، عندمـا أردتُ أن أهزم هذه الصراعات في الحرب، كان عليّ أن أتراجع مهزوماً وبخزي كبير. لقد تبجّحت بخططي الذكية، لكنها تمزّقت كلها إرباً إرباً مثل شبكة عنكبوت. لقد أردتُ أن أهزمهم بأهواء متنوعة، لكنهم جعلوني أرتد وأهرب بقوة الصليب. والآن، على الأقل، لا أعرف ماذا أفعل.

سأترك هذه المعارك الباسلة، وأمضي إلى أصدقائي الذين اختاروا حياة متوانية. فبينهم لن أضطر إلى التعب، ولن أحتاج إلى استعمال خداعي.

يمكنني أن أتناول القيود وأربطهم. وبعد أن أربطهم بالقيود التي هم مغرَمون بها كثيراً، سأجعلهم تحت سيطرتي مثل عبيد ينفّذون دائماً أمري طوعاً.

هكذا سأزّج بهم في الهاوية، وسأبتهج بهلاكهم وأحتفظ بهم هناك، حتى تكون لي رفقة في النار التي لا تُطفأ».

بطريقة مماثلة نعطي، نحن الحمقى، سلطاناً على ذواتنا للعدو بفصل أنفسنا عن الله وذلك برفضنا لوصاياه. سيتملكنا بسهولة وقد وجدنا محرومين من النعمة، وسيقودنا بدون مقاومة على مدى طريقه، طريق الهلاك.

يا رب! امنح أن ننجو من الشرير، وقد قطَّعنا إرباً إرباً القيود التي بها قيَّدنا بحسب اختيارنا. اطرح علينا نيرك الصالح والسهل وأرسل إلينا القوة لنحمله، حتى إذا رحلنا على مدى سبيل وصاياك الصالح نصل إلى المدينة التي أعددتها للذين يحبونك.

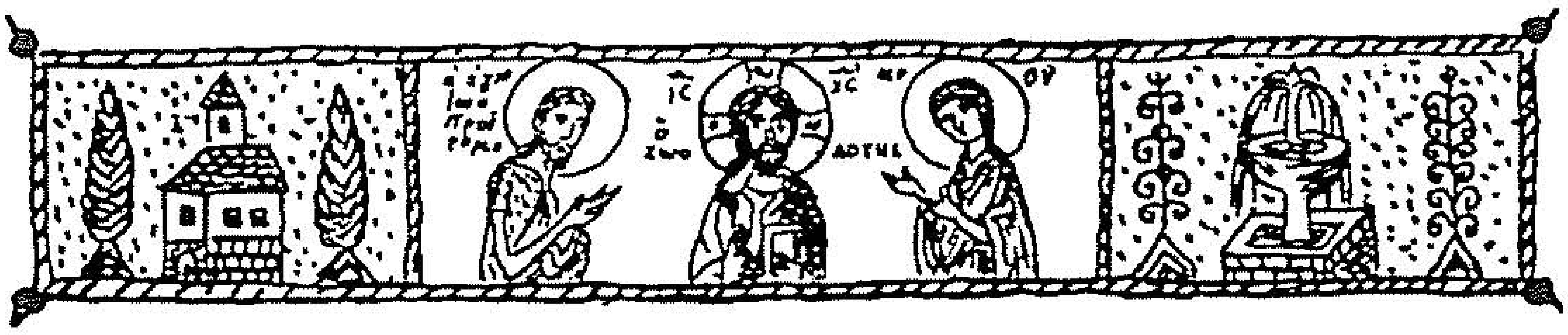

-٥٧-

دروس الحياة

إذا لم تصبح بعد ملتهباً بالروح القدس بقوة، فتجنّب الاستماع إلى أفكار الآخرين، حتى لا يُثير ما تسّمع أهواءً لم تمت بعد وتُفسد نفسك.

إن كنت قارئاً مجتهداً فلا تطلب نصوصاً متألقة وواسعة المعرفة؛ وإلا فسيضرب شيطانُ الغطرسة قلبك. لكن مثل نحلة حكيمة تجمع العسل من الأزهار، احصل أنت أيضا على شفاء لنفسك من قراءتك.

طوبىً للذي يكرز بالفضيلة بواسطة أعماله. أما إن قلت شيئاً يتعلّق بالفضيلة وفعلت العكس، فهذا لن يخلّصك.

عندما ترى الناس منغمسين في أعمال الحب غير الطاهر، فلا تنظر إليهم بذهول، حتى لا يغرّك جلدٌ متورد سرعان ما سيتحوّل إلى ترابٍ. بالحري، تنهّد لنفسك واصرخ: تذكّر يا رب أني ترابٌ، فنعمة الله ستمنعك من الصيرورة سجيناً للشرير.

صلِّ باجتهاد إلى الرب، حتى يمنحك روح العفة

التامة، لكي تنجو، حتى عندما تحلم ليلاً، من حيل الشرير مثل شخص يركض عندما يرى حيواناً متوحِّشاً يطارده؛ أو كإنسان، يحمل مُطاردُه مشعلاً محترقاً، فيركض من غرفة إلى أخرى حتى لا تحرَقه النار.

مثلما لا يستطيع المرء أن يشتري العلم أو المهارات الفنية بأي ثمن بدون ممارستها، هكذا لا يستطيع المرء الحصول على عادة ممارسة الفضائل بدون غيرة واجتهاد.

يتمتّع رأسك بالأولوية على كل أعضاء جسدك الأخرى، وإذا وُجِّهت حجرة أو عصا أو سيف إليك فإنك ترفع بقية أعضاء جسدك لتردَّ الضربة عن رأسك، عالماً أنك لا تستطيع العيش في هذه الحياة بدون رأسك؛ هكذا أعطِ أولوية قبل كل شيء للإيمان بالثالوث القدوس الذي هو واحد في الجوهر، إذ بدون هذا الإيمان لا يستطيع أحدٌ أن يعيش الحياة الحقيقية(*).

بكل قلبك ضع رجاءك في الرب، فتنجو بسهولة من حِيل الشرير، لأن الرب لا يتخلّى عن الذين يعملون من أجله.

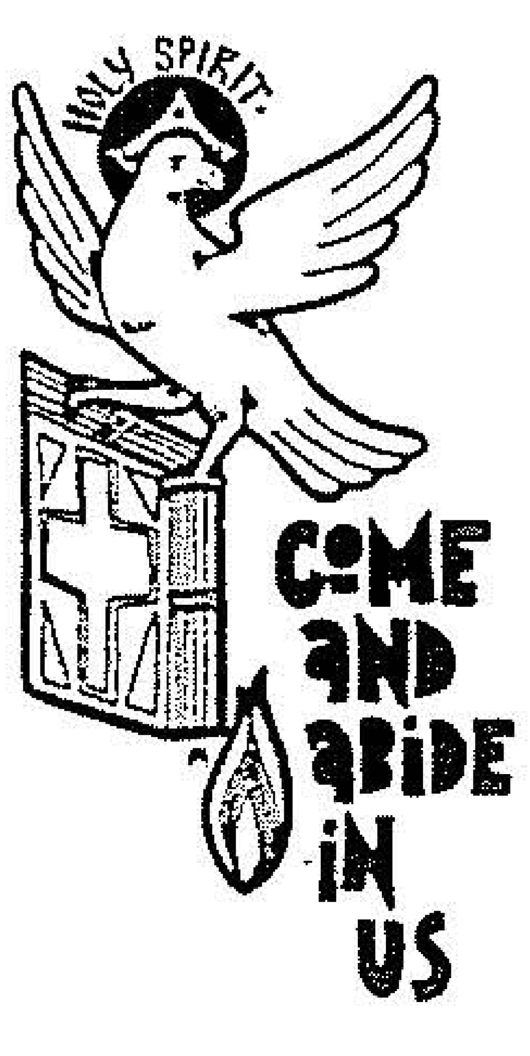

(*) تعليم آبائي ثابت.

-٥٨-

توبيخٌ من الرب للنفس المتوانية

بعينَي قلبي رأيتُ الرب جالساً بمجد عظيم وبدوت أني أستمع إليه وهو يقول لنفسي: كيف اتفقَ يا نفسُ أنْ وجدتَ خدرك الزفافي السماوي، المملوء بنور المجد، ممقوتاً؟ كيفَ اتفق أنْ طُردت بالأشياء الصالحة التي أعددتُها لك في أرض الحياة؟ كيفَ اتفق أنْ تغرَّبت عني بالأعمال والأفكار البذيئة؟ كيف اتفق أنْ لا تهيئي ذاتك للوقوف باستحقاق أمامي في مجيئي؟ كيف اتفق أنْ لا تحفظي مصباحك جاهزاً توقّعاً للنداء: "هاهو العريس يأتي"، حتى تخرجي لملاقاتي بفرح؟ كيف اتفق أنْ لا تبذلي جهداً لتحضير وشاح ملائم للعرس؟ كيف اتفق أنْ لا تهيئي نفسك للدخول بفرح إلى الخدر الزفافي السماوي المقدس؟ كيف اتفق أنْ لا تضمّي ذاتك إليّ، أنا الذي افتديتك من الموت؟

لقد اشتركتُ في الموت لكي أهيئك كعروس لي. لقد هيّأتُ الملكوت الأبدي لك كميراث. كلَ أشيائي الصالحة قد منحتها لك كملك. من أَجلك صِرتُ إنساناً، لأني رغبتُ أن أفتدي حَياتك مِن الفساد. من أجلك هيّأتُ خدراً زفافياً

في السموات، ورتّبت أن تقودك الملائكة إلى ذلك الخدر الزفافي، حتى تدخلي إليه بفرحٍ.

لقد تنحيّت عني، عن عريسك، وعن الأشياء الصالحة الفائقة الوصف التي هيَّأتُ من أجلك.

لكن مَن هو مُشتهى أكثر مني، أنا الذي يخلّص كل الخليقة بتحنّني؟ أي أب يعطي حياةً مثلي؟ ومع ذلك فقد تركتني، يا نفس، وأحببتِ آخر، غريباً، وخسيساً.

مَن الذي لن يبدأ بالارتجاف رعدةً لدى سماع هذه الكلمات؟

مَن الذي لن يخرّ مخزىً، ويذرف الدموع ويصرخ: لأية غاية خرجت أنا من رحم أمي: ألأغضب الله الصالح القدوس الرؤوف القلب؟

لكن، يا رب، امنح أن نكون صاحين وأن نفصل أنفسنا عن الهموم الباطلة، لنستردّ حواسنا ونعود إليك، ففيك وحدك يكمن كل صلاح حقيقي من أجلنا.

-٥٩-

بسبب دموعي، حوِّلني وامنحني أن أُظهر ثمار التوبة

أصغِ يا سيد إلى نُواحي، وتقبّل كلمات صلاتي، التي أقدمها أنا الخاطئ إليك، أنت الطويل الأناة والكلي الرحمة.

لا تتخلَّ عني بسبب أعمالي؛ لا تتذكّر تعدياتي الهائلة، التي بها قد مرمرتُ نعمتك جداً، أيها السيد الكلي الصلاح.

نعمتك تحملّت خطايا شبابي، التي كانت فاحشة بالعدد. فلتتحمّل أيضاً طيشي وإهمالي وتوانيّ.

برأفتك قطعتَ عهداً، أيها السيد المحب البشر، أنك لا تشاء موت الخاطئ، بل أن يعود إليك ويحيا. فلتدفعك رأفتك إلى الرحمة والرأفة عليّ أيضاً أنا الخاطئ.

هاهي ينابيع دموعي، أيها المسيح مخلّصي، وانسحاق نفسي غير المستحقة وتأوّهاتها... ! فلتأتِ رحمتك وتحمني قبل أن يجدني حكم الموت الرهيب غير مستَعد ومخزىً.

فلتمنحني نعمتك بعض الوقت للتوبة الحقيقية. لأن

نعمتك تميل إلى رُحْمى كل خاطئ يذرف دموعاً، وإلى مغفرة كل الخطايا التي ارتكبها. افعلْ هذا كي أُحضر لك أنا أيضاً ثمر التوبة.

اجذبني نحو الحياة وخلّصني. هَبْ أن أخدمك بقلب نقي كل أيام حياتي، حتى، إذا ما أرضيتك حسناً بأعمالٍ صالحة، أُمنَحَ أن أمضي عبر هذه الحياة وأن أدخل أيضاً إلى البركةً الأبدية التي أعددتها لكل قديسيك الذين أرضوك في كل جيل.

-٦٠-

لوالدة الإله:

طلبٌ للإرشاد في الحياة والمعونة في الموت

أيتها السيدة العذراء أم الله، يا مَن حملت المسيح مخلِّصنا وإلهنا في رحمك، إني أضع كلَّ رجائي فيكِ؛ بكِ أثق، لأنك أعلى من كل قوات السموات. فيا مَن هي كلية النقاوة، احميني بصلواتك الكلية القوة.

وجِّهي حياتي وأرشديني في الطريق الذي أشارت إليه مشيئةُ ابنك وإلهنا البارة.

امنحيني مغفرة الخطايا، كوني ملجأً لي، وحماية ودفاعاً، ومرشدة توجّهني طيلة مدى الطريق نحو الحياة الأبدية.

لا تتركيني في ساعة الموت المرعبة يا سيدتي، بل سارعي إلى معونتي. أنقذيني من عذابات الشياطين المريرة. لأنك إن شئت هكذا فلديك القوة لفعل هذا، لأنك حقاً أم الله الذي يسودَ الكل.

لا تنقطعي عن الصلاة من أجلنا جميعاً، نحن عبيدك غير المستحقين، حتى نتخلص من كل حيل الشرير ومن كل

شِدّة، وحتى نبقى غير مجرَّحين بهجماته المسمومة.

احفظينا حتى النهاية بصلواتك غير مدينين، حتى إذا كنا محفوظين بمعونتك وشفاعتك نرسل المجد والسبح والشكر والكرامة إلى الأبد، إلى الله الواحد في الثالوث، إلى خالق الكل.

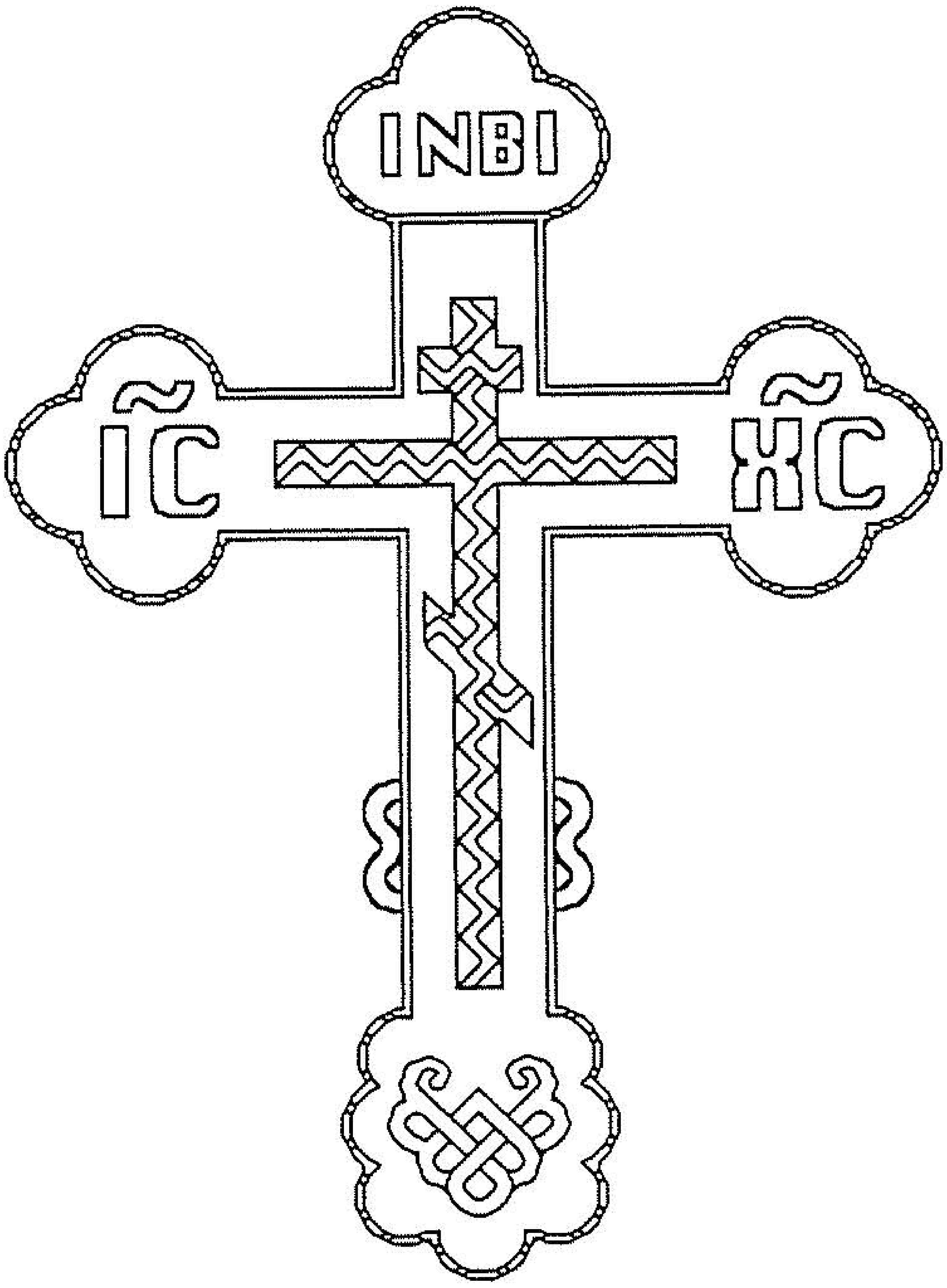

-٦١-

صحّني أنا أكبر الخطاة طالما أنا هنا

أيها الإله الذي هو فوق الكل، الذي له وحده السلطان على الحياة والموت: أظهرْ لي، أنا الخاطئ، رحمتك العظيمة في ساعة مجيئك الرهيب، حتى وأنا واقف أمام عرشك، لا أكون عاراً فاحشاً وخزياً لجميع الذين سيعاينونني: الملائكة، ورؤساء الملائكة، الأنبياء، والرسل، والبطاركة، والشهداء، والنساك، وكل الأبرار.

مثل أب طيّب القلب يحب أولاده أعدني إلى صوابي هنا يا مخلّصي، هنا حيث تنعّمتُ بضلال الخطيئة، واغفر لي هناك، أنت إلهنا الرحيم والبار وحدك.

لقد ارتكبتُ، أنا البائس، كل نوع من الخطيئة. لقد فقتُ الكلَ بإسرافي. إني أستحق العُقاب، وإذا بدأت بالتوسل من أجل التوبة فليس لديّ دموعٌ.

واحَسرتاه، بأي عينين سأعاين، أنا الخاطئ المتواني، العرشَ الرهيب الذي عليه ستجلس أنت، يا رب، عندما تكشف ما قد فعلتُ؟ لقد بدّدتُ كل حياتي مثل خليعٍ، متمرّغاً على الدوام في حمأة الشهوانية.

أنت وحدك يا خالقي تعرف كل سقطاتي الخفية والمدى الكامل لخطاياي. لم يصر أحدٌ قط مسكناً للخطية مثلي. لم يمرمر أحدٌ قط نعمتك، يا سيد، بصورة كاملة مثلي أنا الذي اتبعتُ أهداف الخطية.

لكن أنت، يا مَن هو يمّ الصلاح، جفّفْ بحرَ خطاياي المُهلك. أنت، يا مَن هو لجة الحنّو، أغرقْ لجة خطاياي.

لا تجازني بْحسب استحقاق أفعالِي، ولا تدنّ بلهيب الجحيم. لأن غضبك يا رب غير محتَمل، ومَن يستطيع احتمال تهديداتك؟

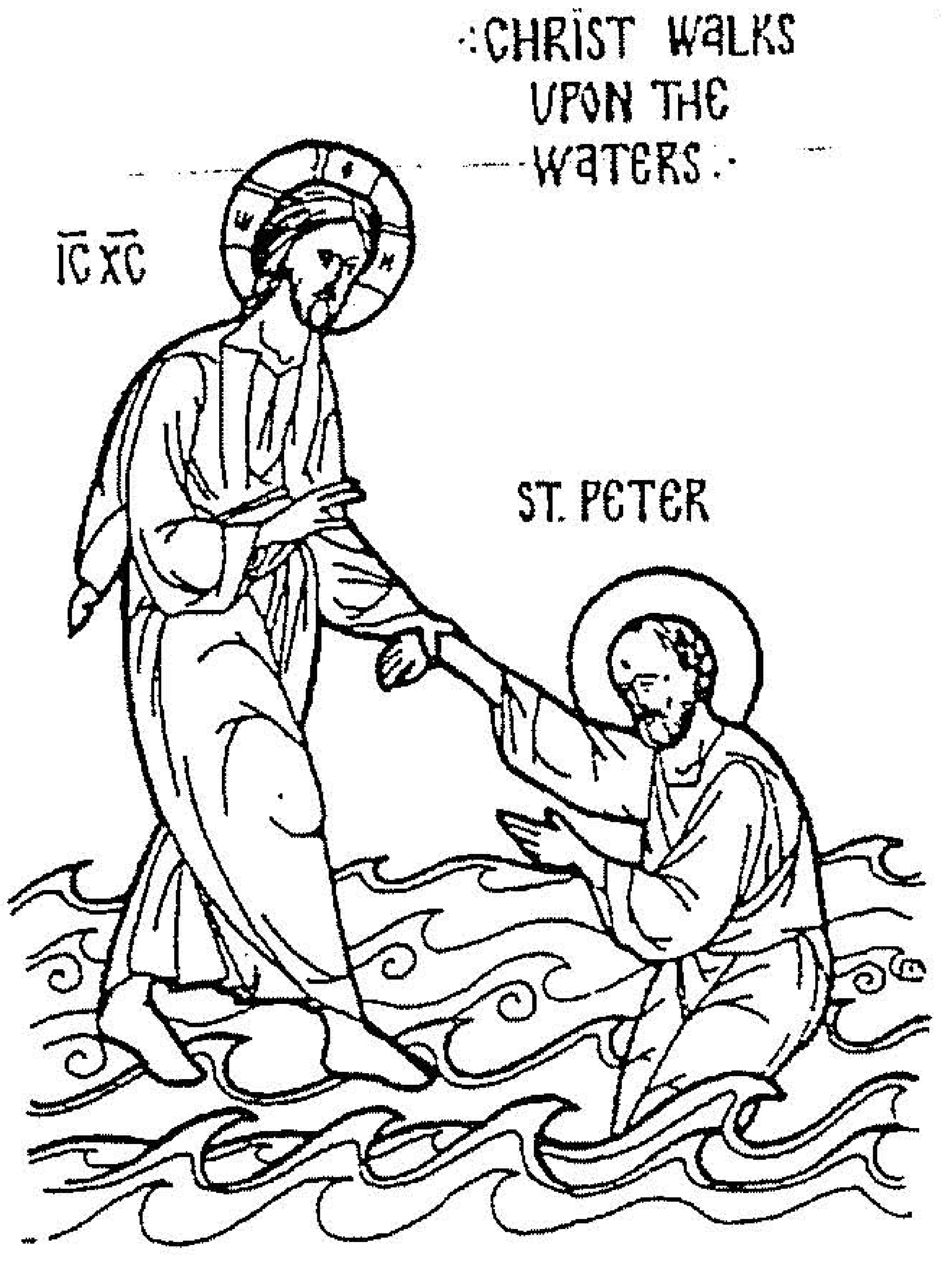

-٦٢-

إلى القديسين: طلبٌ للشفاعة

خافي يا نفسي من جهنم والدينونة واطرحي نوم الكسل الثقيل وهجوع التهوّر المخيف. النهاية قريبة، الدينونة على الأبواب. ماذا سنواجه بعد توديع هذه الحياة؟

هلمّوا إلى معونتي أيها القديسون والأبرار، الذين قمتم بأعمال صالحة للخلاص، ونوحوا عليَّ كميت، أو أشفقوا عليّ كواحد بين الأحياء لكنه نصف ميتٌ. لأني مملوء بالخزي وأفتقد الجرأة بسبب الخطايا التي ارتكبتُ عن معرفة.

اسكبوا عليّ رأفتكم كما تسكبون على مسجونٍ أو على واحد مُغشَّى بالقروح المتقيِّحة. ترأفوا بي أيها الخبيرّون بالله الرحيم، مخلِّصنا، وصلّوا كي يحوّلني مجاناً، حتى، في ساعة مجيئه، لا أوجَد غير مستحق ولا أسمع الدينونة الرهيبة: إليكَ عني يا فاعل الغشّ. أقول لك إني لا أعرفك.

-٦٣-

صلاة لمنح كل الفضائل

هَبْ لي يا ابن الصالح ما يتوق إليه ذهني، وضمَّ إليه ما هو مسرٌّ لمشيئتك.

هَبْ أن أختار فعل الصلاح وأن لا أنحرف بأية طريقة من الطرق عن مشيئتك.

لا تسمح لي أن أكون تلميذاً شريراً ومرائياً ينتهك وصاياك.

احمني من التفكير في أنني أستطيع السير طيلة مدى طريقك بغية الظهور فقط فتخدع بالتالي مراءاتي الذين يرونني، فتحثّهم على تطويبي.

هَبْ أن يُسرَّ قلبي عظمَتك سرّاً، وأن تمجدّك حياتي المستقيمة علناً.

لتكن الحقيقة سيدة لتوجّه الساجد لك؛ لتحفظني في العفة قريباً وبعيداً معاً.

خلّصني من محنة معرفة ناموسك بينما افتقد الرغبة في إرضائك.

تعطّف عليّ بعشرة الناس البسطاء، إنّما الخبراء والحكماء في أداء الفضائل.

جسدي ضعيفٌ؛ قوِّه بقوتك. ساعدني، اكسر سهام العدو الماكر، وأحصني بين محافل ورثتك.

هبْ لي يا رب أن أكون دائماً في قبضة سلطانك وأن أفعل ما يرضيك. وكلما أبدأ بفعل شيء صالح، اعطني يا رب قوة لأكملّه.

إني أعرف، يا رب، أني خطئتُ ضد إرادتك. أرى بوضوح أني قد تعدَّيت وصاياك. لكن يا مَن تجعل شمسك تشعّ على الصالحين والطالحين، تلطّف أيضاً ليشعّ نورك في ذهني المكفهرِّ. عندئذ سيطرد نورك هذا الخطايا: أولئك المجرمين والسارقين الذين اتخذوا مسكناً في داخلي.

لا يرى الشرير فيّ شراً إلا وأتى منه، فبسببه صرتُ شريراً. على كل حال، لقد غلبني بسبب مشيئتي الحرة. لقد أشركني الشرير لأني أنا بنفسي قد أرشدته أن يفعل هكذا.

الكسالى والجبناء يهربون من نيرك؛ محبتك تخزي المتوانين.

السبح لصلاحك(٢٤)، لأمِّ كل المعلِّمين. إن الضربات

(٢٤) لفظة "صلاح" الروسية (دوبراتا) مؤنّثة، بينما "صلاح" العربية مذكّرة. فيكون النص "السبح لصلاحك، لأبي كل المعلّمين". (المترجم)

التي يوجهونها ليردّوا العنيدين إلى صوابهم ربما تكون مؤلمة جداً، ومع ذلك فإنها بعطفٍ تقدّم الشفاء للتائبين.

أبوك وروحك القدوس، الذي يبتهج بعودتنا، يستحقان الاحترام!

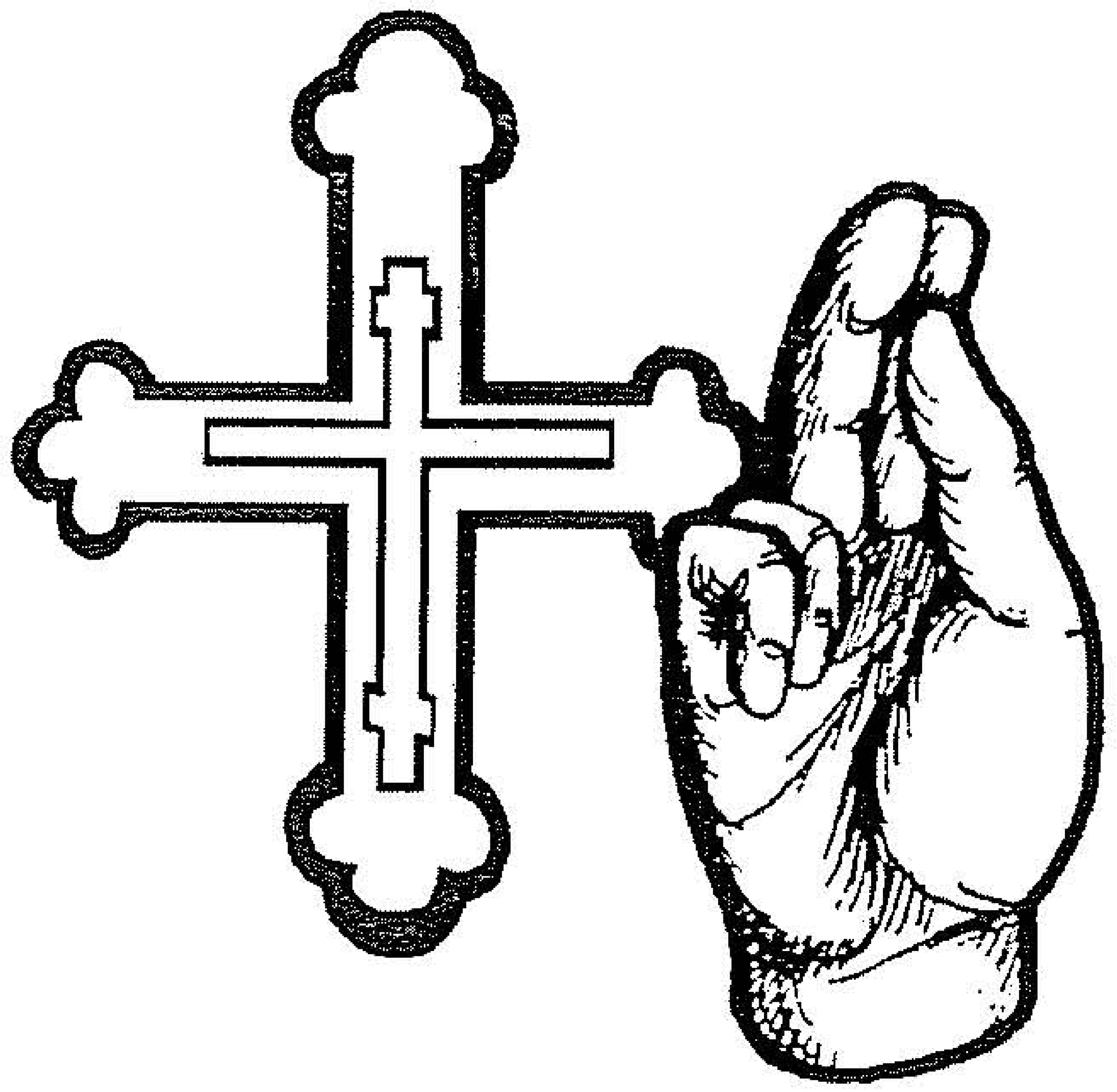

-٦٤-

تطويبات

طوبى للذي صار رحب الصدر ورؤوف القلب وغير مستَعبدٍ للحدَّة غير المروَّضة أو للغضب الشرير؛ سيعظِّمه الرب.

طوبى للذي تعالى في المحبة والذي يقف مثل مدينة مبنية على قمة جبل، التي منها ينسحب العدو بخوف عندما يراه؛ لأنه يخاف الإنسان الثابت في الرب.

طوبى للذي شعَّ بإيمان في الرب مثل شمعة مشتعلة على شمعدان طويل، وأنارَ نفوس الذين في الظلام قد تبعوا تعاليم الكافرين والمحتَقرين.

طوبى للذي يحب الحقيقة دائماً ولا يدع شفتيه تسلِّحان الخزي بالكذب، لأنه يخشى الوصية التي تحرّم الكلام الباطل.

طوبى للذي لا يدين بحماقة قريبَه بل يحاول بالحري، كما يليق بإنسانٍ روحي منطقيٍ، أن ينزع أولاً الخشبة من عينيه.

طوبى للذي مارس الإمساك بوعي والذي لم يُغوَ قط،

لا في الفكر ولا في حــواســه، لا بالجلد واللحم اللذين سرعان ما سيزولان ويفسدان.

طوبى للذي يحفظ يوم رحيله دائماً أمام عينيه، والذي تعلّم أن يكره العجرفة قبل أن ينكشف بالتعفّن في القبر عدمُ استحقاقنا الفطري.

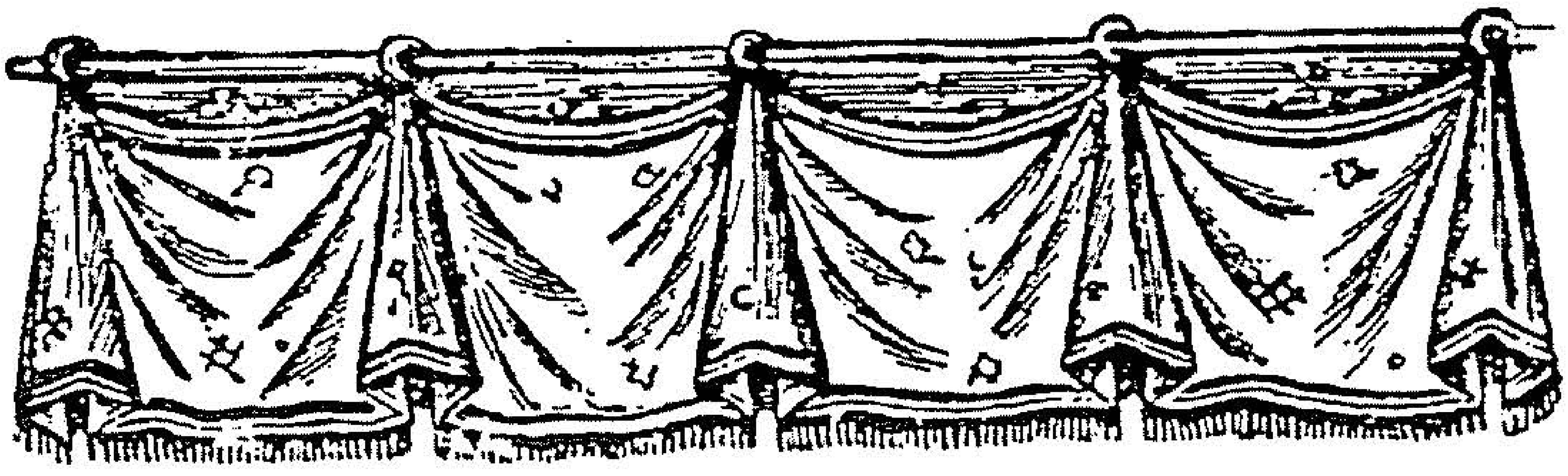

-٦٥-

ما أساس رجائنا بالتبرير عند الدينونة؟

النار تهدِّد أعضائي يا رب، لكن دمك المصالح يا مخلّصي مَخفيٌ فيَّ. جهنم تترقب لتعذّبني، لكن جسدك الخالق الحياة متحدٌ مع جسدي بصورة حميمية. إني ملتحفٌ برداء الروح القدس، حتى إني لن أُلفَح. عندما يبدأ نهر النار بالهدير، مهدِّداً بالثأر، عندئذ ستنطفىء النار فيَّ، وقد صفعها شذا جسدك ودمك.

أنت يا ربنا رجاء التائبين. أنت صديق كل الخطاة. إني أتوسل إليك يا رب، باسمك القدوس: لا تعذبني بدينونتك العادلة. بمحبة والدتك، بحضن أمك حيث حُملتَ، بالحربة التي طعنت أضلاعك على الجلجلة، أتضرّع إلَيك: رشّني بندى حنوّك، حتى لا أضعف بالعطش.

ليكن صليبك، يا رب، الذي فيه ألتمس ملجأ، جسراً لي عبر نهر النار الهائل. لأعبره نحو سكنى الحياة.

يونان صرخ إليك في أعماق البحر وهكذا فعل دانيال في جب الأسود. الفتية الثلاثة العبرانيون دعوك في الأتون الذي أوقده الكلدانيون. لقد أخرجتَ يونان من الهاوية،

لقد خلّصت دانيال، وحنوّك ندّى وأطفأ اللهيب في الآتون.

ارحمني أيضاً يا رب، وخلّصني لأني اعترفت لك، وبحسب رحمتك امحُ ديوني.

ارحمني يا ربنا الرؤوف، وبحسب كثرة رأفاتك امحُ خطاياي. اغسلني من آثام يديّ لأتنقّى وتُغسل لطخاتي. أنا عارف أني خطئت؛ خطاياي أمامي دائماً وأنا أراها. أمامك وحدك أنا مذنبٌ، وإليك وحدك خطئت. ارحمني أيها الرب يسوع إلهنا.

ثلاث مرات أنكرك سمعان يا رب؛ لكنه أحضر لك دموعاً وأنت قبلته. هاأنا أيضاً أُحضر لك اعترافاً نقياً. كثيرة هي خطاياي، فهي لا عدد لها. بحسب رأفاتك يا ربنا، اغفر مآثمي؛ بنعمتك امحُ سجل لطخاتي ولا تذكر خطاياي.

السبح للرب الإله الذي لا يشاء موت خاطئ! السبح لك، يا مَن ترحم الخطاة! السبح لك يا مَن تقبل التائبين! السبح لك يا يسوع يا مَن تفتح بابك لجميع الذين يقرعونه ويرجون مغفرة خطاياهم! السبح لك يا رب، ولتكن رأفتك علينا! ارحمنا يا يسوع ربنا.

-٦٦-

العدو ضلّلَني وأنا ارتكبتُ خطايا كثيرة. ارحمني، لأني اعترف بخطاياي

بحسب نعمتك التي تدعونا يا الله لنقترب منك بدون أن نهلك أيها الصالح، يا مَن صنعتَ عهداً معنا، معلناً: ادعوني وسأُصغي إليكم، هكذا أقرعُ أنا بابَ صلاحك يا مخلّصي! أصغِ إليّ بحسب رأفتك ولا تنظر إلى آثامي. ارحمني يا رب، ارحمني بحسب صلاحك، لأني مُذنب بالكثير أمام حقك.

لقد خلقتني يا رب، لقد سمّيتني في صورتك، وبحسب صلاحك جعلتني على مثالك. لقد علّمتني أن أميِّز الطريق إلى مساكن الحياة، وأظهرتَ لي الطريق إلى جهنم. بسبب حسده وضع الشرير كمائن خفية في طريقي، وأغواني عن طريقك، ولطّخني بالمقت. الويل لي يا ربنا لأني مذنب بأشياء كثيرة! ارحمني يا رب وخلّصني بحسب نعمتك.

إن اللص، سارق النفوس الشرير، قد سلب بمهارة حريتي مني، وأغراني ولعنني. بنظرة عينيّ خدعني وأسرني

ووضع أفكاراً خاطئة فيَّ. لمحتُ وامتلأت بالشهوة؛ نظرت بفضول فخطئتُ. ولأني مددت يديّ لأفعل الإثم هكذا هلكتُ تماماً. واحسرتاه، النار تهددني الآن! خلّصني أيها الرؤوف كي لا أموت.

إني أسوأ حظاً من جميع الذين وُلدوا من قبل امرأة، لأني بأعمالي أنا جعلتُ نفسي سيئ الحظ(٢٥) وألقيت بذاتي نحو الهلاك. كل يوم كنت أخطأُ وأعزّي نفسي بجهل حقيقة كون الموت يكمن ليترقبني. واحسرتاه، لقد أُرسلَ ملاك الموت ليأخذني إلى الدينونة وهو قريب. واحسرتاهَ، كل ما كان مخفياً سيُكشَف وسأغطَّى بالعار!

ها إن أعمالي قد سُجلِّت بعدل؛ لم تُنسَ كلمةٌ واحدة. في كتاب القاضي العظيم توجد كل أعمالي وتعدياتي. الويل لي عندما تقرأ العدالةُ هناك كلَ الخطايا التي ارتكبتها منذ شبابي حتى عمري المتقدم! ماذا سأفعل في تلك الساعة وإلى أين سأهرب منك يا رب؟

الويل لي يا رب! إني مذنبٌ بأمور كثيرة جداً! الويل لي! لقد خطئتُ ولم أقدم لك توبة! يا الله، يا مَن رحمت الزانية، ارحمني أيضاً أنا البائس، يا ربنا، حتى لا أفنى! بدلاً من الطيب الذي ابتاعته الزانية لك، لديّ جسدك

---

(٢٥) لا يوجد في المسيحية قضاء وقدر، ولا يوجد مَن هو سيئ الحظ أو محظوظ. إرادتنا الحرة هي سبيلنا إلى الخلاص أو الهلاك. (المترجم)

ودمك المتحدان بأعضائي. كلاً يا إلهنا، لا تنظر إلى أعمالي؛ فلتمحُ نعمتُك مآثمي.

لا تدخل في المحاكمة معي يا ربنا، إذ لا تستطيع خليقة حية أن تتبرّر أمامك. أنت وحدك يا رب طاهرٌ. اصفح عني واغسلني من الخطايا بنعمتك. تعطّف عليّ أيها الرؤوف برأفاتك العظيمة لتجعلني غنياً ولأنال المغفرة، وليبتهج ملائكتك بحسب كلمتك، يا مَن أنت متحنّنٌ على الخطاة.

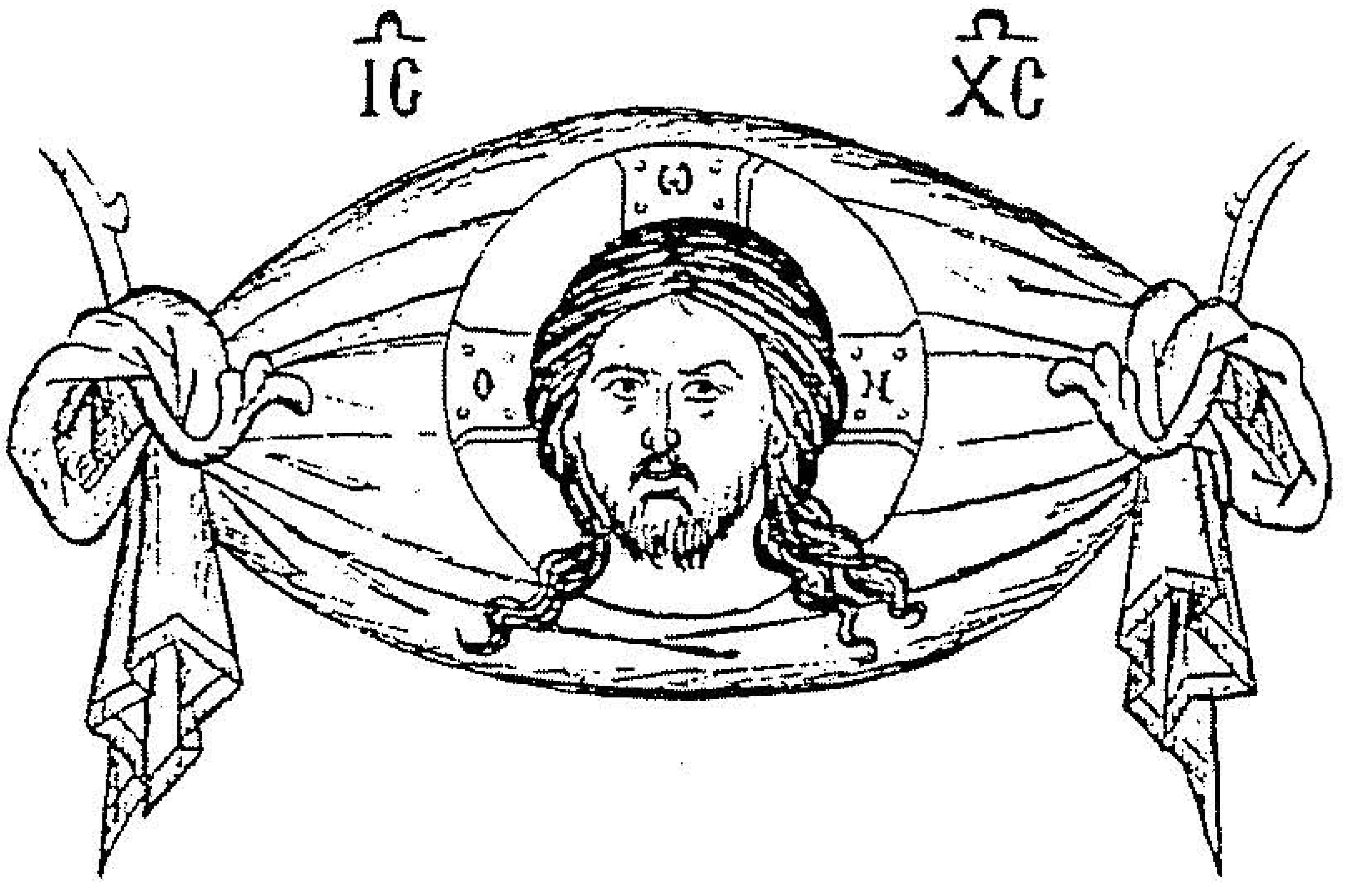

-٦٧-

دفاعٌ ضد خِدَع العدو

أتضرّع إليك أيها النور الحقيقي، المولود من الآب المبارك، صورة أقنومه، الجالس عن يمين عظمته، أيها المسيح، تسبيح الذين يحبونك وفرحهم: أنت حياتي، نوري وبهجتي!

لا تنبذني أنا غير المستحق؛ لا تقصني أنا الخسيس، لأن العدو سيبتهج جداً إذا ما غُمرتُ باليأس بسبب ضباب الضلال الذي يحيط بي. سيفرحَ فقط عندما يرى أن اليأس قد بدأ بأسري.

لكن بالحري اخزِ آماله بحسب محبتك المتقدة، اختطفني من بين أسنانه، حرّرني من خططه الماكرة، من كل ما يستنبطه ضدي؛ لأنه يسلِّح نفسه بصورة فاحشة ليحاربني.

امنحني يا رب استنارة لأميِّز حيَل مخاصمي، الكاره لكل صلاح؛ لأنه يضع في طريقي كثرة لا عدد لها من المغويات والشراك: أرباح وخسائر معاً، رفاهيات هذا العصر والشهوة الجسدانية، طول الحياة الحاضرة، الجُبْن في

الأتعاب النسكية، الكسل في الصلاة، نوم الجسد وراحته خلال ترتيل المزامير.

بمقدار ما يجاهد العدو لإهلاكي هكذا استسلم ،أنا البائس، للتهوّر والبلادة. كلما تكاثرت الشراك التي ينصبها لي، كلما صرت أكثر إهمالاً.

كوني يقظة يا نفسي، اسهري على ضميرك؛ لا تنتبهي لسقطات الآخرين، بدلاً من ذلك كوني أكثر انتباهاً لسقطاتك أنت. سارعي، وأحبطي هلاكك، صالحي المسيح، المصلوب في الجسد من أجلك. إذا دنّا أنفسنا فلن نُدان عندئذ، عند الدينونة الهائلة الأبدية.

ترأف يا رب عليّ بحسب حنوّك؛ خلّصني بحسب صلاحك الفريد، بصلوات سيدتنا الكلية الطهارة أم الله وجميع القديسين.

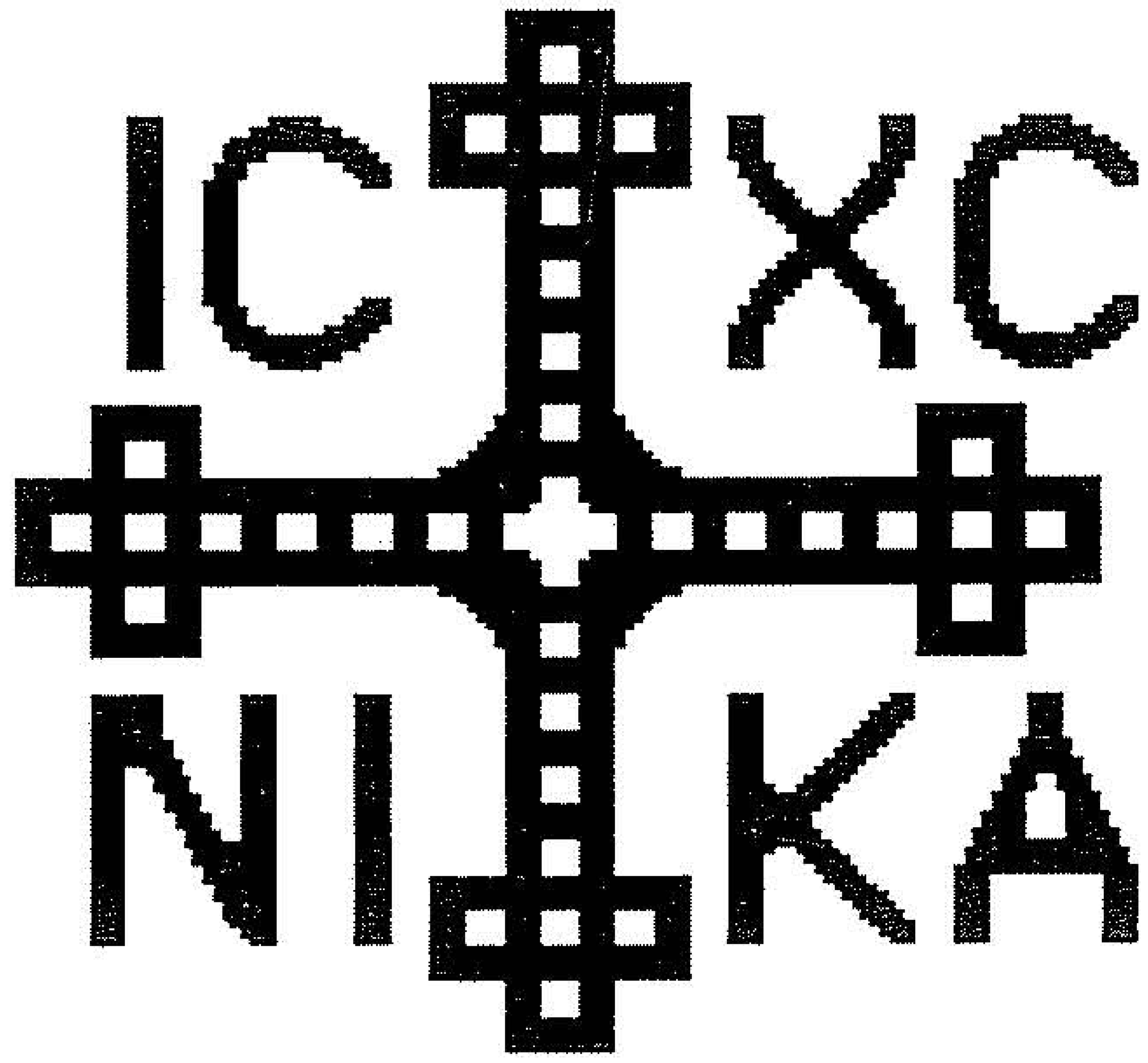

-٦٨-

خلّصني من العدو الذي يصارع نفسي المخطوبة لك

إن نفساً غاصَّة بالألم تقترب منك أيها السيد القدوس، وتقف أمامك بدموع، موجِّهة اتهامات إلى الماحق، العدو، وبكل تواضع تخرّ أمامك، ملتمسة دفاعاً ضد المخاصم الذي يقمعها.

بمقدار ما تقترب هذه النفس منك بدون خزي، سارع إلى الإصغاء إليها، أدِرْ انتباهك إلى التي تسارع إليك بمحبة.

إن كنتَ ستنبذها وهي الغاصة بالألم فإنها ستفنى. إذا ترددتَ بالاستماع إليها وهي المُماتة فستكلّ قوتها.

أما إن كنتَ ستزورها، بحسب رأفاتك، فستتعافى. إذا قدّرتها فستُخلَّصْ. إذا أصغيتَ إليها فستزداد قوة.

كن غيّوراً عليها، لأنها مخطوبة لكَ، وبولس الذي خطبها لك قال إنك إله غيّور لا تموت.

لا تنبذها، كيلا يظن العدو أنك طلّقتها وأبعدتها عنك.

عاقبني يا رب بحسب رأفتك؛ لكن لا تسلّمني إلى يدَي المبيد.

عجباً، لقد جمّعتُ كلَ أفكاري ولا أستطيع تذكُّر أي شيء صالح أمامك، إلا حقيقة كوني لا أعرف إلهاً سواك.

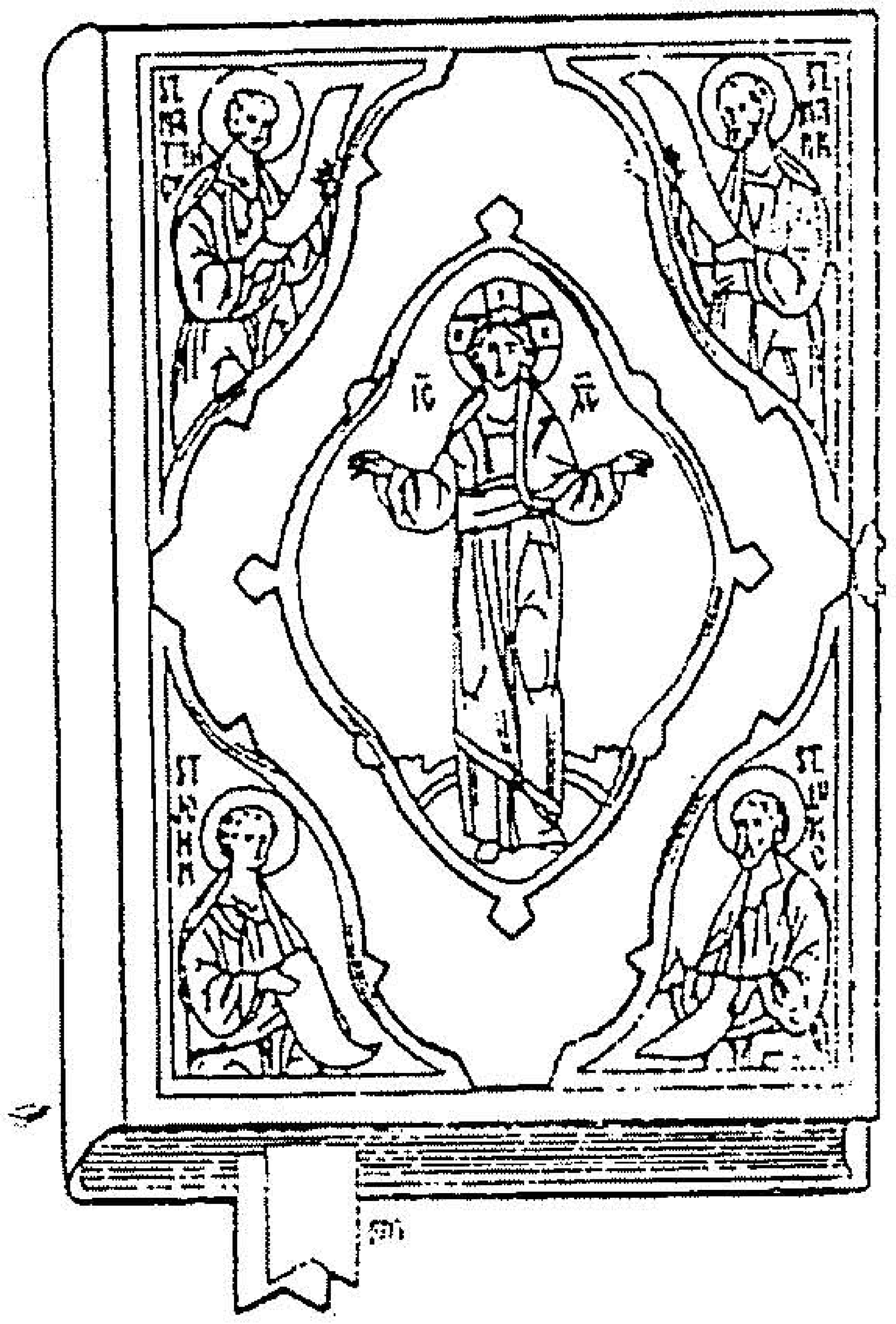

-٦٩-

خِدَع العدو ومصادر الخطيئة

ها أنا أخرُّ ثانية عند قدَمي سيدي، متوسلاً، متضرّعاً، ساجداً وصارخاً إليه بخوف.

أيها السيد، انتبه إلى نُواحي، واقبل كلمات تضرّعي التي أقدمها إليك أنا الخاطئ المخزى.

بحسب رحمتك اسكب عليّ، أنا البائس، على الأقل نقطةً صغيرة واحدة من النعمة لتجعلني أفهم وأتحوّل، لأقوم على الأقل بجهد صغير لأصحِّح ذاتي.

لأنه إن كانت نعمتك لا تُنير نفسي، فلن أستطيع رؤية الإهمال والتواني اللذين أحدثَتْهما الأهواء فيّ ببلادتي وتهوُّري.

واحسرتاه، لقد استحوذتْ عليّ الخطيئةُ ووجدت فيَّ مرعىً. مع كل يوم ينقضي فإنها تبخسني حقي وتطمرني أكثر فأكثر في أعماقها. وأنا البائس لا أكفّ عن إغضاب الله ولا أخاف النار التي لا تُطفأ ولا أرتعد من العذابات الأبدية.

صارت الخطيئة عادةً وقادتني إلى هلاكٍ تام. ورغم أني

أميّز ضلالي ولا أكفُّ عن تقديم الاعترافات، فما أزال في الخطيئة حتى الآن. إني أنظر ولا أرى، لأني أُخطأ حتى في التوبة، لأني لا أحاول تفحُّص أعمالي(٢٦).

كعبد للخطية أقوم بالأعمال الخسيسة حتى عندما لا أريد. كمحّارب في إمرتها أطيعها، ورغم أن لديّ فرصة للهرب فإني أكرّر هذه العادة التي تتحكّم فيّ. إني أطيع الأهواء وأسدّد دفعات الجسد. أعرف أن الفساد يتقوّى فيّ، وأنا نفسي أتعاون معه، مسحوراً بقوة سرية ما. أودّ الهرب، لكني مثل كلب في سلسلة أعود دائماً إلى الرقعة نفسها.

يتفق أحياناً أن أكره الخطيئة وأشعر بالاشمئزاز من الإثم، لكني أبقى رغم ذلك مستَعبداً للهوى. إنه يمتلكني أنا المنكود الحظ وبلذة خاطئة يقودني إلى الخطيئة. لقد اشترى الهوى إرادتي الحرة لنفسه، وتقيّأ الخطيئة عليّ. الأهواء تغلي فيّ خلافاً (لرغبة) عقلي؛ لقد التحمَتْ بجسدي ولن تسمح بالانفصال عنه.

أجتهدُ أن أعيد توجيه إرادتي، لكن حالتي السابقة لن

(٢٦) التوبة غير الصادقة وغير الأمينة هي خطيئة. لا يطمر افرام شعوره بالذنب بل يُذكيه بحكمة وحنكة ورصانة، فيزداد تواضعًا، ويقهر العجرفة والأنانية، وحب الظهور والمجد الباطل. لا يخشى افرام مواجهة ضميره ببطولة وبلا خجل ليسبر بعَمق كامل حالته الخاطئة. الكبرياء والدفاع عن النفس يدفعاننا إلى انكار مسؤوليتنا عن ذنوبنا، إلى تخفيف وطأة توبيخ ضمائرنا.

تسمح لي بإحراز أي نجاح في هذه المحاولة. أنا، التعيس، أحاول أن أحرّر نفسي من ديونها، لكن المرابي الشرير يقودني للحال إلى دين أفحش. إنه يقرضني ديوناً بسخاء، ولا يذكر حتى الوفاء أبداً. إنه لا يريد أن يستردَّ أي شيء، لأنه يرغب بعبوديتي وحدها. إنه يُقرض ومن ثمَّ لا يجدّ في إثر ديوني، حتى أصيرَ غنياً بالأهواء. أُريد قضاء دَيني القديم، لكنه يضيف دَيناً جديداً.

إذا أكرهت نفسي نوعاً ما على الصراع ضد الأهواء، فإنه يضيف أهواء جديدة ليتغلّب عليّ. وعندما يرى أن مديونيتي الدائمة تجبرني على الخطيئة، يقدمني إلى شهوات جديدة؛ ولكي يمنعني من الاعتراف بها يغمرني بالسهو عن أهوائي.

أصادفُ أهواءً جديدة وإذ أنا مشغول بها أنسى السابقة. أصادقُ الأهواء التي تظهر ثانية فأصير مَديناً مرة أخرى. أركضُ إليها ركضي إلى أصدقاء، فيتصرّف من جديد مرابوني نحوي مرة أخرى مثل أسياد. وأنا أجعل ذاتي عبدهم الوفي، أنا الذي حاولت منذ فتّرة يسيرة أن أنال الحرية. تارة أسارع إلى تمزيق قيودهم، وتارة أخرى أضع قيوداً جديدة. أسارع إلى تحرير نفسي من الالتزام بالعراك في صفهم، إنما لأني أخذت عطايا كثيرة منهم أجد نفسي مقيَّداً بهم لا مختاراً.

آه، كم فاحش هو سلطان الأهواء الخاطئة عليّ! آه، كم عظيمة هي سيادة الثعبان الشرير الماكر! متصرِّفاً بحسب الطبيعة يذهب هو أيضاً إلى السوق ويقدّم عربوناً لكي يبيع الذهن للخطيئة. إنه يقنعني أن أُرضي الجسدَ بذريعة استعماله لخدمة النفس. أنا مقهورٌ تماماً بالشهوانية، وأنا أنغمس مباشرة في نوم غير مشروط؛ وهكذا أنا محرومٌ تماماً من وظيفة نفسي. عندما أصلّي، يثير فيَّ فكرَ متعة تافهة ما، ومعها يقيّد ذهني كما بسلسلة نحاسية. ذهني لا يستطيع حلّ القيد، ولا محاولة الفرار.

هكذا تحفظ الخطيئةُ ذهني تحت الحراسة وتغلق عليّ أبواب المعرفة. العدو يراقب الذهنَ باستمرار، حتى لا يأتي ويتفق مع الله وحتى لا يمنعه من بيع الجسد. لهذه الغاية يوظّف كثرة من الأفكار المشوّشة، مؤكداً لي أني لن أُساءَل عن تفاهات كهذه عند الدينونة، وأنه من المستحيل لأي واحد أن يعرف هذه الأفكار، وأن كل أشباه هذه الأشياء ستُنسى. لكني أتخيّل في عين ذهني كيف سيُكشَف ضلالي وأعرف أنني مهدَّد بالعقاب.

هكذا تحفظني الخطيئة مقيَّداً، هكذا تربطني؛ هكذا تشتريني وتبيعني؛ هكذا تقودني نحو الضلال؛ هكذا تتملّقني وتُخضعني لذاتها لأن الإنسان - كما يقول الرسول - مَبيعٌ تحت الخطية. لأن الخطيئة التي في جسدي تحكم على

ذهني، وبسبب خطئي أنا تستعمل هي جسدي لتُثقل على نفسي.

إنْ تعهّد أحدهم أن يصوم أو يسهر أو يتحمّل الجروح، تستعمل الخطيئةُ الجسدَ كما لو كان ملْكها لتُثقل على النفس بالسلاسل، ومثل غنم مُعدٍّ للذبح تَربطه وتستعمل الجسدَ أيضاً لتقطع أيديها وأقدامها. إني لا أستطيع الفرار، ولا أستطيع مساعدة نفسي أيضاً.

واحسرتاه! أنا جثةٌ وإن كنتُ حيّاً. أنظرُ ولا أبصر، لقد تحوَّلتُ من إنسانٍ إلى كلبٍ، ورغم أن لديّ عقلاً فإني أُعامَل مثل حيوانٍ.

ارحمي ذاتك يا نفس، وسارعي في النهاية إلى الالتحام في المعركةَ ضد الخطيئة قبل أن ترحلي من الجسد، حتى لا نبقى خارج الأبواب مثل العذارى الحمقى؛ لأن الميت لا يمكنه أن يرى الحياة أو يتأمّل البرَّ هناك حيث لا توجد معركة نحو الحياة أو الموت، حيث لا يوجد جسد للعدو ليلعنه عندما يكون مهزوماً به تماماً.

-٧٠-

كم برحمة يقبل الرب التائبين!

إن ينبوعاً من المياه، فيّاضاً على الدوام ومقدّماً بغزارة شراباً لجميع القادمين، يصوّر غزارةَ رأفتك التي لا تنضب يا رب.

بوفرة تُطعم القواتَ السماوية وتمنح الطعام لجميع الذين يتنفسون على الأرض. إن محبتك التي ترغب بخلاصنا تمتد إلينا لكي تجذبنا نحوها وتخلّص الآتين إليها.

يا سيد، أنتَ كلي المعرفة وترى العزم الذي به يتحوّل الإنسان عن الخطيئة. وقبل أن يأتي إلى الباب تفتحه له. قبل أن يخرَّ عند قدميك تمدّ يدك إليه. قبل أن يذرف الدموع تمنحه رأفتك. قبل أن يعترف بديونه تمنحه المغفرة.

أنتَ لا تتّهمه أو تقول: لماذا بذَّرت ممتلكاتك؟ أنتَ لا تتذكّر كيف أغضبك بفسقه؛ أنتَ لا توبّخه لازدرائه أعمالك الصالحة. لكن إذ تسبق فترى تواضعه ونواحه وموقفه الصادق، تعلن: أخرجوا أفضل رداء وألبسوه إياه؛ اذبحوا العجل المسمَّن لنتسلّى ونفرح. لتجتمع الملائكة وتبتهج بالابن الذي كان ضائعاً ووُجد، بعودة الوريث الخليع.

كما يخرج الناس لمقابلة تاجر عندما يأتي إلى البيت بثروات عظيمة، هكذا لتستقبلْ نعمتُك خاطئاً يعود إليك من كل نفسه. لأن نعمتك تحب أن ترى دموعاً، تشتاق إلى رؤية توبة، تبتهج بغيرة الذين يجاهدون للتوبة.

فالمجد لك يا طويل الأناة ورؤوفَ القلب، أيها السيد والمحب البشرَ.

-٧١-

إرادة غير ثابتة وغير حاسمة

مخيفٌ ومرعبٌ هو يوم دينونتك يا مخلِّصنا، عندما ستنكشف الخطايا الخفية. لهذا أرتعب أنا يا رب وينتابني ذعرٌ، لأن خطاياي قد فاقت كل الحدود. ارحمني بحسب رأفتك أيها الصالح والرؤوف القلب.

أنا أنظر يا رب إلى خطاياي فأهتاج، إذ أرىٰ كثرتها. واحسرتاه، كيف اتفق أن أصابني بؤس كهذا؟ لساني ينطق بأشياء رائعة، لكن سلوكي مخزي وخسيس. الويل لي في ذلك اليوم عندما ستنكشف الأسرار.

آخرون يجدون كلماتي جميلة بصورة فائقة، لكن أعمالي كريهة. أعلِّمُ آخرين في العالم كيف ينظمون حياتهم؛ لكني، أنا المنكوب، أنغمس في الأهواء.

كلٰ أيامي انقضت وتبدّدت في الخطيئة. لم أخدم الحقيقة حتى ولو ليوم واحد. حالما بدأتُ بالتوبة مصمِّماً ألا أخطأ مرة أخرى، كان الشرير يأتي دائماً ويقتنصني بكراهيته. الويل لي، لأني أقع في شرْكه طوعاً.

إذا خرجتُ لأتمشّى أسيرُ خارجاً مثلَ إنسان بارٍّ، مثل

حكيم. إذا رأيت آخرَ يُخطأ، أهزأُ وأسخر منه. واحسرتاه، ستنكشف تعدّياتي على نحو مماثل وسأُخزى!

آه، كان من الأفضل لي ألا أكون قد ولدت في هذا العالمً! عندئذ لما كانت هذه الحياة العابرة قد أفسدتني. لو لم أرها، لما كان لديّ ذنبٌ، ولما كنتُ قد لوَّثت نفسي بالخطايا ولما خشيت الاستجواب والدينونة والعذاب.

حالما أنذر التوبة أعود ثانية فأسقط في الخطايا نفسها. إن الزمان الذي أُنفقه في الخطية يسرّني، حتى إني أظنُّ بأني أفعل شيئاً ما يستحق المدح. الويل لي! حتى الآن لم أبالِ بكون الجحيم تنتظرني.

إن شرّاً يقودني إلى الخطيئة، وعندما أُخطأُ أضع اللوم على الشيطانْ. لكن الويل لي، لأني أنا نفسي أُسبّب خطاياي. فالشرير لا يستعمل القوة ليجعلني أُخطأ؛ أنا أُخطأ بحسب مشيئتي أنا.

كن رؤوفاً بي يا رؤوف القلب بالتائبين! اغفر لي تعدياتي بحسب كثرة صلاحك.

اقبل يا رب الدموعَ التي أقدّمها إليك، وطهّرني من الخطية كما طهّرت الزانية. إني أدرك يا رب أنني قد خطئتُ. اصفح عني بحسب رأفتك.

-٧٢-

اقترب من الطبيب بدموعٍ فيشفيك

هلمّوا، لنجد الرأفة طالما نجدُ بعدُ في إثرها. فمكان التوبة هو في هذه الحياة العابرة؛ فلا الصلاة ولا الدموع ستُقبَل في الحياة الأبدية.

بالدموع التي ذرفتها أتلفَتْ الزانية سجلَّ خطاياها. هكذا أيها الخاطئ أحضرْ دموعاً وتأوّهات كقربان واصرخْ إلى الرب، وفي الحال سَيغفر لك ديونك.

كقربان للرب يسوع أحضرْ دموعاً أيها التائب، والطم صدرك مثلَ العشّار الذي تنهّد وصلّى قائلاً: ارحمني يا رب أنا الخاطئ الذي أغضبتك.

ها إن الباب مفتوح ويتوقّع عودتك أيها الخاطئ. ارجع إلى ربّك واترك طرقك غير اللائقة وراءً. انهضْ وطأ الطريقَ التي تقود إلى الملكوت.

لديك جرح مفتوحٌ، قرحةُ خطيئة. إذا توانيت في الطريق، فستُهلكك تماماً. طبيبك خبيرٌ. أظهِرْ لهِ قرحك، اندب بدموعٍ عند بابه، أثرْ رأفته كي يشفيك.

أيها الصالح، يا مَنَ سلَّمتَ ذاتك للصلب والموت لكي تفدينا، خلِّص نفسَ عبدك من كثرة خطاياه، حتى يرفع صوته ليشكرك وأباك وروحك القدوس.

-٧٣-

أنا خسيس جداً، لكن بحسب رحمتك هَبْ لي أن أتوب، وخلّصني من الدينونة

إليك أصرخ يا رب؛ لا تنبذ توسّلي الذي يُرثى له. إليك أمدّ يديَّ الملَّوثَتين. لا تنبذني أنا التائب، بل انظر إليّ بمحبتك للبشر واقبلني بحنوك المتّقد.

لقد لوَّثت ذاتي بشهوانية الخطية، وأخزيت جمال نفسي، وعبَّدتُ ذاتي للشهوات الجسدية، وأفنيت السلطان السابق بالانتباه إلى العدو المشهِّر بي، وأظلمت بهاء طبيعتي؛ ورغم كوني قد كُرِّمت بأن أُحصَى كابنٍ لله فقد جعلتُ ذاتي على شبه الوحوش غير العاقلة(*).

الذعر والخوف والرعدة تستولي عليّ عندما أتخيّل حصاد الموت الذي يقترب منا كلنا بصورة غير مدركة؛ ومع ذلك أبقى فاسداً.

ارحمني يا محب البشر! فيك وحدك أضع كل رجائي. هبْ لي أن أتوبْ وأُصلَح وأُثمِرَ ثمارَ التوبة، حتى، عندما

(*) افرام ابو مدرسة التواضع - هذا هو الدين لا منافخيّات العلم الزائف.

تأتي النهاية، لا أُقطَع مثل شجرة غير مثمرة، أو أُلقى في النار مثل الأعشاب، بل أن أُجمع كالقمح إلى مخزنك.

إني أحني ركبتيّ وقلبي ولا أجرؤ على التطلّع نحو السماء. اقبل تضرّع شفتيّ المدنستين، يا خالقي الوحيد البريء من الخطية! أنت يا ملك الكل، يا مَن بطحت بليعال المتمرّد، خلّصني من كل أنواع الإثم. عندما تعاين الملائكةُ والمخلوقاتُ المائتة تحوُّلي ستحتفل بمحبتك.

لقد ازدريتُ وصاياك المانحة الحياة، وقد أغوتني الأعمال الشائنة؛ لكن أيها السيد الصالح لا تأنف من تخليصي من عبودية الشرير.

لقد جعلتُ ذاتي بالكلية عبداً لخطايا الشهوانية؛ لقد لوّثتُ الجسدَ والنفسَ. يومياً أنا أبكي: لقد خطئتُ، ومع ذلك لا أكفُّ عن الانشغال بأعمالٍ رذيلة. والآن أقف أمامك كواحد مدين.

امنحني أيها الصالح مغفرة أعمالي الشريرة، لأنك إله رؤوف القلب ومحب للإنسان.

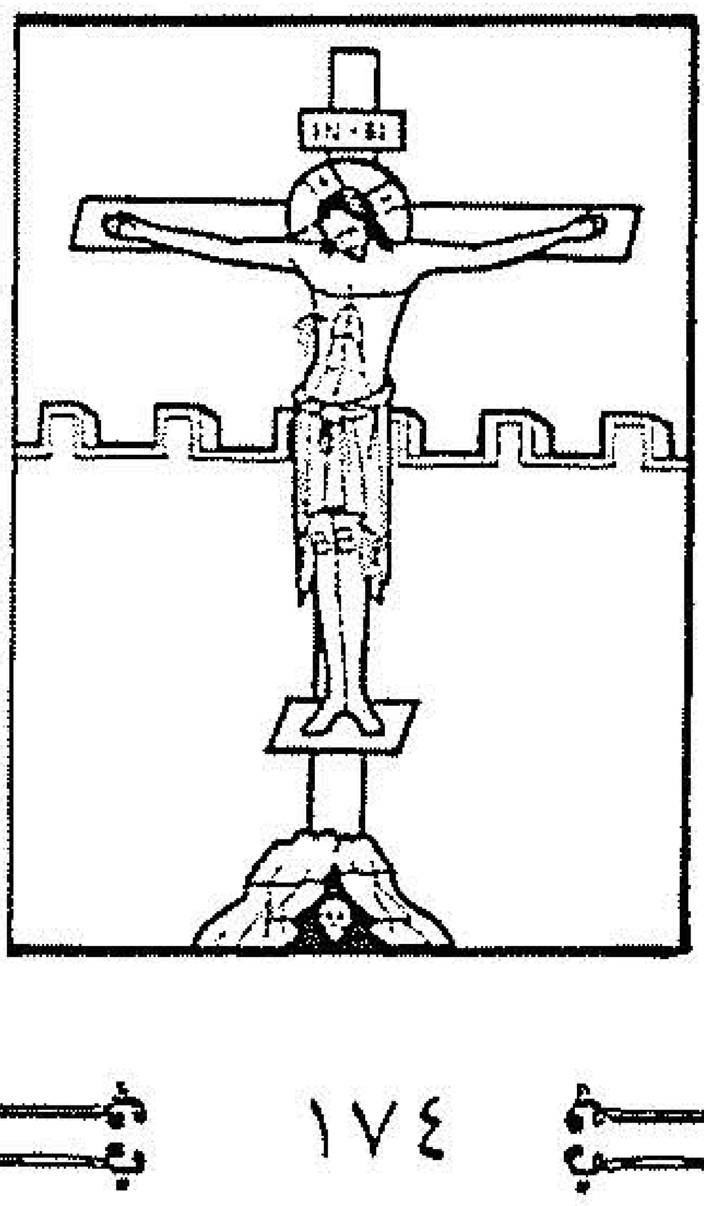

-٧٤-

اغسل خطاياي بدموعي وامنحني قوة، لكي يُخزى العدو

مَن يشفي نفسي إن لم يكن أنت، أيها المسيح، طبيب النفوس الوحيد! أين أجد شفاءً لأمراض نفسي إن لم يكن معك يا ينبوع الشفاء! أنت يا مَن شفيتَ المرأة العليلة، اشفِ أيضاً نفسي من هلاك الخطيئة.

لتنزلْ رأفتك عليّ وتساعدني لأغلب عدويّ. قوّني أنا الواهن، بقوة ذراعك، وسيُخزى الشرير عندما يراني مستعداً للمعركة. أحيني فيُذَلُّ الشرير. سيرجع بالخزي وأمجِّدُ أنا اسمك.

اقبلْ دموع تعاستي وامسحْ سجلَّ ديوني فيُخزى العدو مرة أخرى، وهو يرى أن الرأفة المُحِبة قد أهلكت ثمر أعماله الشريرة وأني لن أُعاقَب.

فلْتَهبَّ رأفتك لمساعدتي، كي أعبر بسلام عبر عالم التجاربَ، وكي أكون بعد ذلك بقربك ومعك دائماً.

نفسي الخاطئة ستمجّدك وتمجّد أباك والروح القدس، لأنها بكت فُسمعَتْ، وغُسلَتْ بدموع التوبة، فجُعلتْ هيكلاً مسكوناً بالألوهية التي خَلقت العالم.

-٧٥-

شكوى ضد العالم وصلاة لمغادرته

لا توجد منافع تقدمها للذين يحبونك أيها العالم، يا مسكن الأحزان. كل الذين يقتربون منك تغريهم بثرواتك وبكل مباهجك، لكن في يوم الموت سيُلقى في القبر بملامح الجميلين المليحة وبقوة الأقوياء على حد سواء. الويل للذي يحبك وللمحبوب من قِبلك، لأن فرحه سيتحوّل إلى صرخات.

في العالم - ذلك اليمّ من الخطيئة - تلاشت كل أيامي باطلاً. انقضت حياتي بدون أن تفيدني شيئاً، حتى إني قد نسيتُ يومَ الموت. لقد طفتُ وجمعت حِملاً من الخطايا، حزماً كاملة من الأعلاف التي ستلتهمَها النار. وها إن النَواح والتنهدات تنتظرني في تلك الأرض المليئة بالمرعبات.

لأني أحببتك أيها العالم الماكر منذ شبابي حتى عمري المتقدم، فإن زمان حياتي قد انقضى بدون انتباه؛ واعجباه! بالخطية سيسرقني الموتُ. آه، لو أني لم أطأكَ بقدمي قط، أيها العالم الذي يخدع جَميع الذين يدخلونه! إن الذين

يحبونك لا ينعمون بأية ملذات، والذين يكرهونك لا يبكون. طوبى للذي مزّق شراكك إرباً إرباً: إنه سيرث مسكن الفرح.

هذا العالم يخدع بمظهره حتى الحكماء، لأنه يظهر أحياناً جذَّاباً. حتى إنه يقدّم منافع وكنوزاً للاقتراض، لكنه سيستردّها في يوم الموت ويعطي بدلاً منها عذاباً أفحش من خطايانا بما لا يُقارن. سيدعنا نخطأ لفترة يسيرة، لكنه كمجازاة سيعطينا ظلاما أبدياً.

عادلٌ أنت يا رب، وعادلة دينونتك التي تدين العالم والذين يحبونه! لهذا أصلّي إليك كيمَا، يمناك التي سحبت سمعان من البحر، تسحبني أنا أيضاً من أمواج واضطراب هذا العالم الذي يثور ضدي. لقد صرتُ غائصاً في الوحل؛ أمواج العالم تُغرقني، ولا تُطلقني لألتقط نَفَسي. ليكن صليبك أيها الرب عصاي وسندي على الطريق الذي أمشي فيه.

-٧٦-

دَحضٌ لتغريب الذات عن منافع العالم الزائلة

كم جميل هو العالم، لكنه مليء بالموت! إنه مثل زهرة تتفتّح في الربيع. تزدهر عندما يسند الندىُ والمطر حياتها؛ عندما يحلُّ الطقس الحار تذبل الزهرة. هكذا يسبِّب الموتُ ذبول الخدّين، وفي القبر يُفني أعضاءَ الجسد التي رُتِّبت بصورة جميلة.. هَبْنا يا رب ملجأ وحماية في الأرض حيث يسكن الأبرار.

إن العالم يخدع ذريّته. إنهم يخطأون، ويصيرون متوترين، وينتفضون بهمومهم. كم الذين منهم يدورون، ولا يعطون سلاماً لأنفسهم؛ ومع ذلك، لا يجمعون سوى شوك للنار! الخداع يفتح فمه بعجرفة، لكن الإخلاص يبقى صامتاً ولا يتكلم. الإثم يعطي خُطباً فصيحة، لكن الحقيقة تخفي ذاتها. الموت وحده سيُصمت جميع الذين وطئوا الأرضَ. طوبى للذي أتمَّ طريقه في العالم بلا عيب.

إن العالم عاصفٌ أكثر من الأمواج العارمة، والخطية تثيره أكثر مما تُثير الريحُ البحرَ. توجد أوقات تكون فيها مياه البحر هادئة، عندما تختفي الرياح في أماكنها الخفية؛

لكن في العالم أمواج الشهوة مُثارة بدون توقف، وريح الخداع تهبّ ضد أبواب مراكب العالم. ومع ذلك، فاليوم الذي فيه ستخمد هو على الأبواب.. طوبى للذي أكمل طريقه في العالم بدون السقوط في شراكه.

الإثم المرتكَب في العالم يُقلق ويُزعج؛ الشهوة الملتهبة تتّخذ ضراوة أعظم بكثير من ضراوة الأمواج. إن شراك العالم وفخاخه تُشرك الذين يخدمونه. إن حمولتها الشريرة هي خطايا وآثام. لكن بالنسبة للأبرار سيأتي الوقت عندما سيستقر مركبهم في الميناء.

أوقاتك وسنوك مسرَّة أيها العالم، لكنها كالدخان. إنك مثل حلمٍ متلاشٍ، أيامك مثل ظلال. أمسيتك تمضي بسرعة وصباحك لا يتريّث. ساعاتك تطير، وتسارع نحو النهاية. أسرعْ أيها الخاطئ إلى استقبال المغفرة طالما نور النهار ما يزال يشعُّ فيك.

عادلٌ هو القاضي وعادلة هي دينونة الحق: عندئذ ستوزَن أعمال كل إنسان ويُجازى بحسب فضائله. في ذلك اليوم، سيتعذّب بالندم الذين فعلوا الإثم، والذين تعبوا في الفضيلة سيشتركون في الفرح في تلك الأرض.. يا رب هَبْ أن أتحرّر أنا المُلْهَم برحمتك من شراك العالم حتى أدخل بأمان ميناء الحياة.

-٧٧-

دروس الحياة

إن يوسف الذي خضل نفسه بتذكّر العلي، لم يشتعل بنار الإثم، وإذ قهر التجربة صار ملك مصر.

لنسرْ في طريق الحزن المستقيم، حتى نصير مستحقين ونحظىَ بالله حامياً لنا.

فاللؤلؤ يُحفَظ دائماً في أعمق الأقبية، أما الأحجار التافهة فتُطرح في الطريق كالنفاية.

نظّف ذاتك بالتوبة من الأعمال الشائنة، فلن يُخيفك توبيخ المفتري.

بمساعدة النار الإلهية يجب أن نعاكس نار الأهواء(*).
ما لم يشتعل الآجرُّ يكون طريًا وهشاً، أما عندما يُعرَّض للنار فيصير حاجزاً ضد النار والماء.

جاهد كي لا تكون عبداً لمشيئتك الذاتية، بل أطعْ الذين يخافون الرب، وبمساعدة رحمة الله، ستحطِّم رأس الأفعى.

تحمَّل الألم بالرب حتى يكتنفك الفرح. اتعبْ حتى تنال مجازاة وافرة.

(*) السلميّ قال: نطرد عشقًا بعشق.

لا تستصغرْ ولا تَدنْ الذين يسقطون في التجربة؛ بالحري صلِّ مرات أكثر فأكثر حتى لا تسقط أنت ذاتك في التجربة.

الإنسان الذي قلبه مكفهرٌّ بعاصفة الأفكار والمغلوب بالأهواء لا يعرف الخجل أمام الناس، ولا يخاف الله.

صلِّ بالحريْ بقلب متَّضع، ولا تجعل ذاتك مغارة لصوص بالانغماس في أفكارٍ وشهوات دنسة، حتى لا تكون مخزىً في يوم الدينونة عندما ستُكشف أسرار الناس.

المتواني في وقت الحصاد لن يجد وفرةً لبيته. والمُهمِل الآن سيجدُ ذاته بدون عزاء الأبرار في يوم الحساب.

-٧٨-

اشفِني يا رب، وبالتالي أخزِ العدو

يا رب، أظهرْ لي رأفتك العظيمة وأعطني راحة من اضطهادات المُهلكَ، لأنه غطّاني بالقروح ويقف ويهزأ مني.

كما طوّعتَ البحرَ بكلمة من شفتيك عندما أيقظك تلاميذك، هكذا أيضاً أصغِ إلى تأوهاتي وصرخاتي وطوِّعْ أمواجَ الأهواء التي تتحرك فيَّ، التي هيّجها في نفسي عدو خلاصي.

كما شفيتَ المرأة النازفة الدم بمجرد لمس هدب ثوبك فتوقّفَ فيضان دمها على الفور، هكذا أيضاً نفسي، التي منها يسحب العدو بلا توقف أمواجَ أفكار خاطئة، فلتُشفَ بلمسها إياك مرة واحدة بالإيمان، يا طبيب النفوس والأجساد.

أظهرْ قوة الإيمان الشافية فيك، يا شافي كل الأمراض، بشفاء أعضائي التي غطّاها العدو بالقروح. اجعل قروحي غير مؤلمة فيما بعد، وبدلاً منها غطّني بالفضائل، حتى يُخزى العدو الذي ابتهج بهلاكي.

أيها الحمل البريء من العيب، المذبوح من أجل خلاص العالم، يا خالق السماء والأرض، إن عبدك، الذي خلّصتَ وأعطيته حافزاً ليبتهج، سيسبّح نعمتك دائماً.

-٧٩-

نُحْ على تأمل القدر المرير الذي ينتظر الخطاة

عندما رأيت، يا ربنا، أنني قد أضعتُ مجدك، لم تسمح محبتك أن يكون الأمر هكذا. أنت، يا مَن تنازلت في ميلادك، قد خلّصتني من الشيطان بآلامك وموتك على الصليب.

لكن ها إني قد خطئتُ مرة أخرى وأغضبتك وأهنت اسمك بالخطايا، والتعدّيات والجرائم التي ارتكبتُ. الويل لي، لأني كنتُ جاحداً وقد لوّثت ذاتي بكثرةٍ من الأعمال الشريرة.

لقد بكيتُ وذرفتُ دموعاً مريرة وأنا أتأمّل في هذه الحقيقة. إن تأملّي قد نقلني إلى النار وقادني إلى أرض الرعب، وحملني إلى هاوية مخيفة ورهيبة، وطرحني في اللهيب ودفعني إلى الظلام. قلبي شعر بكل هذا، وأنا قد تأوَّهتُ من الخوف والرعدة فيما أنا أتأمّل هذه الرحلة.

تفحّصتُ مساكن الظلام وأنا مسوقٌ بهذه الأفكار. عندئذ، باكياً متشنّجاً، متألّماً وحزيناً، دنتُ نفسي وهتفت بمرارة: الويل لي، الويل جداً. ماذا أعدَّتْ العدالةُ لي؟

برعب أستيقظ كما من حلم، لكن حتى في المشي ما تخلّصتُ مّن عذاب القلب. لقد اُستأجرت ردائي، بكيت وانتحبت: ماذا فعلتُ لذاتي البائسة؟ سأحسر عن رأسي مثل زانية وأعترف بخطاياي؛ بتنهّدات سأصلّي؛ سأحوِّل عينيّ إلى ينابيع دموعٍ، حتى أنتحب على ذاتي المنكودة الحظ.

سأذهب إلى العشّارين الذين يشبهونني، سأذهب إلى الخاطئين الذين تابوا. سأوقظ قلبي النائم الذي شاخ في كثرة الخطايا. سأدمج ذاتي مع العشّارين والخطاة وأجعل ذاتي على غرارهم. مثلهم سأتشنَّج على الخطايا التي ارتكبتُ، حتى لا تنزل دينونة الله بي وحتى لا أتعذّب في هاوية جهنم.

تعطَّف عليّ يا رب بأن أُحبَّ محبتك التي تعزِّي القديسين والأبرار، الذين لا يحبون سواك أنت يا الله، السمح مع الخطاة، الذي يحب الخاطئ الذي ندَّى وجهه بدموع وانتحب بمرارة على تعدِّياته. تعطّف عليّ يا رب بالرقادً المبارك الذي أعددته لجميع القديسين.

-٨٠-

ضعفُنا وتقلّبنا بالمقابلة بثبات القديسين

كن رحيماً علينا أيها الصالح، نحن الذين اخترنا الشرّ بحرية، علّة كل بؤس. أفكار اختيارنا هي أحزان سرّية، وأعمال هذه هي أحزان علنية. اختيارٌ كهذا قد سبّب أول تعدٍّ للناموس، وكل خطية هي نتاج ذلك. طهِّر أيها الطاهر حريتنا لأنها الآن نبع مياه عكرة.

إني أتعجّب من مشيئتنا الحرة: إنها قوية، ومع ذلك غُلِبَتْ. إنها سيدة، ومع ذلك صارت أمَة. إن لها فرصة الغَلَبة، ومع ذلك تفضّل بالحري الاستسلامَ والهزيمة. ومع أنها حرّة، فإنها تسلّم ذاتها للعبودية، مثل أمَة مقيَّدة توقِّع بيدها الاتفاق الذي يربطها.

مغبوط هو تذكر الأبرار الذين وقفوا بثبات. لم ينموا وينمحقوا مثل القمر، لكنهم كانوا كالشمس التي نورها هو دائماً على حاله. لم تكن روحهم مثل جداول يسقيها المطر، والتي تفيض أحياناً، لكنها تجفّ فجأة.

أمواجٌ من التجارب من كل نوع قد توجّهت نحو الأبرار، لكنهم لم يضعفوا. لم يجعلهم المجد متكبرين،

ولا دفعهم سوءُ المعاملة إلى الاكتئاب. كانوا دائماً على حال واحدة؛ لم يتداعَ قط أريجُ فضائلهم.

مباركٌ الصالح الذي سكب من أقبيته أريج أعمالهم.
مباركٌ القاضي العادل، الذي مجَّد مآثرهم بالأكاليل.

-٨١-

التضرع المتواني يُسمع

إذا رافقه وعدٌ بالإرادة الصالحة

واحسرتاه، إني عثرة للذين يحترمونني الآن؛ فلا أُخزى أمامهم عندما تُكشف خطاياي الخفية. إني عثرة للذين حملوني؛ فلا يدينونني فيما بعد، أنا الذي نذرت ألا أعيش حياةً دنيوية.

أريد أن أصير كالأرملة التي أقلقت القاضي باستمرار، ونالت منالها. أمامك، يا سيدي الكلي الصلاح، أريد أن أكون مثل صديقك الحميم، حتى تستردَّ نفسي المسبية بالخطايا: لقد طلب خبزاً ليخفّف جوعه، وأنا أسأل تعزية روحية. لقد طلب طعاماً للجسد، وأنا أسألك أن تستدعي نفسي.

لأنك كلي الصلاح استمعِ إلى صوت نواحي الدامع وحوِّلني، لأُثمِر ثمرَ التوبة. ندِّ ضميري المحترق؛ جدِّدني أنا الذي شختُ في الأهواء الخاطئة، حتى وقد تحرّرت من عبوديتها أتنفس بسرور هواء الحرية وأمجِّد صلاحك بفرح وسرور.

أنت تعرف، يا سيد، أني اجرؤ هكذا على مخاطبتك، لأن نفسي مستعدةٌ للتعب ولو قليلاً. لأني، أنا الخاطئ،

أعرف أنك رؤوف، يا رب، وأنك تريدني أن أغيِّر طرقي، وأنك ترغب أيضا بثمر المشيئة الصالحة. إنك جاهز لترحمني، لكنك تنتظر ميلاً صالحاً فيّ، لأنه في رحمتك ستعلّمني الصلاح، وفي مغفرتك تودّ أن تجعلني مستحقاً للاشتراك في ملكوتك.

-٨٢-

من أجل نومٍ غيرِ مضطربٍ

هَبْ لي يا رب في اليقظة أن أقِف بنقاوة أمامك يا فاديَّ، وفي الهجوع أن أشترك بالنوم بدون خطية.

إذا ارتكبتُ في اليقظة تعديات، فلأُطهَّر بنعمتك يا رب. وإذا خطئتُ وأنا نائم، فليكن حنوّك تطهيراً لي.

بصليب تواضعك اجعل نومي بدون اضطراب، احفظني من أحلام النوم الآثمة ومن استدعاءات التخيُّل الآثمة. هَبْ أن أمضِيَ الليل كله في نوم مطمئن وأن لا تتملّكني الأفكار الشريرة والضارّة.

بجسدك الخالق الحياة الذي اشتركتُ به احفظني من الشهوة النجسة، حتى أرقد وأنام بسلامٍ. ليحمني دمك. هَبْ نفسي، التي هي صورتك، الحريةَ اللائقة بصورتك. لتَصنْ ذراعك اليمنى جسدي الذي خُلِق بيديك.

طوِّقني بجدار رأفاتك مثل درعٍ واق. وعندما يستريح جسدي وينام، ليكنْ صلاحك حارساً ليً، حتى لا يقترب الشيطان من سريري. بحماية الأم التي ولدتك، وبالذبيحة

التي قـدّمتَ من أجل جـميع الناس، أتضرّع إليك: أقصِ الشيطان حتى لا يقلقني.

تمّمْ يا رب وعـدك فيّ واحـفظ حـيـاتي بصليبك. سأسبّحك عندما أستيقظ لأنك أظهرتَ محبتك لي أنا البائس. فليسبِّحك معاً الذين ينامون، المستريحون بسلامٍ، والذين يسكنون في اليقظة، المحميون بدرعك، أيها الحامي الذي يحيا سرمداً، والذي أيقظتني لأسبِّح مجدك.

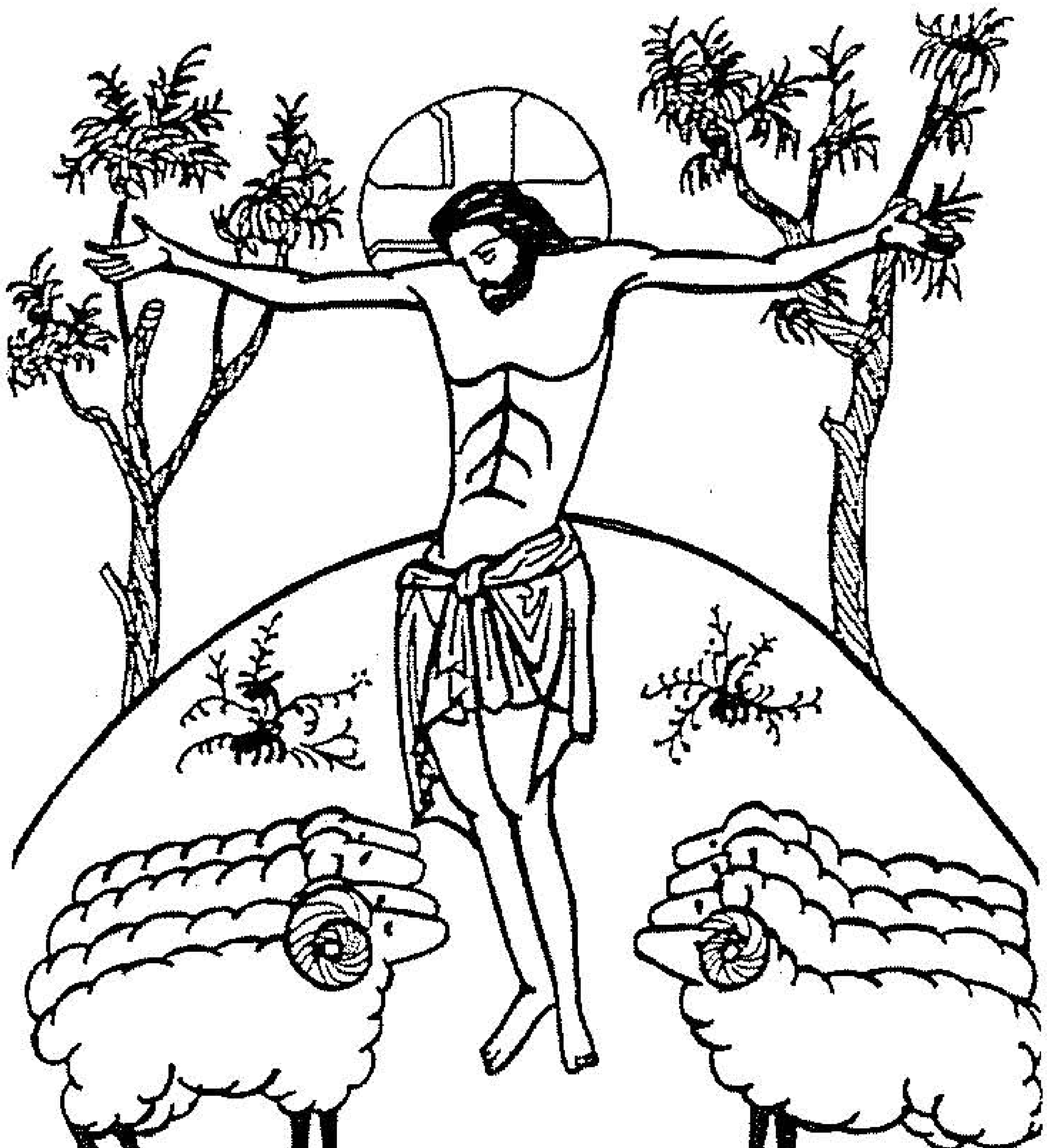

-٨٣-

اطلب المغفرة بدموعٍ،
لكن أولاً اغفر أنت نفسك للآخرين

شفتاك يا ربنا قد نطقتا بهذه الوعود: ادعني فأستمع إليك؛ اقرع بابي، فأفتحه.

مثل الزانية أصرخ إليك: بحسب رأفة حنوّك الغزيرة، اغفر لنا ديوننا وخطايانا.

مثل العشّار أتضرّع إليك. ومثل الابن الخليع الذي بدّدَ ميراثه نصرخ إليك، تائبين في نفسنا: خطئنا إلى السماء وأمامك يا رب.

اقبلنا، كما وعدتَ، حتى يبتهج بنا الملائكة الحارسون ورؤساء الملائكة. أنت يا مَن قبلتَ توبة سمعان، اقبلْ أيضاً توبة عبيدك وارحمنا.

هلمَّ أيها الخاطئ الذي خطئ أمام الرب، تعال إليه تائباً في نفسك، وهو سيغفر لك ديونك وخطاياك.

اذرفْ دموعاً عند باب الطبيب، تنهّد وتضرّع إليه، أظهرْ له القروح الجربة على نفسك.

احفظ لسانك من كل نوع من الشر، ولا تلفظ شفتاك اللتان خُلقتا للتسبيح أية كلمات تجديف.

اغفر لأخيك إذا خطئ إليك فيغفر لك المسيحُ كما وعد، بحسب رأفته.

ارحمنا يا ربنا، واغفر لنا ديوننا وخطايانا وتعطّف علينا بمسكنك المشرق.

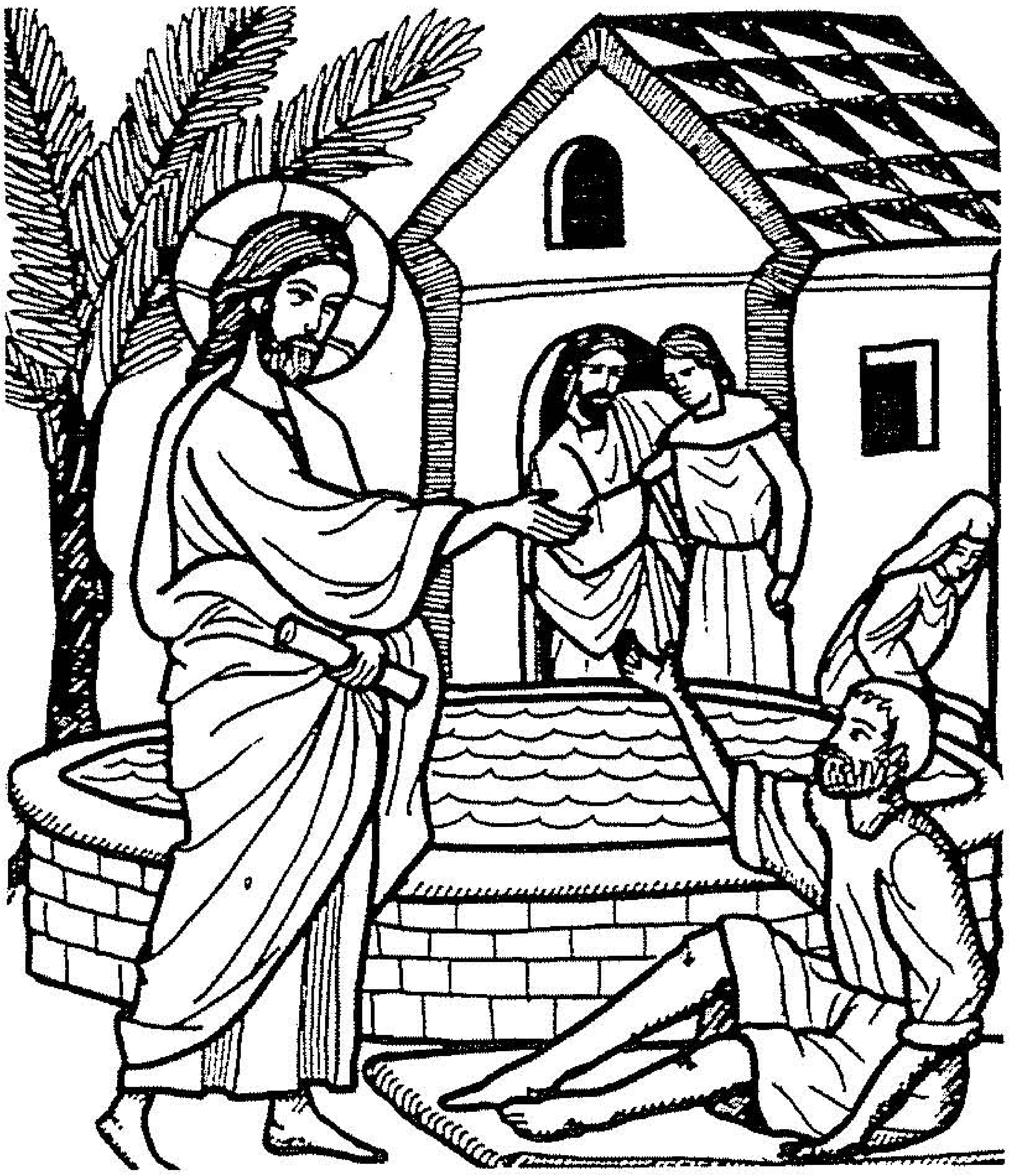

-٨٤-

ارحمني، قبل أن تباغتني ساعة الموت؛

قبل أن يتمّم دولاب الزمان دورانه معي: ارحمني.

قبل أن تضربني رياح الموت وتبرز العلل في جسدي مُنبئة بالنهاية الوشيكة: ارحمني.

قبل أن تعتم الشمس الرائعة في الأعالي أمام عينيَّ: ارحمني، وليشعّ نورك عليّ من الأعالي ويبدّد ظلام ذهني المخيف.

قبل أن يعود هذا التراب إلى الأرض وينحلّ وتبلى كل ملامحه الجميلة: ارحمني.

قبل أن تباغتني خطاياي عند الدينونة وتخزيني أمام القاضي: ارحمني يا رب، يا مَن أنت مليء بالرأفة.

قبل أن تتقدم الطليعة التي تسبق ابن الملك السماوي، لتجمع نسلنا البائس أمام عرش القاضي: ارحمني.

قبل أن يدوّي صوت الأبواق مُنذراً بمجيئك، يا يسوع ربنا: اصفح عن عبيدك الذين يتضرّعون إليك وارحمهم.

قبل أن تغلق بابك دوني، يا ابن الله، وأصير أنا طعاماً لنار جهنم التي لا تُطفأ: ارحمني.

-٨٥-

تطويبات

طوبى للذي يتأمل الجموع التي تستقر في قبورها والذي رفض كل شهوة نتنة، لأنه سيقوم بمجد عندما يُنفخ في البوق السماوي ليُنهض كل أبناء البشر.

طوبى للذي لا يضع رجاءه في إنسان بل في الرب، الآتي ثانية بمجد عظيم ليُصدر حكماً عادلاً على الكون، لأنه سيكون مثل شجرة تنمو على ضفاف المياه، وسيُثمر بدون انقطاع.

طوبى للذي صار ذهنه بالنعمة مثل سحاب مليء بالمطر يسقي نفوس المائتين حتى يجنوا ثمار الحياة، لأن النعمة ستعطيه ثناء أبدياً.

طوبى للذي يمارس الإمساك دائماً كما يشاء الله، لأن الله ذاته في يوم الدينونة سيدافع عنه. سيرث الخدر الزفافي وسيقابل العريس بفرح وسرور.

طوبى للذي كره كلَ طرق الناس الدنيوية وتركها وراءه، الذي كل فكر له هو عن الله الواحد.

طوبى للذي كره الخطيئة الخبيثة ونفر منها، والذي أحب بدلاً منها اللهَ الصالح والمحب للإنسان.

طوبى للذي صار على الأرض مثل ملاك سماوي ويحاكي السيرافيم، الذي أفكاره هي بلا عيب أبداً.

طوبى للذي صار بدون عيب أمام الله وتطهّر من كل دنس: دنس الأفكار والأعمال الشريرة.

-٨٦-

اعترافٌ بالفداء وصلاة من أجل الكنيسة

لتكن رأفتك مسبَّحة أيها المسيح ملكنا، يا ابن الله المسجود له من الكل! أنت ملكنا، أنت إلهنا، أنت صانع حياتنا ورجاؤنا العظيم.

بنفس واحدة تسبّحك كل القوات السماوية والمحافل أسفل، وترتل لك ترتيلة شكر، لأنك يا مَن احتجبت قد ظهرت في الأيام الأخيرة في جسدنا نحن المائتين.

عندما أُثيرت رأفتك وعندما ارتضت محبتك لفعل هذا، أتيتَ من أجل فدائنا وتحرير نسلنا.

لقد شفيت نوائبنا، وطهّرت خطايانا، وبحسب رأفتك أنهضتَ الذين كانوا موتى.

لقد أسّستَ على الأرض الكنيسةَ المقدسة على صورة الملكوت السماوي: لقد بنيتها بالمحبة، أسّستها بالرأفة، وخطبتَ ذاتك روحياً لها، وربحتها بآلامك.

لكن كاره البشرية، في وقاحته المخزية، يهاجمها في شخص خدَمها.

يا رب، لا تترك كنيستك المقدسة بدون عنايتك، حتى

لا يظهر كاذباً الوعدُ الذي نطقتَ به بأنها لن تُغلب.

لا تترك جمالها الجليل يشوَّه أو ثروتها تُسرَق.

تممْ وعدك الذي قطعتَ لبطرس؛ اختم كلماتك بالأعمال.

قوِّ بوّاباتَها، شدّد حواجزها، علِّ مجدَها، ارفع رأسها.

بارك أبناءها؛ احفظ أولادها، أعطِ السلام لكهنتها واهزم الذين يتمنون الشرّ لها.

ليسكنْ سلامك فيها وليقصِ منها كل الانقسامات الشريرة.

هَبْ أن نعيش حياة بهدوء وسلام في خوفك.

ليُحفظ إيماننا بثقة عظيمة ومحبة تامة.

لتكن حياتنا مرضية لك، ولنجدْ رأفةً فيك في يوم الحساب.

لنقدِّم بدون توقف السبح لك، يا رب، ولأبيك ولروحك القدوس.

-٨٧-

كن رحيماً علينا وعلى الذين ابتعدوا عنك

يا مَن أنت رؤوم القلب على الخطاة، كن رحيماً أيضاً علينا في يوم الدينونة. اغفر لنا ديوننا بحسب حنوّك وفي يوم مجيئك تعطّف علينا بمسكنك.

عندما ترتجف الجموع التي ستُدان أمام دينونتك العادلة وتقف عارية وفي خوف: ارحمني عندئذ، يا أيها القاضي، لأني سبَّحتُ مجدك.

عندما تُصمت شفاه الحكماء وعندما يلوح صولجانك القوي المخيف بشؤم أمام الكل، عندئذ لتُفتَح شفتاي، لأني اعترفتُ بك.

عندما لا يستطيع صديق ولا قريب أن يخلّص إنساناً، ويُحضَر كل إنسان عارياً إلى الحساب عن نفسه: عندئذ كن يا رب شفيعي، لأني وضعتُ رجائي فيك.

عندما يدوّي صوت البوق، ترتجف الأمم، وينال كل إنسان حساباً بحسب أعماله: عندئذ كن معيني يا رب، لأني إليك أهرع.

اقبل خدمتنا يا رب، يا رجاء الذين في الأعالي والذين أسفل وارحمنا.

كن رحيماً علينا يا رب، كن رحيماً على أهالينا؛ كن رحيماً على معلّمينا، كن رحيماً على أخوتنا.

ارحمنا يا رب، أرِحْ أقاربنا الذين رقدوا وجميع الذين ماتوا واعترفوا بك، وآمنوا بك وتذوّقوا جسدك وشربوا دمك الصانع الحياة.

تعطّف علينا سوية مع خرافك بأن ندخل إلى مرعاك، وأن نقدم لك سوية مع قديسيك السبح بحسب عظمتك إلى دهر الدهور.

-٨٨-

لوالدة الإله:

صلاة من أجل السلامة الروحية الداخلية

يا أم الله الكلي الصلاح الصالحة: انظري إلى صلاة عبدك غير المستحق بعينك الرحيمة وامنحيني الانسحاق، وهدوء الأفكار، وثبات الذهن، وعقلاً عفيفاً، ويقظة النفس، وتفكيراً متواضعاً، وبهاء الروح، وميلاً حكيماً، وسلاماً روحياً الذي أعطاه الرب لتلاميذه.

امحي سجلَّ سقطاتي في الخطية، بدّدي غيوم حزني وسديم أفكاري واضطرابها. أزيلي مني عاصفة الأهواء وثورتها؛ ضخّمي قلبي باتساعِ روحي، اعطني فرحاً وسعادة وامنحيني أن أسير في الطريق الصحيح لوصايا ابنك وأن أعبر هذه الحياة على نحو موافق بدون ترنّحٍ وبضميرٍ غير ملوّثٍ.

امنحيني أيضاً، أنا الذي أصلّي أمامك، صلاة نقية، أن أقدّم دائماً وبذهن غير مضطرب وبفكر مركّز صلاةً لكرامة ومجد وتعظيم ابنك الوحيد، ربنا يسوعَ المسيحَ.

-٨٩-

النفس تتشتت من تلقاء ذاتها؛ ليس العدو ما لا يُقهر

آه كم أنا بليد، كم أنا فظ، كم صارت نفسي أرضية وجلفةً! أيها القلب الفاجر، أيتها الشفتان المليئتان بالمرارة، أيتها الحنجرة المفتوحة قبراً!

لماذا لا تتذكرين أيتها النفس أن رحيلك يقترب بصورة لا مفر منها؟ لماذا لا تستعدين لهذه الرحلة؟ لماذا تلاحقين الهلاك بدون شفقة على ذاتك؟ لماذا تجلبين على ذاتك عذاباً أبدياً؟ ماذا تفعلين، يا نفس، حتى إنَّك تعيشين كالوحش الفاقد العقل والفهم؟

واحسرتاه، كيف أختارُ الظلام بدلاً من النور! كيف أفضّلُ تلك اللذة التي أملك اليوم والتي ستمضي غداً، على النعيم الأبدي الذي لا يوصف؟

واحسرتاه، كيف أوافق أن التحف برداء مظلم وكئيب أكثر من رداء مشعٍّ مثل الشمس؟ كيف أفضّل مساكن الجحيم البائسة على الملكوت السماوي؟

الويل لي أنا الخاطئ! إني طوعاً ومن ذاتي وبمعرفةٍ أُلقي بنفسي في هلاكٍ تامٍ.

عودي في النهاية إلى رشدك يا نفسي؛ خافي الله واشرعي بشجاعة في الرحلة على طول طريق وصاياه.

افهمي يا نفس أن هذا العمر هو مثل ساحة معركة، وأن الثعبان الماكر يحاول أن يضمن النصر بأية وسيلة من الوسائل. لقد هزمه ولعنه البعضُ، لكنه يغلب هو نفسه آخرين ويعرِّضهم للعن.

البعض من المخدوعين به، قد هُزموا؛ آخرون يدخلون في المعركة ضده ويكلَّلون.

البعض يبلغون مسرّات الحياة الأبدية وقد تذوّقوا مرارته؛ وآخرون ينالون مرارة العذاب الأبدي وقد تذوّقوا حلاواته الشهوانية.

البعض بفضل إمساكهم الشديد يَسودونه للحال؛ وآخرون بسبب التصاقهم بالأمور الأرضية يُغلبون من قبله بسهولة. بالنسبة للذين يحبون الله من كل قلبهم، لا تعني المعركة ضده أي شيء؛ أما بالنسبة للذين يحبون العالم فهي صعبة ولا تُذلَّل.

افهمي أيتها النفس التي يُرثى لها، أن فرحَ وبهاء ورفاهية هذا الدهر مليئة بالحزن والأسى؛ أما الآلام والحرمان وذمّ الذات فتجني فرحاً لا يوصف وحياة أبدية.

صمّمي أن تطأي الطريق المستقيمة والمؤلمة وجاهدي بصمت، حتى إذا ما أتت ساعة الموت والرحيل لن توجَدي غير مستعدة.

-٩٠-

دموعٌ في الليل

على فراشي أهذّ بك يا محب البشر، وفي منتصف الليل أنهض لأمجّد صلاحك. تذكرتُ ديوني وخطاياي وذرفتُ جداول دموع. لقد طمأنوني: اللصُ والعشّار ومريم الزانية(٢٧) والمرأة الكنعانية، وحتى المرأة النازفة الدم والمرأة السامرية عند البئر. قالوا لي: انهضْ والتمس الرحمةَ، فربُّك معطاء في الرحمة.

داود، ابن يسَّى، صرخ إليّ في مزاميره؛ أيقظني من النوم الذي أثقل أعضائي وقال لي: انهض أيها الإنسان. لماذا تنام؟ القاضي يقبل تقدمات عند منتصف الليل. انهض، صلِّ، واطلب المغفرة. الرب الرؤوف سيبتهج بك. بابه مفتوح للتائب نهاراً وليلاً.

في الليل، عندما استرحتُ على سريري، تذكرتُ ديوني وخطاياي. عندئذ استولى عليّ رعبٌ وصرخت: واحسرتاه، إن الليل المرعب والظلام الخالي من كل نور يقتربان. كل مَن يعيش حياة حرامٍ لن يبتهج في يوم القيامة، بل سيبقى دائماً في الظلام.

---

(٢٧) يعتبر المجدلية زانية، بينما هي ممسوسة شفاها المسيح.

داود أيضاً اضطجع على سريره ليلاً، وتأمّل آثامه واعترف بخطاياه. في الليل بلَّلَ سريره بدموع عينيه، وبتنهدات صلّى: "أنا عارف يا رب بإثمي، وخطيئتي أمامي في كل حين. إليك وحدك خطئتُ يا رب، فارحمني".

أصرخ إليك أيها الآب والابن والروح القدس؛ إليك أتضرّع نهاراً وليلاً: اصفحْ عنا. بحسب كثرة رأفاتك امحُ خطايانا وآثامنا. هَبْ لنا يا رب صحة النفس والجسد؛ خلّصنا من الشرير ومن قوته وطريقه ومن كل أشراكه، ولا ترفضنا رأفتُك، لا نهاراً ولا ليلاً.

-٩١-

تيقَّظ في الصلاة نهاراً وليلاً، حتى لا يباغتك يوم الموت بدون توقع

لننهضْ من النوم ونصرخ إلى الرب بتنهدات. لنتعبْ نهاراً وليلاً، منتبهين إلى تأديبنا مادامت حياتنا ما تزال مستمرة، حتى يحين الوقت عندما لن يكون أي مجال بعد للتوبة. لنقف بانتباه عند باب العريس، حتى ندخل مع العريس إلى خدْره الزفافي ونرث حياة أبدية.

هلمّوا لنرتل كلنا تسابيح لله ليلاً ونحاكي محافل الملائكة التي تسبّحه بدون انقطاع. وعندما ينهض مخلّصنا ويأتي مصحوباً بالملائكة، ويرى يقظتنا وانتباهنا، سيدعونا خدامه الصالحين وسيُجلسنا إلى وليمته.

مع الأبرار الذين أرضوا الله نهاراً وليلاً لنتعبْ في الصالحات، فسنجد الرحمة من ربنا؛ ولنقل ونحن نرنم مع داود: في منتصف الليل أقوم لأحمدك على أحكام برّك. اصفح عني وارحمني وتعطّف عليّ بميراث ملكوتك.

لن أنقطع عن التسبيح لك يا ربنا. سأرتل بلا انقطاع لمجدك، حتى لا يَدينني حقك. أعرفُ درجة إثمي. أعرفُ

أنه إذا عاقبتني بحسب خطاياي، فميراثي سيكون عندئذ الجحيم. عندئذ سيضيع كل رجائي. وستُصمت صلاتي. ارحمني إذاً واغفر لي ديوني.

لقد زللتُ وسقطتُ في الخطية. امددْ إليَّ يدك اليمنى فأقوم مثل الزانية في بيت سمعانَ، مثل اللص على الصليب. ارحمني يا مَن هو رؤوف القلب على الخاطئين.

-٩٢-

ابكِ: فالأيام تمضي، وسريعاً ما ستواجه الدينونة

الويل لي، أنا المهمل! الويل لي أنا الذي أخزيت خلاصي! الويل لي أنا الذي خطئ بمعرفة! أعرفُ أني أفعل الشر، ومع ذلك لا أنسحب من الشر. الويل لي، لأنه ليس لديّ مبرر! تبعاً لكلماتي أنا مُحصَى عن يمناكَ، لكن تبعاً لأفعالي أنا واقفٌ عن يسراك.

لك أيها الرب الصالح وحدك، يا مَن لا تحمل ضغائنَ، أعترفُ بخطاياي. حتى ولو صمتُّ فأنتَ يا رب تعرف كل شيء، ولا يوجد شيء مخفيٌ أمام عينيك. لأنك يا رب قد قلت بنبيك: اعترفوا بخطاياكم سلفاً وأنتم فتُبرّروا أنتم. وهكذا أقول أنا: لقد خطئتُ يا رب، ولا أستحق أن أنظر وأعاين أعالي السماء بسبب كثرة آثامي.

ماذا سأفعل؟ أنا أشقى جميع الناس؟ سأبكي على ذاتي نهاراً وليلاً، طالما يوجد وقت بعد لتقديم الدموع.. هَبْ لي دموع انسحاق، أيها الرب الرحيم والصالح وحدك، حتى أنال منك معها تطهيراً من دنس قلبي.

واحسرتاه، لقد خطئت يا نفسي! توبي، لأن أيامنا تمضي كظل. في هنيهة يسيرة ستَرحلين من هنا. ستعبرين أماكن مخيفة يا نفسي. لا تؤجّلي الرجوعَ إلى الرب يوماً بعد يومٍ.

الويل لي يا نفسي! لقد أقصيت رحمةَ الله بعيداً عن ذاتك بأعمالك الكريهة. لا تمنحي ذاتَك راحة؛ اجثي نهاراً وليلاً أمام الذي هو صالح ومحب للبشر، حتى تُعطَي نعمةً ورحمةً من العلى.

-٩٣-

دروس الحياة

سيأتي وقت مملوء بالخوف والرعدة، عندما سيُكشف جميع ما فعله كل شخص في السرّ وفي الظلام: الويل للنفس التي لا تملك الربَ معيناً لها.

قلبي يتنهّد وعينايَ تشتاقان إلى الدموع، لكن خطيئتي تسبي ذهني كي لا أشعر بالانسحاق وأتضرّع إلى الرب ألا يُلقيني في الظلمة الخارجية.

طالما لدينا بعدُ قوةٌ لنعملْ من أجل الرب باستقامة قلب، حتى نحظى به في وقت الألم معيناً لنا، الذي سيخلّصنا من كل نكبة.

مثل إنسان يسير بشمعدان ويعطي نوراً للذين معه، هكذا تفعل الفضيلة، التي تحمل دائماً مجداً معها، وتعطي نوراً أيضاً.

إلى أن تصمّمَ في ذهنك أخيراً أن تترك هذه الحياة وأن تعتبر هذا العالم ومجده مجرد خيمة منهوبة: حتى ذلك الوقت، سيكون مستحيلاً أن تغلب الأهواءَ الأرضية والشهوات الدنيوية التي تطمر الإنسان في هلاكٍ وخرابٍ تامَين.

لا يتطلب الأمر جهداً عظيماً أن نضع أساساً، لكن مِن الصعوبة أن نكمّل البناء. كلما كان البناء أعلى، كلما كان يعني عملاً أكثر للباني حتى ينتهي.

هذا ما يحدث للذين يأتون للعمل من أجل الرب: أولاً توجد تجربة، عندئذ أحزانٌ، ومن ثمّ يأتي التعب والقنوط والعري والمعاناة والحرمان من العزلة والذلّ. سيفوز كل مَن يكرِّس ذاته من كل قلبه لإرشاد الله ولمشيئة الله. الله يطلب منا مجرد عزمنا الكامل؛ إنه هو مَن يعطينا القوة ويمنحنا النصر.

-٩٤-

إذا أجبرتَ ذاتك أن تكون يقظاً في الصلاة، فستربح رحمة عندما تأتي النهاية

السبح للكلّي الصلاح، الذي بسبب محبته أظهر مجداً لأبناء البشر! من تراب خلق كائناً لا صوت له وزيّنه بنفسٍ، هي مالكة للكنوز السماّوية.

أعطى هاتين الشفتين الترابيتين المقدرة على تعظيمه، حتى بهما ترتّل كل البرايا تسبيحاً له.

تعالوا، أنتم الموهوبين كلاماً، لنرتّل تسبيحاً له حتى نرقد في نوم الموت.

كل ليلة سنتأمّل الموت الذي سيوقف شفاهنا ويطوينا بالصمت.

الأبرار الذين أمضوا لياليهم في يقظة يعيشون حتى بعد الموت؛ أما المتمرِّدون الذين يرفضون مجد الله فهم سلفاً موتى وهم ما يزالون بعدُ أحياء.

لنُنهضْ أجسادنا بالمزامير والتراتيل الروحية حتى ننضمّ إلى العذارى الفطنات اللاتي مدحهن ربنا، وبيقظة نعاين مجده في الليل الذَي سيدفع العالم إلى الرعدة.

دعونا لا ننغمس في الملذّات، حتى نعاين مجده في يوم مجيئه. لنقف أمامه كعبيد ساهرين، جاهزين للساعة عندما سيُساق أبناء البشر إلى الدينونة.

إن الجسد الذي أرهق ذاته بالصلاة سيحلّق عبر الهواء في يوم القيامة؛ سيعاين ربّه بدون خزي؛ معه سيدخل إلى مسكن النور، حيث سيتدلّل من الملائكة ومن الذين أرهقوا أنفسهم هنا باليقظة والصلاة.

مباركٌ الذي جعلنا أدوات مجده ووضع تعالياً على شفاهنا غير المستحقة! السبح لرأفته، لأنه جعل الذين من تراب يشتركون مع الملائكة، حتى يرتلوا لاسمه القدوس كل ليلة وفي كل الأوقات.

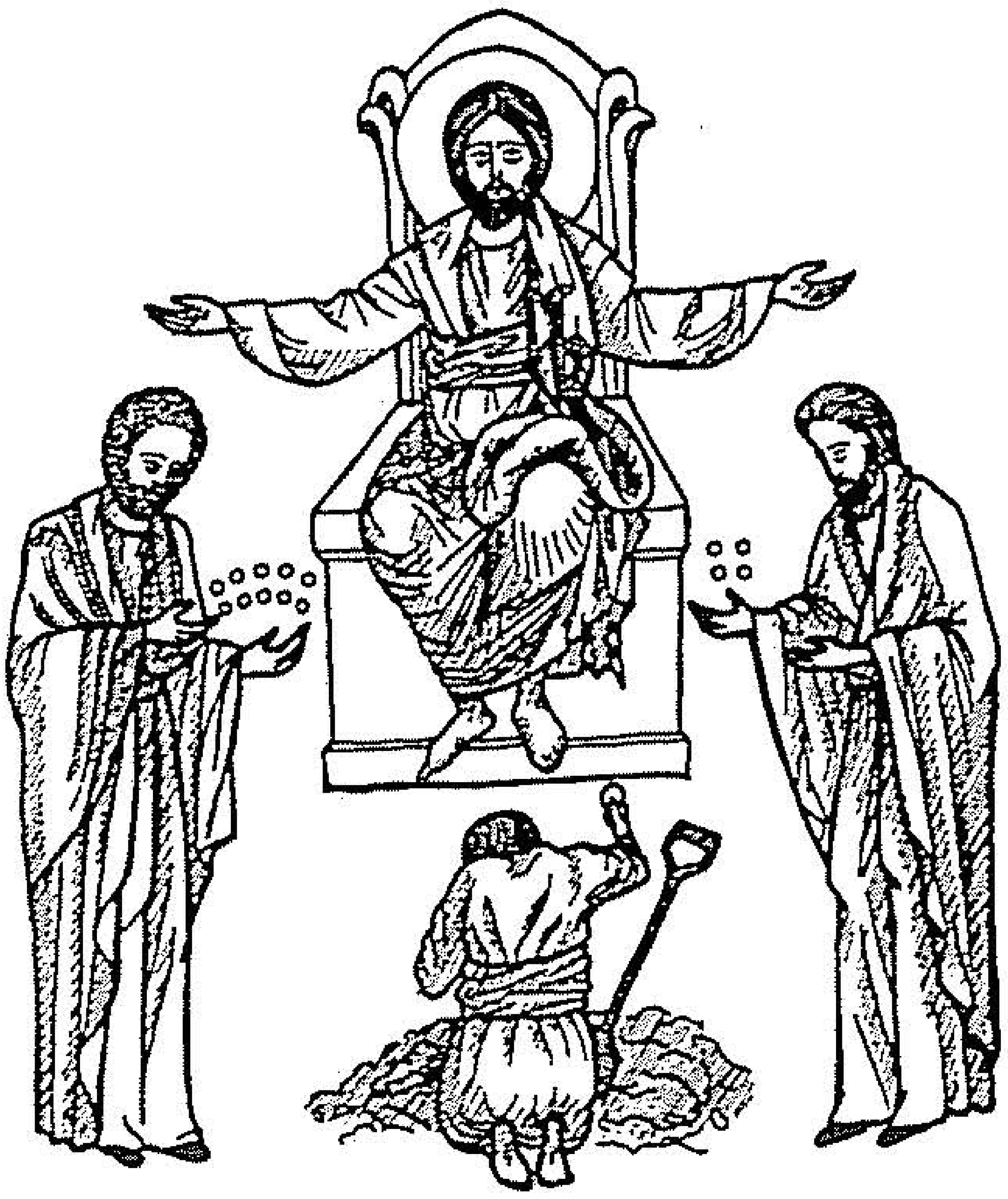

-٩٥-

ترنيمة صباحية

سبّحوا الله في الصباح، يا أبناء الكنيسة. لنعلّ الصالحَ كل صباح ولنسجد له، الذي رتّب النيّرات في سموات النهار والليل.

عندما يُرفع خمارُ الليل ويسطع نور الله على الخليقة، يُنهض قدومُ الصباح النائمين. فليُنرْ نورك يا رب قلوبَنا.

أنت نفسك يا رب تعلّمنا أنَ نعلّيك فتضعُ حياةً في نفوسنا. كما أخرجتنا من الظلام هكذا خلّصنا أيضاً من جهنم.

بحسب رحمتك أطعمْ أبناء الكنيسة الذين التصقوا بك. فليكن حنوّك معيناً لنا يا رب صباحاً ومساءً.

لتصاحبنا نعمتك يا رب ولتقُدْنا إلى الصباح العظيم. فلتمطرنا يمناك الكريمة بالبركات وتحملنا عبر نهر النار.

لتعلّيك عند رجوعنا السماءُ والأرضُ وكل ما فيهما معاً. الرفعة لك، للآب الذي نعبد، لابنك الوحيد، وللروح القدس.

-٩٦-

تمجيدٌ مسائيٌ

كل مساء لتُسبِّحك شفتا كل إنسان! أنت تعطيهم النهار للتعب والعمل، لاكتساب الغذاء. الآن، وهم منهمكون في جهدهم الثقيل يشكرونك لمنحهم الراحة.

مَن الذي لن يسجد لك، يا مَن تهتم بنا نحن البشر بمحبة كهذه؟ إنك تقود النجوم وتسبّب اقتراب المساء الذي يجلب توقفاً لأعمال طول النهار للذين أضناهم العمل.

يأتي المساء ويعزّي الذين، في عراكهم مع الجوع والعطش، قد أُنهكوا وأُضناهم التعب. يأتي وقت المساء ويُسِرّ العالمَ وكادحَيه.

مباركة عظمتك، التي هي، منذ البداية، تراعينا دائماً نحن البشر!

إنك تعطي راحة للناس والحيوانات معاً في المساء.

صليبك يا رب، ختمُ الكنيسة وحامي أولادها من الشيطان وجنوده، ليكن تعزية خرافك، الذين افتديتهم بدمك الخالق الحياة.

أرسلْ سلامك يا رب إلى جميع أقاصي الكون، وليهربِ الشرير من وسطنا.

ليقدّم لك كل لسان وكل فم تسبيحاً من جميع أقاصي الأرض.

معهم نمجدّك نحن أيضاً، يا رب، وأباك والروح القدس.

-٩٧-

لا تدع أعضاء جسدنا التي تعبت من أجل مجدك تعاني عندما تغادر هذا العالم

اقبل منا كلنا، يا ربنا، صلاتنا وخدمتنا وتضرُّعنا. هَبْ لنا قلوباً مليئة بالمحبة وروح الصبر في الآلام.

لتكن أفواهنا التي تعترف بالإيمان وأصواتنا قيثارات تسبيح. لتجعلْك اليقظة والتعب اللذان تتحملهما أجسادنا رحيماً لخطايانا.

فلا تُصدرْ أفواهنا التي تخدم كقيثارات لك وألسنتنا التي ترتل تسبيحاً لك صرخات معذَّبة، يا رب، لأنك تنازلْتَ لها لأن ترتل لك تسبيحاً.

عيوننا التي تسهر وإن كانت مُثقَلة بالنوم وسُوقنا التي أُضنت بالوقوف أمامك، لا تحرَمْها من الرجاء ولا تدعها تفقد مجازاتها في يوم الحساب.

لا تتحوّل أصوات أفواهنا وتراتيلنا إلى نشج وبكاء، بل بحسب رأفتك وحنوّك وصلاحك اقبل يقظتنا.

هَبْ أن نقف أمامك بنفس واحدة، بقلب نقي، وأن نقدم بانسجامٍ تسبيحاً لك يا رب، ولأبيك ولروحك القدوس.

-٩٨-

الوصمات تعيق دخول النعمة:

اغسلني، لتجعل النعمةُ مني مسكناً لها

ربِّي، إن نفساً تنوح وتقترب منك، أيها السيد القدوس، وبدموعٍ تجثو أمام رأفتك.

لقد أقسمتَ بذاتك إنك لا ترغب بموت خاطئ بل بالحري أن تخلّصه من خطاياه. حقاً يسود صلاحك يومياً ضلالات الناس. إنك ترحم الخطاة تماماً كما ترحم الذين يسلكون في وصاياك.

رأفتك معلَنة في كل مكان في الأناجيل وفي كتابات الرسل. آباؤك ومعلِّموك القديسون(*)، الذين سمّتهم الكنيسة والذين لم تسمِّهم، معاً، يُعلنون رأفتك.

أعرفُ عن الابن الخليع، منسَّى، اللص، زكّا، العشّار، الزانية، المرأة الكنعانية، المرأة النازفة الدم، المفلوج، الأعمى، يايروس، وجميع الذين دُوِّنت قصصهم: وأنا أقترب منك.

(*) شهادة ثمينة لقديس يقدّر الآباء والمعلِّمين القديسين. هذه هي أرثوذكسية الايمان ضد المبتدعين قاطبة.

وسِّعْ محبتك واقبلني؛ أحيِّ ذهني وقيّدني أنا الذي كثيراً ما أسقط في آثامي السابقة وأنا منغمس في أفكار فاسدة.

عندما تأتي نعمتك إلى قلبي تجد هناك نتانة الأفكار الفاسدة. لهذا تنسحب للحال بدون أن تجد مدخلاً أو فرصة للدخول والسكنى فيَّ كما ترغب.

اغسل قلبي ببركة متألّقة لكي أسترد حواسّي ولكي تجعل نعمتك سكناها فيَّ، أيها الرب الكلي الرأفة.

-٩٩-

رهيب هو العبور عبر الجبايات: ارحضني هنا، يا رب

في وقت قصير سنعبر عبر أماكن مخيفة ومرعبة، ولن يوجد هنا مَن يمكنه تجنّب السير في هذا الطريق. لن يوجد واحد هناك لكي يرافقنا ويساعدنا: لا والدان ولا أخوة ولا أصدقاء ولا أقارب ولا ثروة، ولا أي شيء آخر كهذا.

إذا وجدنا أنفسنا في تلك الساعة بالذات مجرَّدين من حماية الله، فإن أمراء الظلام سيكبحوننا حتماً. إنهم قساة ومجرَّدون من الرحمة؛ إنهم لا يخافون ملوكاً ولا يحترمون سادةً؛ لا يكرّمون الصغار ولا الكبار. إنهم لا ينسحبون بخوفٍ إلا من الذين يعيشون بتقوى، سامحين لهم بالمرور بحرية.

أتخيّل ماذا ستكون عليه هذه الساعة وأجثو أمام صلاحك يا رب: لا تسلّمني لهؤلاء الذين يهينونني، حتى لا يتباهى أعداؤك بأنهم قد أخذوا عبدك، أيها الرب الصالح. فلا يصرفون بأسنانهم ويُرعبون نفسي الخاطئة، قائلين: لقد سقطتَ في أيدينا، لقد سُلِّمتَ إلينا. هذا هو اليوم الذي كنا ننتظره.

لا يا رب، لا تتعامل معي بحسب آثامي ولا تُشيح بوجهك عني. لا تقل لي: آمين، أقول لك، لا أعرفك. عاقبني، يا رب، بحسب رأفتك، ولا يفرح عدويّ بي. أطفئ ضراوته، أبطل أفعاله، أعطني طريقاً إليك خالياً من الهجمات واللعن.

أملْ أذنك إلى صلاتي، أيها الرب الصالح، لا بسبب برِّي، بل بسبب رأفتك ورحمتك العظيمة. خلِّص نفسي الحزينة من الموت. أنت هو رب الكل ولك القوة على جميع البرايا.

أنتَ قلتَ يا رب: اسألوا تُعطوا؛ اقرعوا يُفتح لكم. هاأنذا أسأل وأقرع. قبل أن تأتي نهايتي يا رب، طهّرني من كل خطية.

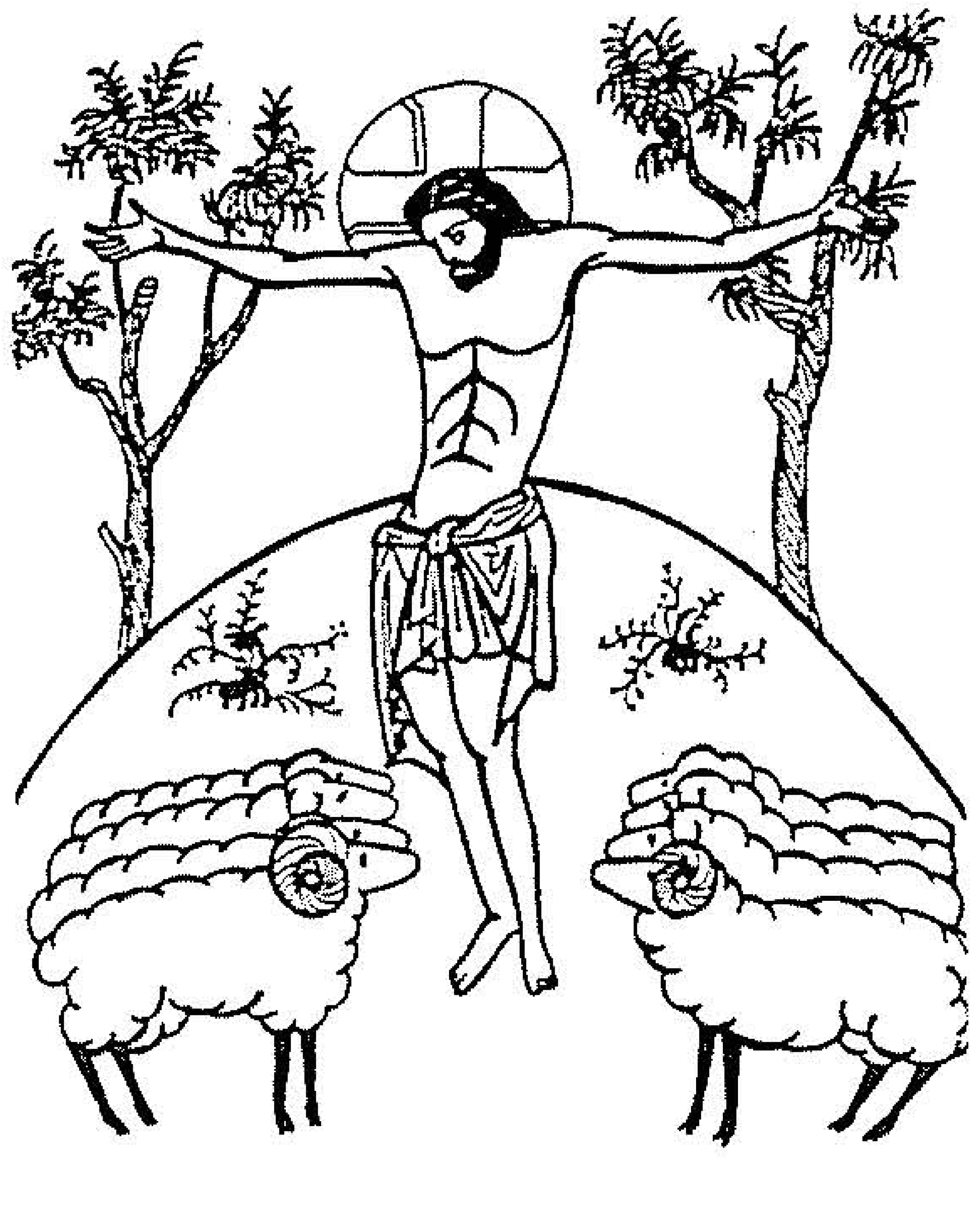

-١٠٠-

انهض طالما يوجد وقت ونظِّف ذاتك بالدموع

انهضي يا نفسُ. لقد نمت حتى الآن في الخطيئة؛ انفضي نعاسك؛ أسرعي واطلبي ملجأ في التوبة، فلعلَّ البار يندفع نحو الرحمة بدموعك. اخلعي عن ذهنك خمار الفساد، حتى تبصر عينك بصورة صحيحة.

أمام القاضي اذرفي كل ساعة دموع الانسحاق على أعمالك المخزية. لجةُ عذاب تنتظرك بدل أعمالك وفسادك. ابك على ذاتك جداً، حتى يصغي البارّ إليك ويعَقد سلاماً معكَ.

ارتعدي، أيتها النفس المنكوبة، وارتعبي من العذابات التي أعدَدْتِها لذاتك. ابك على ذاتك، لأنك تحادثت مع القوى النجَسة، لأن النار الأبدية ستتبعك في كل مكَان. لقد طمرت ذاتك في الشهوة عميقاً، ولم تفلتي منها أبداً.

أفكارَك مُثقَلة بأشواك وعوسج، ومازال عليك أن تُثمري ثمَار التوبة. لقد نفضتك الأهواءُ مثل أمواج وأغرقَتْ سفينتك في بحرٍ من الخطايا.

لمْ تصوِّري لذهنك قط ذلك اليوم عندما سيخضع كلُ مخفي للتفحُّص. ماذا ستفعلين عندئذ، عندما سيدفعك للارتجاف الصوتُ الذي يطلب أن تذهبي لملاقاة العريس؟

نور عينيك سيظلم ويتلاشى، وستُتركين خارجاً مع العذارى الحمقى.

زوِّدي ذاتك بالزيت، أيتها النفس البائسة، طالما يوجد وقت لتبرير ذاتكَ. التمسي مغفرة خطاياكِ سوية مع الزانية واشفي جروحكِ بدموعك.

ما زال بابَ التوبة مفتوحاً: ادخلي وطهّري ذاتك من فسادك.

أنتَ، يا مَن ترغب في خلاص أبناء الإنسان، ترأف على هذه النفس التي انسحبتْ منك. اقبلها يا رب برحمتك المعتادة. وعند دينونتك العادلة فلْتحمني رأفتك، أنا الخاطئ، وتخلّصني من العذاب.

أنت يا مَن تغفر الخطايا وتهبْ الرحمة مجاناً، اغفر لي خطايا نفسي في دينونتك العادلة! ليعلِّيك الضالّون الذين جمّعتهم سوية وأحضرتهم إلى التوبة.

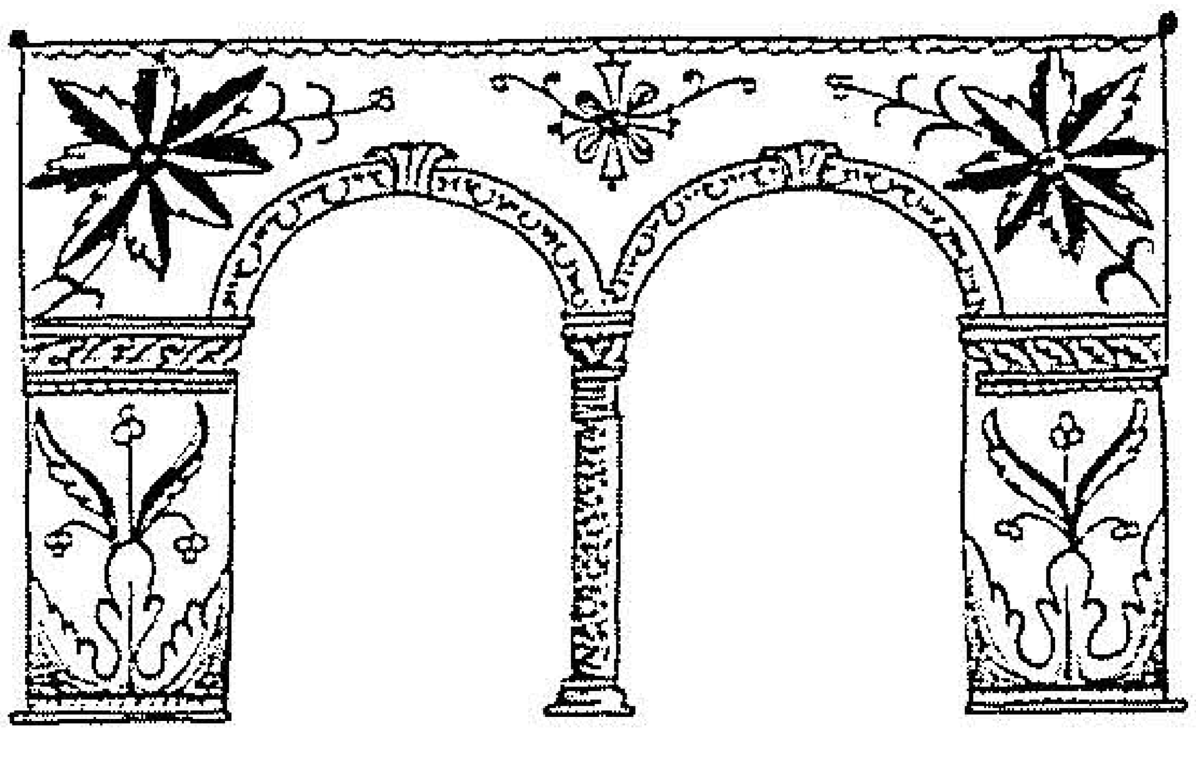

-١٠١-

تطويبات

طوبى للذي صار في الرب حراً من كل شؤون هذه الحياة الباطلة.

طوبى للذي يملك الدينونة العامة المخيفة في الذهن ويحاول أن يشفي جروح نفسه بالدموع.

طوبى للذي صار بالدموع مثل غمامة، ويستعملها يومياً لإطفاء لهيب الأهواء الشريرة المسعور.

طوبى للذي يتفوَّق إلى حد بعيد في المآثر النسكية، راجياً أن ينال من الله الملكوت السّماوي.

طوبى للذي يتوهَّج مثل النار بالمحبة وقد أحرق في ذاته كل الأفكار النجسة وفسادَ النفس.

طوبى للذي وجد لؤلؤة سماوية مصطفاة وباع كل ما كان لديه على الأرض، واشترى هذه الجوهرة الواحدة.

طوبى للذي وجد كنزاً مخفياً في حقل، فابتهج وطرح كل شيء جانباً، وحظي بهذه القطعة الوحيدة من الأرض.

طوبى للذي يتذكر باستمرار يوم رحيله ويجاهد أن يكون مستعداً وبدون خوفٍ في تلك الساعة.

طوبى للذي يجد الجرأة في ساعة إقلاعه، عندما تودّع النفسُ الجسدَ بخوف ورعدة، لأن الملائكة ستأتي لتأخذ نفسه، لتفصلها عن الجسد وتضعها أمام العرش في مكان الدينونة المرعبة التي لا تموت.

-١٠٢-

في الفداء يوجد رجاءٌ بالمغفرة

يا يسوع زينة صلاتنا، قوِّ تضرعنا كي يصعد معك إلى أبيك وينال لنا غاية طلبتنا!

بحنوّك أنت تدافع عنا أمام أبيك، لأنك أنت الذبيحة المختارة، المقدَّمة عن العالم

نيابة عن آدم الذي تذوّق الثمرة، تقبّلتَ العمودَ (الصليب) في مكان الدينونة. ونيابة عن أولاد آدم الذين خطئوا أمامك، غرزك الجلادون بالمسامير.

أخذتَ على عاتقك دَيْن الكل المشتركَ لكي تدفعه لأبيك: ادفع أيضاً أيها الرب البريء من العيب تلك الخطايا التي بها جعلَتْنا حريتُنا مدينين لك.

لقد افتديتنا من لعنة الناموس بدمك الكريم(*). خلِّصْ أيضاً الذين افتداهم دمك من الدينونة القاسية.

فلا تتجاوز ديونُ عبيدك رأفةَ الرب الرؤوم. فداحة ضلالاتنا لا تهمّ لأن حنوّك، رغم ذلك، هو أعظم.

(*) في طروبارية يوم الجمعة العظيمة جاء: "اشترينا..." المعنى الذي ساد في الكنيسة هو هذا: الفداء، الشراء من لعنة الناموس.

صحيحٌ أن علينا الكثير الكثير من الديون، لكن لك كثرة من الرأفات. وإذا كانت الحقيقة ذاتها ستزنها، فعندئذ ستكون كل ديوننا أقل من رأفاتك.

مَن سيبدأ بوزن رأفاتك ومقارنتها بآثامنا؟ يمكن للجبال أن تُوزَن، لكن رأفاتك تفوق القياس.

رأفاتك أثمن من الحياة، لأن للحياة مقياسها، أما رأفاتك فلا تُقاس. لتكن رأفاتك أيضاً متراساً لنا.

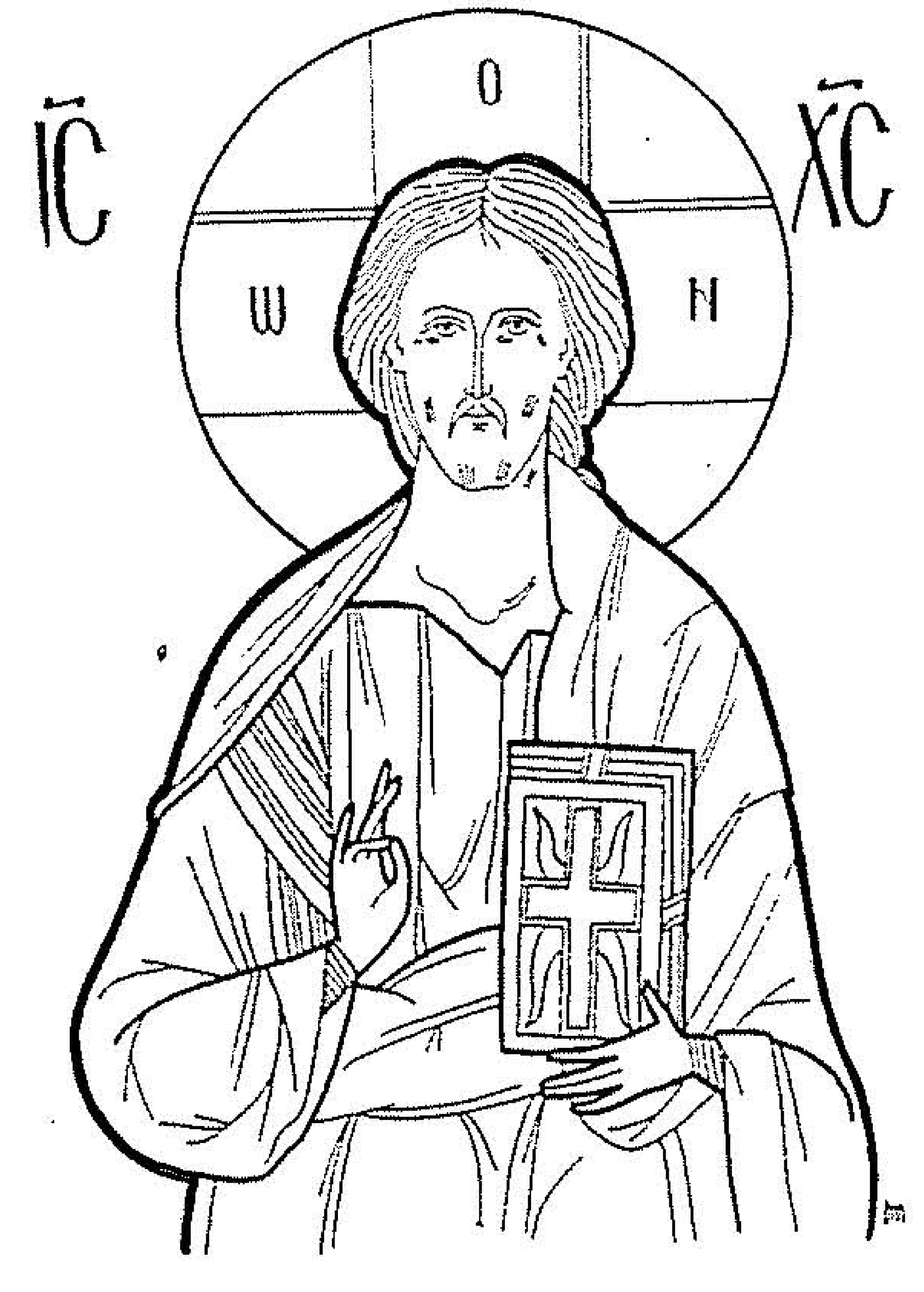

-١٠٣-

انهض، يا مَن شخت في الخطايا، واقترب من المخلِّص برجاء

انهضي يا نفسي التي هرمتِ في الخطايا، وجدِّدي ذاتك بالتوبة. من الانسحاق والدموع امزجي لذاتك طيباً واشفِ جروح الصورة الساقطة فيك. اصرخي من قلبك واكشفي آثامكِ، لأن الكلي الصلاح سيصفح عنك أنت الساقطة.

لقد أحببتِ الجمالَ المخادع والعابر وشوَّهتِ جمالك أنتِ، يا ابنة النور. هيكل جسدكِ مشوَّهٌ بالتهوّر الذي استعبدت ذاتك له.

الويلَ لك أنت البائسة! إلى متى ستنهمكين في الأشياء العابرة؟ ارتعدي وخافي النارَ التي ألهبتها بضلالاتك.

لقد تراكمت الخطايا الشنيعة التي ارتكبتها منذ شبابك، وتعالت فوق رأسكِ. لقد طمرتكِ في اليأس، ولهذا فإنك لا تبالين بالتوبة.

تذكّري أنك مسبيَّة بالشهوة. تذكَّري أن الشهوة قد ذبحت أمك. كم هو الصالح طويل الأناة معك، ومع ذلك فإنك تتمرغين في بحر الخطية!

يا تُرى ألعلَّ الأمر هو كونك لا تخافين اليوم عندما ستُكشف قروحك وأسرارك؟ منَ سيدافع عنك في ذلك المكان حيث سيكون كل إنسان منشغلاً بدينونته؟

مقتنياتك جعلتكِ صورة جوفاء، لقد أفسدتكِ وتركتك.

فيا أيها الرجاء العظيم، يا مَن ظهرتَ لنا في الأيام الأخيرة، اصفحْ عن هذه النفس التي ارتدَّتْ عنكَ! إني خروفك، لكني تهتُ عنك لفترة طويلة، خادماً الشرير. هلمَّ يا رب واطلبني. اطلبْ سيادتك، لأني بدَّدتُ ثروتك في اهتمامات باطلة!

تحملّتَ صليبكَ من أجل الخاطئين، وأنا واحد منهم: لا تتنحَّ عني. نحن مُلْكُكَ، لكن الشرير قد سرقنا. وبِّخه وخذ منه ما قد استولى عليه. ارحمني، يا محب البشرية، فليس لي رجاء آخر سواك.

السبح لرأفاتك يا ابن الله الكلي الرحمة، لأنك طويل الأناة نحو الخطاة. الشكر لك من الذين هلكوا، الذين جمعتهم سوية وأحضرتهم إلى التوبة.

-١٠٤-

ضد العدو الشرير الذي لا يستسلم

ما أعظم رحمة الله! ما أعظم محبة الله للبشرية! كم يرغب ويشجّع كل الناس لخلاص أنفسهم! يا رب اصفح عني أيضاً، أنا عبدك البطّال؛ أيها المسيح الرحيم مخلّصنا، اصفح عن خليقتك.

إن كنتَ يا رب لن تمنحني أنا البائس فهماً، وإن كنتَ لن تنير قلبي، فسأعجز عندئذ، بسبب توانيَّ العظيم، عن إدراك هلاكي وفسادي.

لأني وقعتُ في الشرك بواسطة العدو غير الرحيم الذي يضطهدني، فإني أبكي ليلاً ونهاراً بدموع بدون توقف لصلاحك ليخلّصني من شراكه. لأن الذي يحتال ضديّ يجدّد كل ساعة خداعه، كل ساعة يُقلق نفسي بأفكارٍ فاسقة وباشتهاء اللذة.

لتنتهرْ قوتك أيضاً، أيها المسيح، التي انتهرت أمواج البحر، لكي لا يؤثّر عليّ، أنا عبدك البطّال. سارع في إرسال نعمتك، أيها السيد، لتقصي عن عبدك الثعبان العظيمَ وكل نجاساته وأفكاره الشريرة. لأن الجروح التي

أحدثتها سهامه في قلبي قد صارت قروحاً نتنة، وأنا أحاول في حماقتي أن أخفيها بكل ما أستطيع من وسائل.

الطبيب الصالح يستدعيني ولا يطلب مقابلاً، ولا يريق دمي. لكن كسلي يمنعني من الذهاب إليه. إنه يأتي بنفسه ليشفيني، لكنه يجدني دائماً منهمكاً بأعمالٍ تعيق أدويته عن إصلاحي بقوتها الشافية.

يا رب، أنرني وأيقظني. اشفني وأنا سأُشفى.

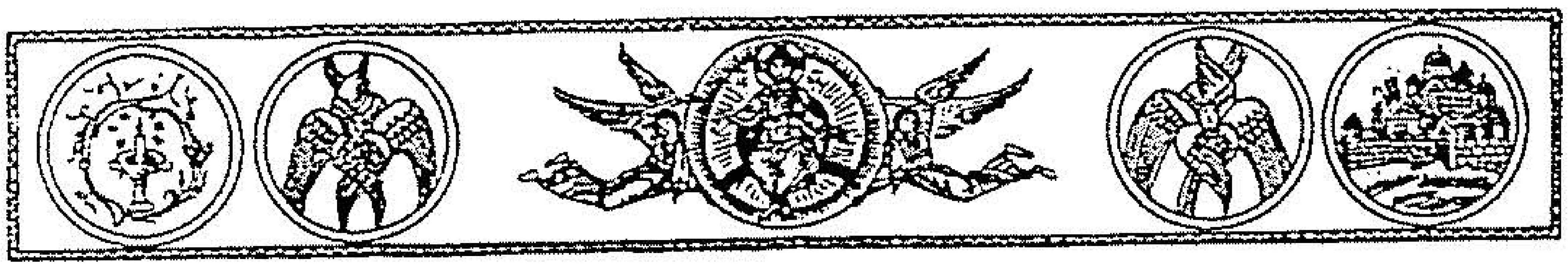

-١٠٥-

لوالدة الإله: تضرّع لمنح التوبة

أتضرّع إلى أم الله: يا والدة النور الدائم الانبثاق، استمعي إلى الكلمات التي أُعلنها أمامك!

إني أتمرّغ أنا البائس في الحمأة؛ إني مغطًّى بالآثام بالكلية، ومظلَمٌ تماماً. حتى الأرض قد تدنَسّت بكثرة خطاياي، يا سيدتي. وهكذا، تصرخ بتنهدات عني إلى القاضي غير الفاسد، مستدعية السماء ونجومها والشمس كشهود.

وعاصفة أفكاري تغمرني سلفاً في اليأس.. أنا، الخليع، قد وضعتُ كل رجائي فيك، يا أم الله. أنت وحدك، التي حملت مخلّص العالم في رحمك، حلّيَ قيودي التي لا تُحلّ. بَيّضيني بدموع التوبة أنا المسوّدَ والذي تحوّلت إلى الظلام. أنت التي ولدت من أجل حياتي، أنهضيني أنا المذبوح بإهمالي العظيمَ، أعيديني إلى الله والملائكة أنا الذي صرتُ متغرّباً عنهم، يا أم الله.

مهولة حقاً هي المعجزة! كيف تحمّل الرب خطاياي! كيف أنه لم ينقلني أنا البائس إلى أعماق الجحيم وما أزال

حيّاً! كيف أنه لم يُرسل من الأعالي عصاه غير المنظورة أو سيفه ليضربني. . بدون شك، لقد منحتني، أيتها السيدة، حياةً بشفاعاتك. إنك تطلبيْنَ توبتي: أَعطني إياها أيتها العذراء الكلية الصلاح، أنا خادمك، لَأنك جداري وملجأي ومتراسي.

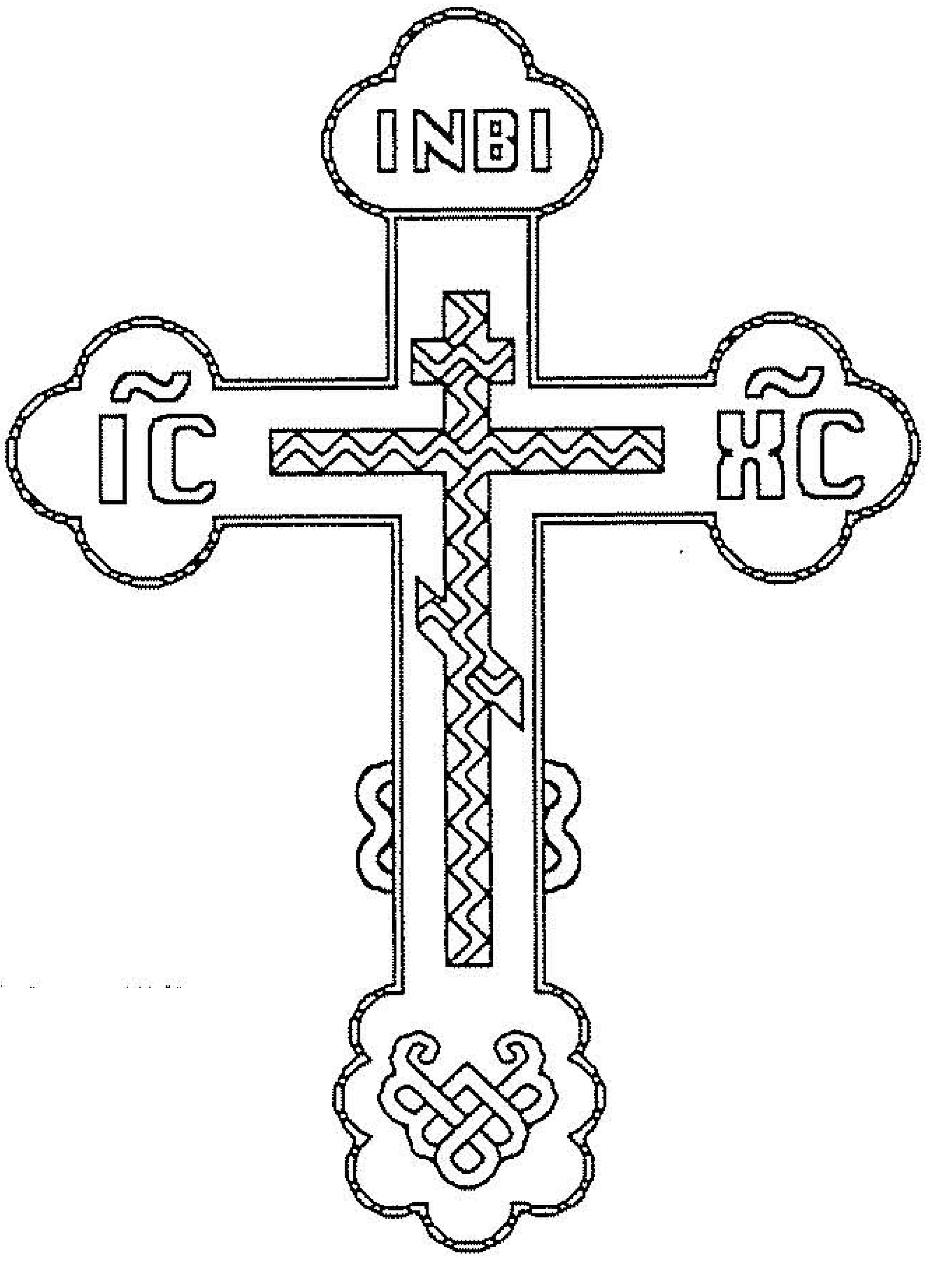

-١٠٦-

سينال الناس مجاراتهم بحسب أتعابهم

يا ربنا يسوع المسيح، أيها الملك الموقَّر، يا مَن بآلامكَ هزمتَ الموت المعذِّب؛ يا ابن الله الذي وعدنا بحياة جديدة وبالملكوت السماوي: أبعدْ عنّا كل ضرر، حتى تسكن نعمتك فينا، بحيث نخرجَ في يوم مجيئك لملاقاتك بحسب مشيئتك الصالحة، حتى نعاينك ونقف أمامك بفرحٍ.

امحُ خطايانا بغفرانك، حتى نسبّح اسمك علىً أعمالك من الرأفة. تعطّف علينا جميعاً، يا ربُّ بحسب نعمتك، لنمجّد ونعبد لاهوتك.

العيون التي رأت هنا مجدك، فلتعاينْ هناك رحمتك العظيمة. والأذن التي سمعت هنا صوت كلماتك، فلتسمعْ هناك أيضاً أصواتَ الابتهاج. والشفاه التي مجدّتك هنا في كنائسك، فلتوهبْ هناك أيضاً أن ترتّل تسبيحاً لك. واللسان الذي هتف هنا "قدوس، قدوس، قدوس"، فليتحوّلْ هناك إلى تسبيحك. والأيدي التي أمسكت جسدك ودمَك، لتنلْ منك الإبراء عن الديون. والأقدام التي دخلت إلى الهيكل المقدس، لتطُفْ هناك أيضاً في سلطان الحياة.

أرسلْ إلى تجمعنا، إلى أخويتنا التي تعبد لاهوتكِ، الملءَ الكامل لعطاياك المخلِّصة. لتبقَ محبتك الفائقة معنا، ولتجْعلنْا أهلاً لأن نقدّم لك التسبيح اللائق.

افتح بابك لصلواتنا، ولتكن خدمتنا مَرضية لكَ.

التفت إلينا، أيها الصالح، بحسب رأفتك؛ وأقص عنّا كلَ ضرر، حتى نسبّحك بدون توقف، أيها الرب مع أَبيك والروح القدس.

-١٠٧-

امنحْ يا رب التوبة والتحمّل حتى النهاية

لا تنبذ تضرّعي أيها الرب الصالح! شفتان غير مستحقتين تصرخان إليك، بالسوية مع قلبٍ نجسٍ ونفسٍ ملوَّثة بالخطايا.

أصغِ إليّ يا رب، بحسب صلاحك. ثبّتْ قلبي في خوفك. ضع قدميّ على صخرة التوبة. ليهزمْ صلاحُك يا رب حالتي الخاطئة. ليتغلّبْ نورُ نعمتك على الظلام الذي فيّ.

أنت يا رب، يا مَن فتحتَ عينَي الأعمى، افتح عينَي قلبي المظلمتين. أنت يا مَن طهَّرت المجزومين بكلمتك، طهِّرْ بقع نفسي. لتكن نعمتك يا رب ناراً فيّ تلتهم أفكاري النجسة.

أنت وحدك صالح. أنت النور الذي يفوق كلَ نور. أنت الفرح الذي يفوق كل فرح. أنت السلام الذي يفوقّ كل سلامٍ. أنت الحياة الحقيقية(*). أنت الخلاص الذي يدوم إلى الدهورٍ.

(*) هذه نغمات ديونيسيوس السوري المتنحل (٥٠٠-٥١٠) قبل ظهوره بقرنين، انها لاهوت الكنيسة.

أنا، الذي أستحق كل عقاب، الذي أستاهل كل نوع من العذاب، أجثو أمامك أيها الصالح بتضرّعي. أتوسّل إليك، أيها الفادي، أن لا تدع العدو يُمسك بي في النهاية.

لكن، أيها الرب الصالح والرحيم، ارفعْ عصائي المشلولة بالخطية؛ أحي نفسي المذبوحة بالإثم، أنرْ قلبي المكفهّر بالشهوة الشريرة، حرّرني من كل عمل شرير؛ اغرس فيَّ محبتك الكاملة، أيها الرب يسوع المسيح، مخلّص العالم؛ واكتبْ اسم عبدك في كتاب الحياة. هَبْ لي نهاية صالحة، حتى، وأنا حائز على نصر مضمون على الشيطان، أنحني بدون خزيٍ مع كل الأبرار أمام عرش ملكوتك.

-١٠٨-

ويلات

الويل لي، يا نفسُ، لأنك تبقين عديمة الحسّ في الحياة الحاضرة، منغمسة يومياً في اللذات والتعزيات الأنانية وأنت تعيشين حياة منحلّة. ستبكين في الدهر الآتي مثل الغني؛ ستُعذَّبين في ألسنة النار الأبدية.

الويل لي، يا نفسُ، لأنك لا تستطيعين احتمال أية أحزان سبَّبها أخوك، حتى ولا كلمة إهانة؛ بل بالأحرى، أنت سريعة إلى تكذيب الآخرين ومعارضتهم. بسبب هذا ستخسرين إكليل الصبر والوداعة وستُدانين مع الذين يحسدون الآخرين.

الويل لي، يا نفسُ، لأنك تكرهين وتشتمين أخاك وتسمحين للآخرين بفعل الأمر ذاته. بسبب هذا ستُعاقَبين مع القتلة؛ لأن الذي يكره أخاه هو قاتل.

الويل لي، يا نفسُ، لأنك تحتقرين وصايا الله وتفترضين أن الخلاص يأتي لمجرد تسمية "مسيحي"؛ لأنه في ذلك اليوم الرهيب ستسمعين الرب يقول: "ليس كل مَن يقول لي يا رب يا رب سيدخل إلى الملكوت".

الويل لي، يا نفسُ، لأنك تحبين مجد الناس والكرامة والثياب الفاخرة والممتلكات المادية. بسبب هذا ستكونين في يوم الدينونة مكرهةً أمام الله؛ ستُطرحين من أمام وجهه وستُحصَين مع الشياطين المتعجرفة.

الويل لي، يا نفسُ، لأنك تخطأين يومياً، ومع ذلك فإنك تؤخرين التوبة يوماً بعد يوم. سيباغتك الموت فجأة، مثل لص في الليل، وستُساقين في قيودٍ إلى جهنم، ذارفة دموعاً وأنت تشجبين حماقتك عبثاً.

الويل لي، يا نفسُ، لأنك لا ترتعدين، ولا تفكرين في يوم الدينونة الرهيب، عندما ستُزال كل قوى السماء بخوف، ولا تفكرين كيف ستظهرين أمام وجه الله، وأنت مرتدية رداء خزيٍ ونجاسة.

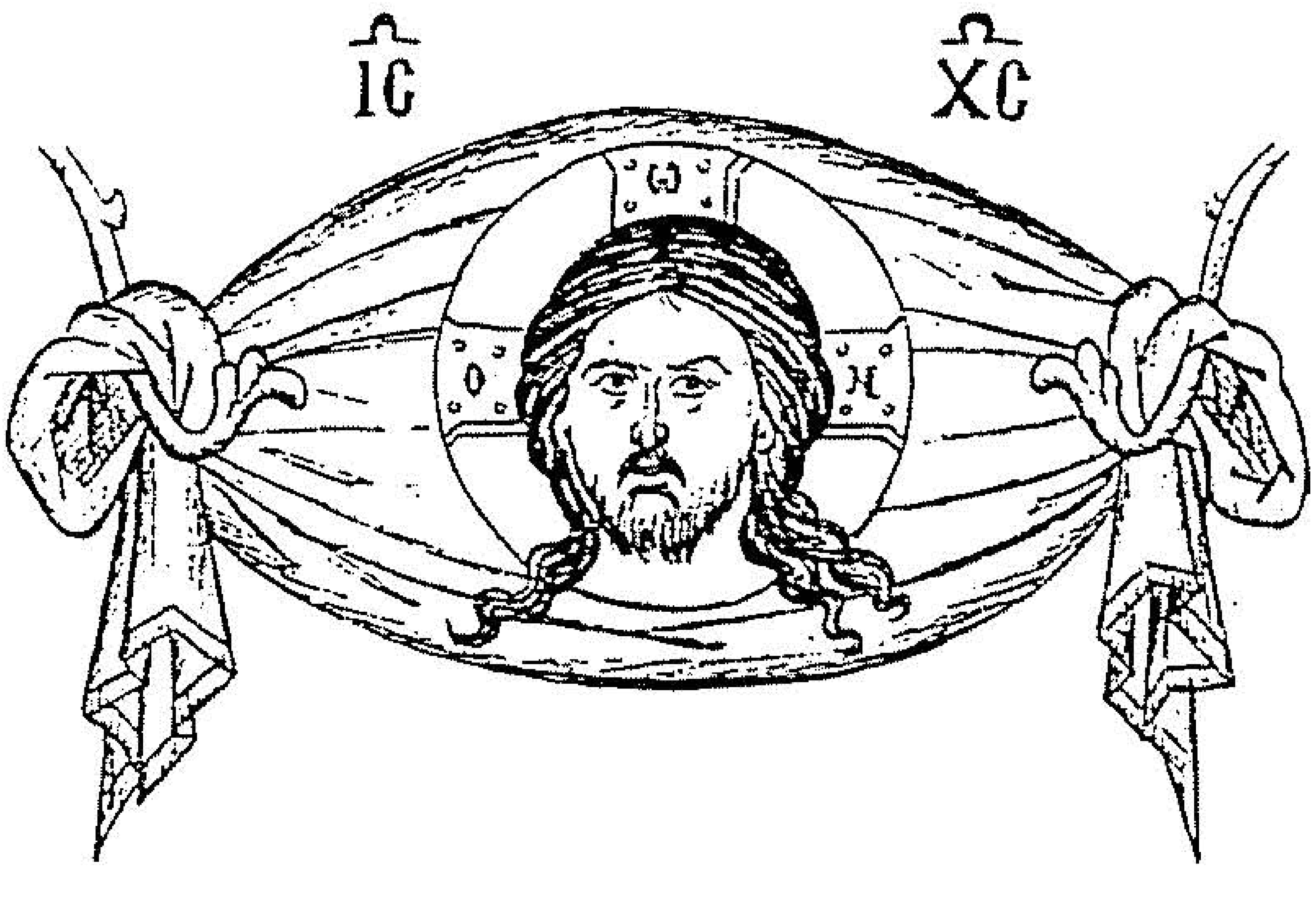

-١٠٩-

امنح نعمة الترنيم والتعليم، لكي يمحوَ على الأقل قسماً صغيراً من خطاياي

الآباء القديسُون، الذين أحبّوا الله وصاروا مكمَّلين في الآلام والتجارب، نالوا من الملك السماوي أكاليل لا تفنى بمجد وتسبيح.

أما أنا، البائس، فإني أخطأُ بدون تجارب؛ إني أثير سيّدي وأمرمره.

لكني، وقد تعلمتُ بخبرة رأفتك الوافرة وغير الموصوفة، يا رب، فإني أتوسل إلى عظمة نعمتك. خلّصني وهبْ عبدك سؤال قلبه، من كنوز حنوّك، حتى تفيض نعمتك بدون توقف في قلبي وعلى شفتيّ مثل نهر؛ حتى يصير قلبي، بفضل نعمتك، هيكلاً نقياً وطاهراً يستقبل في ذاته الملك السماوي؛ حتى يضع إصبعُ النعمة لساني في حركة على الدوام، مثل وتر قيثارة، لخدمة مجدك يا محب البشر؛ حتى أمجّدك أنا بدون توقف، طوال أيام حياتي، وأباركك بالمحبة بالقلب والشفتين معاً.

أيها المسيح المخلّص! هَبْ لي سؤال قلبي، حتى يصير

لساني مثل مزمار عذب الصوت؛ حتى بتعزية الآخرين وإنارتهم وتثقيفهم أسددُ نصيباً صغيراً من دَيني العظيم وأُخلَّص، وأنا محميٌّ برحمتك، عندما تنتصب كل نفس مرتعدة أمام مجدك المرعب.

حقاً، أيها السيد، ابن الله الوحيد، أصغِ إليّ واقبل طلبة عبدك كتقدمة. فأنا، الخاطىء، مخلَّصٌ بنعمتك. بكَ، يا مَن تخلّص خاطئاً برأفتك، يليق كل مجد إلى الدهور.

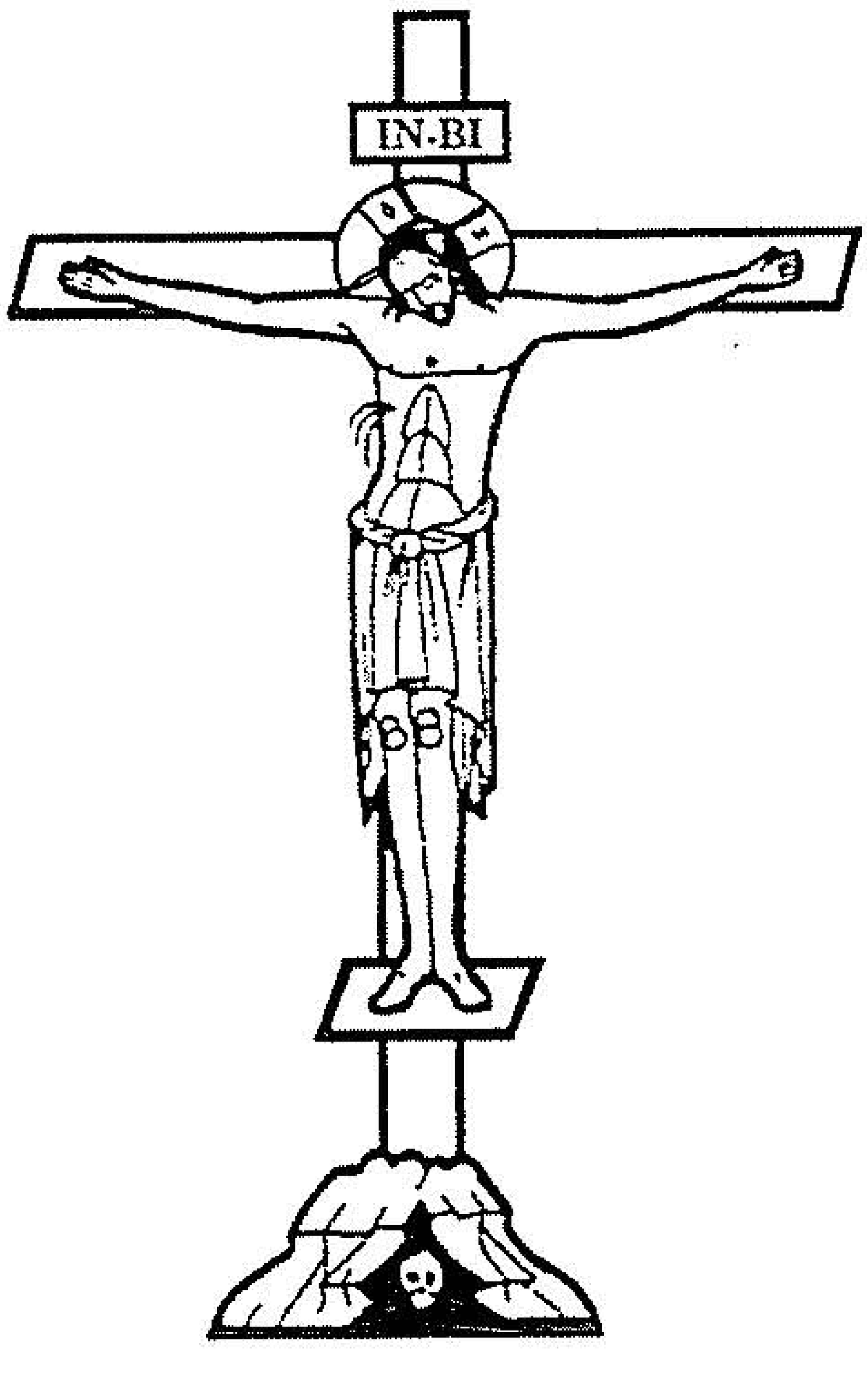

-١١٠-

ابكوا، لأن الخزي والعار ينتظران المتوانين

سيهتف بوقٌ من السماء قائلاً: استيقظوا يا محبّي المسيح. هوذا الملك السماوي قد أتى ليعطيكم رقاداً وفرحاً في الحياة الأبدية مقابل أتعابكم النسكية. استيقظوا وعاينوا المسيحَ الملك، العريس الذي لا يموت، الذي أحببتموه. عاينوا ملكوته الذي أعدَّ لكم. تعالوا وابتهجوا سوية معه في فرح لا يُعبَّر عنه.

وأولئك الأبرار والجديرون بالله سيحلّقون عالياً في الهواء بمجد لا يوصف، وكل المتمردين سيبقون أسفل بخزي فاحشٍ. الذين قد تعبوا هنا سينالون غبطة وفرحاً؛ كل الخاطئين سينالون الخزي والعقاب.

طوبى للذي تعب هنا ليجعل ذاته مستحقاً في تلك الساعة، وتعيس هو الذي جعل ذاته غير مستحق في تلك الساعة. ستجمع الغيومُ كلَ القديسين من الأرض وتحملهم إلى السماء، لكن الملائكة ستختطف المتمردين وتطرحهم في الأتون الذي يحترق بنار لا تُطفأ.

مَن سيمنح رأسي مياهاً وافرة وعينيَّ ينبوعاً يفيض أبداً

بالدموع، لكي أبكي على ذاتي نهاراً وليلاً، متوسلاً إلى الله كي لا أوجَد غير مستحق في ساعة مجيئه، وكي لا أسمع من سيدي الحكم الرهيبِ: "إليكَ عني، يا فاعل الإثم؛ إني لا أعرف من أين أنت".

أيها الإله الذي في الأعالي، الذي لا يموت! أظهرْ لهذا الخاطئ رأفتك العظيمة في تلك الساعة، كي لا يعرف الشهودُ خداعي الخفي هناك: الملائكة، رؤساء الملائكة، الأنبياء، الرسل، الأبرار والقديسون. خلِّص بنعمتك ورأفتك هذا المتمرّد، وقدْه إلى الفردوس العذب سوية مع الأبرار الذين هم كاملين. اقبل توسّل خادمك، بحسب صلوات القديسين الذين أرضوك!

-١١١-

لوالدة الإله: اعتراف ببتوليتها الدائمة وصلاة للاشتراك في الأسرار الإلهية باستحقاق

يا أم الله، التي تفوق كل ذهن وكلمة! أيتها العذراء التي تفوق كل عذرية أرضية؛ إذ حتى قبل الولادة الإلهية كنت عذراء فائقة لكل العذارى، وبقيت هكذا خلال الولادة وبعدها!

إليك أيتها السيدة أتوسل، إليك أتضرع، أيتها الأم الرحيمة الوادّة الإنسان، يا أم الله الرحيم الوادّ الإنسان: دافعي عني في هذه الساعة إن كنت ستفعلين هكذا، لأني الآن في أمسّ الحاجة لحمايتك ومعونَتك.

أنا بكليتي في حمأة من القذارة والخطيئة، في مسكن للأهواء المُفسدة للنفس. ومع ذلك أنوي أن أقترب من أسرار ابنك وإلهك الكلية النقاوة والمرعبة، وبالتالي أعاني الخوف، وتتملكني الرعدة بسبب كثرة خطاياي التي لا تُحتَمل.

لكن إن كنتُ سأبقى بدون مناولة بحجة عدم استحقاقي[٢٨]، فسأسقط عندئذ في لجّة مهولة من الشر

(٢٨) أفرام يرفض حجج المبتعدين عن المناولة. فهي ضرورية على الدوام. (راجع كتيّب الأب اسبيرو جبور: التوبة والمناولة المتواترة).

وأجلب على ذاتي عقاباً شديداً. إني أتألّم بسبب البديل الأول والثاني معاً.

إليك أهرع؛ ترأفي عليّ يا سيدتي الكلية النقاوة. استغلّي جرأتك الوالدية أمام ابنك وإلهك، واكسبي لي مغفرة خطاياي السابقة. تعطّفي عليّ كيَ أصير طاهراً ومستنيراً بمناولة الأسرار، وأظهري لي كيف أنفق بقية حياتي في التوبة، والطهارة والتواضع. ابقي دائماً معي في أفكاري وكلماتي وأفعالي، في كل حركات نفسي وجسدي، مرشدةً إياي، وأنت تقودينني وتوجهينني، مشتِّتة عني كل القوى المعادية، وحافظة إياي ومانحة خادمك، مهما يكن غير مستحق، نعمتكِ بكل طريقة.

-١١٢-

شفاءٌ للنفس مُشتَرىً بالدموع

يا مانح كل الصالحات، يا ينبوع الشفاء وكنز الرأفة، أنتَ وحدك الله الصالح والرؤوف، يا مَن تهب دائماً الصالحات للذين يسألون! أتضرّع إليك، أن تُنزل نعمتك الوافرة عليّ وتجمّع ذهني وتشفي قروحي الخفية من جديد معاً، لأن التشتتات والأفكار الهائمة تجدّد قروحي الخفية على الدوام.

أيها الرب الطويل الأناة يا مَن تشفي دائماً بالنعمة والرأفة، اشفِ الضعفات الروحية الكبيرة التي فيّ، أنا الخاطئ!

ليس لديّ شيء لأقدمه إليك، أيها السيد، مقابل معالجاتك. وأي سعر يمكن أن يعيّن لمعالجاتك؟ لا السماء ولا الأرض تستطيعان إعطاءك مقابلاً جديراً بها. من المستحيل أن نشتري هذه المعالجات السماوية القدوسة، لأنها فائقة الثمن. إنك تعطيها فقط مقابل الدموع، يا مخلّصنا، وبدل النواح المرير تمنحها أنت للكل.

فيا سيدي، هَبْ لي أنا غير المستحق، دموعاً وقوة

يومياً، حتى يستنير قلبي، المُشرك والطافح بينابيع دموع، بالصلاة النقية بدون توقف، وحتى تمحو دموعٌ قليلة سجلّ خطاياي الثقيل، وحتى يُطفئ مقدارٌ صغيرٌ من البكاء النارَ التي تحرق في الداخل. لأني إن بكيتُ هنا، فسأخلَّص هناك من النار التي لا تُطفأ.

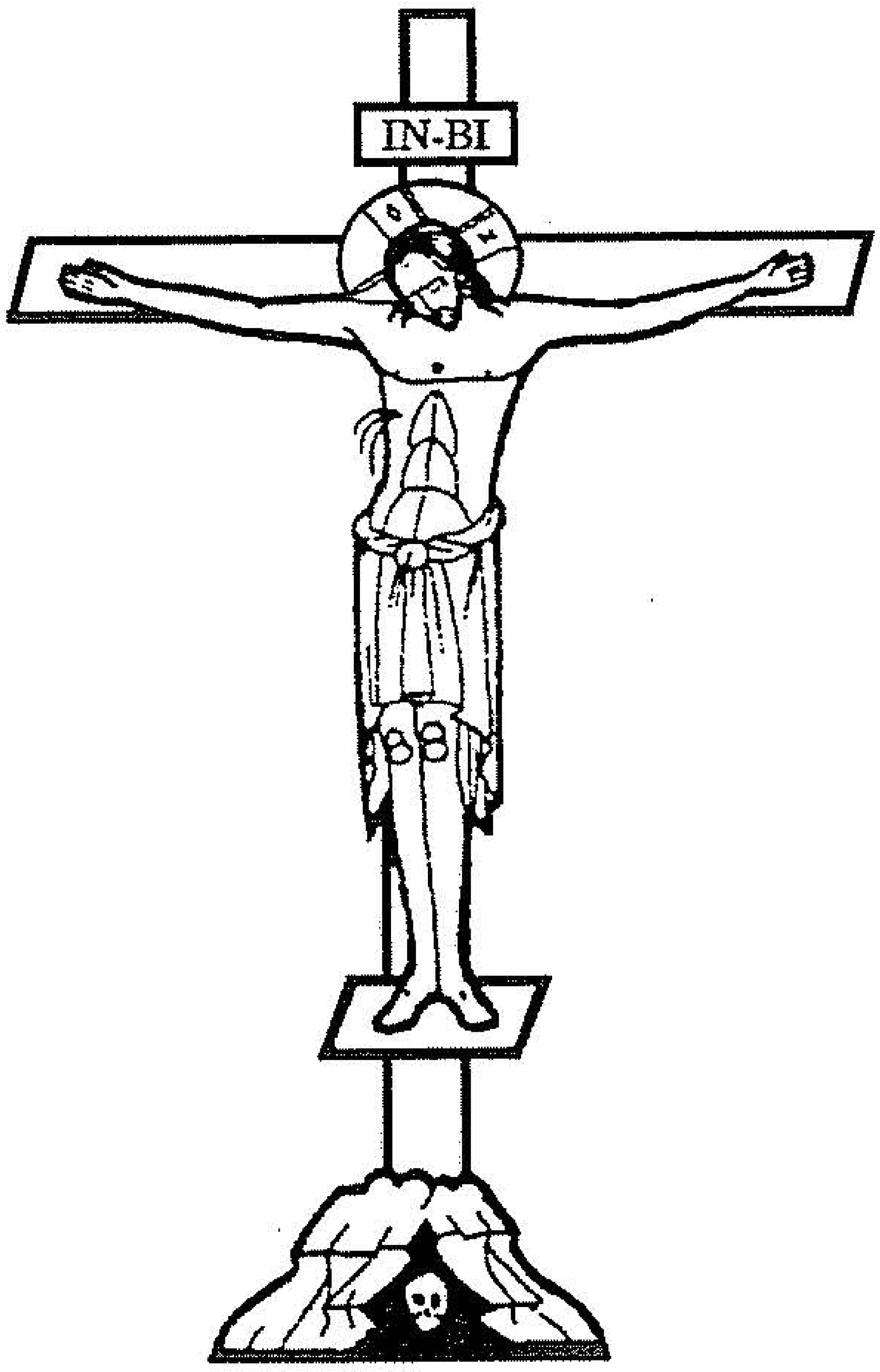

-١١٣-

اطرد العدو، لأنه بدونك مَن يستطيع أن يتغلّب عليه؟

كل يوم أستفزُّ صبرك الطويل الأناة يا سيد. أمام عينيَّ يوجد بؤسي وحنوّك على حد سواء.

لأني تحت سلطان العدو النجس الذي يضطهدني دائماً، فسأدعو حنوك بدموعٍ نهاراً وليلاً، حتى تخلّصني من هجماته. لأنه مَن يستطيعُ تحمّل الشرير، إذا انسحبَتْ نعمتُك منه حتى ولو لدقيقة واحدة يا سيد؟

ساعة تلو ساعة يضطهد العدوُ نفسي بالكلمات والأعمال معاً. فلتنتهرْه أيضاً قوتُك أيها المسيح، التي انتهرت أمواج البحر، حتى لا يكون له سلطان عليّ، أنا عبدك. لأنه يجدّد مكره الشرير ضدي يومياً، ويهرع إلى الإمساك بذهني، ساحباً إياه بعيداً عن حلاوة وصاياك الإلهية وعن التعاليم الخلاصية التي تحتويها. أرسل نعمتك بسرعة يا سيد، لتقصي من عبدك الثعبان العظيم وكل أفكاره النجسة والشريرة.

الأرملة المُهانة تقترب من القاضي القاسي القلب والجائر، حتى ينصفها من خصمها؛ لكني أقترب من سيدي

الرؤوف القلب، الذي هو طويل الأناة وصـالح، الذي في سلطانه السماء والأرض، حتى يسارع إلى سماعي. أنتَ يا مَن تقدّم إنصافك إلى جميع الذين يرجونك نهاراً وليلاً، لا تتوانَ عن إنصافي يا سيد. اختطفني من العدو ووجِّه طريقي إليك، حتى إذا غلبتُ العدوَ بنعمتك، أباركك، يا مَن أنت رؤوم القلب وطويل الأناة، وأمجّدك يا مَن وحدك تتوق إلى خلاص جميع البشر.

-١١٤-

النعمة تقترب، وتجد القلب نجساً فتنسحب: إذاً احفظ قلبك نقياً

يمنحنا الله الصالح استنارة المعرفة، ونعمته تفتقد قلوبنا دائماً. فإن وجدَتْ سلاماً هناك، تدخل وتسكن على الدوام في النفس. أما إذا لم تجد القلب طاهراً، تنسحب للحال. ومع ذلك تشجعها الرأفة على النزول من جديد، وتفتقدنا نحن الخطاة، لأننا كلنا متقلّبون بسبب إرادتنا الحرة، لا بسبب الطبيعة[٢٨مكرر].

إننا مشتَّتون وضعفاء دائماً، حسودون وأشرارٌ؛ كثيراً ما نظن السوء أحدنا بالآخر؛ نُشغل أنفسنا بأفكار شريرة، وننغمس دائماً في حمأة الأفكار النجسة. هكذا عندما تأتي النعمة لتفتقدنا وتواجه في قلوبنا نتانة الأفكار النجسة، تنسحب للحال بدون السعي نحو مدخل، حتى تجعل سكناها هناك وتقطن فينا كما هو مرضيٌّ لها. إنها تترك مجرد أثر من حلاوتها الباهرة في القلب، حتى يدرك المرء أن النعمة قد زارته ولكنها لم تجد مدخلاً، وحتى يفتش عنها إذ تنعّم ببهاء النعمة[٢٩].

(٢٨مكرر) "التغلّب" النفسي موضوع هام لدى الآباء: حالاتنا النفسية لا تعرف الاستقرار. والاخطر فيها الغدر والخيانة والتضادّ

(٢٩) شبيه هنا بالقديس سمعان اللاهوتي الجديد.

هل ترى عناية الله؟ هل ترى رأفة المسيح؟ هل ترى كيف يحبنا الله ويريدنا أن نُخلَّص وهو القدوس دائماً؟

طوبى للذي يجاهد أبداً ليحضرّ قلباً نقياً للنعمة، حتى عندما تأتي تجد أريج الفضائل ومكاناً مقدساً في النفس فتستقر في الداخل إلى دهر الدهور.

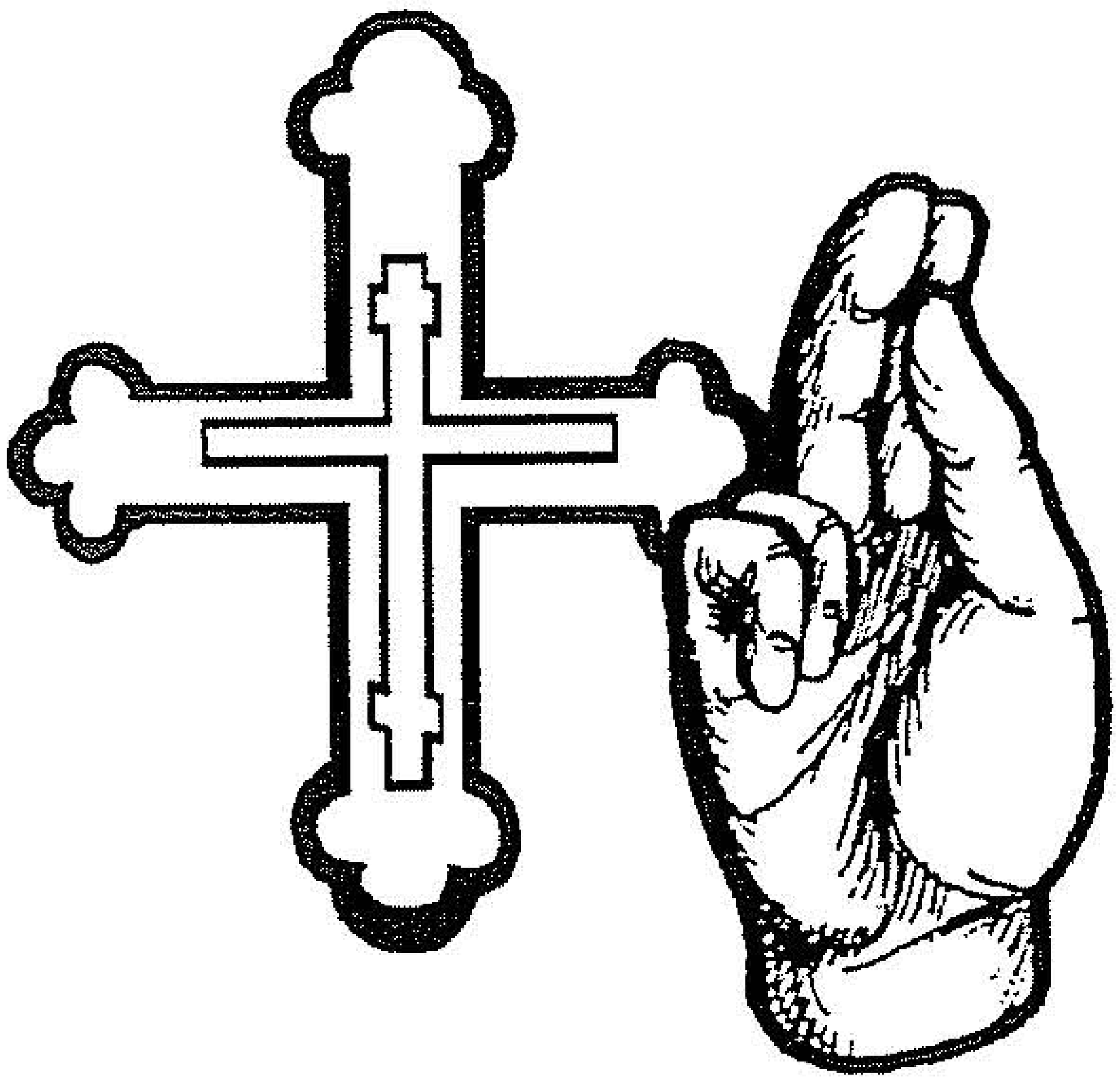

-١١٥-

بسبب فسادي الشديد، فأنا غير مستحق أن اقترب منك يا رب، وأن أصلي إليك

حتى الآن وفي هذا اليوم بالذات، وبوجهي المخزي والمطأطأ، أجرؤ على التكلم إليك يا سيد الملائكة وخالق كل الأشياء: أنا الأرض والتراب، عارٌ على البشر وإهانة للبشرية؛ أنا، المَدين، المُغطَّى بالجروح والمملوء باليأس. كيف أرفع نظري لأقابل نعمتك يا سيد؟ كيف سأجد الجرأة لأحرّك لساني النجس الملوَّث؟ كيف سأبدأ اعترافي؟

أنا التعيس قد أهنتُ اسمكَ بدون حدود وعشتُ باستهتار، أكثر بكثير من الابن الخليع. بشخصي دنَّستُ وأفسدتُ صورتك، لأني لم أبالِ بوصاياك.

إني أعرف، يا رب، أنه بسبب كثرة وصماتي الروحية ونجاستي أنا غير مستحق أن أحمل اسمك القدوس؛ لا أستطيع الوقوف أمامك في الصلاة؛ لا أستطيع النظر إلى أعلى لأعاين أعالي السماء، لأني فتحتُ البابَ لشهوة تستحق الشجب واستسلمتُ لنزوات غير لائقة؛ وهكذا لوَّثتُ نفسي البائسة بالأهواء وأغرقتُ لباسَ نفسي في

الظلام بفجور مشيئتي. ذهني كله مملوء من أفكار شيطانية. بأفعالي وأفكاري كلها أحزنتُ نعمتك، وأستمرُّ في فعل هذا على الدوام. ورغم ذلك فأنا دائماً أُسِرُّ وأُرضي عدوي الذي يشنّ حرباً عليَّ.

ضميري يكشف ضلال ذهني؛ في قلبي أغطي وجهي بخزي. أمام القاضي الذي ينتظرني أدينُ نفسي.

بانتصار تجرّني العادات الفاسقة التي لا تتركني أبداً. ألوّث ذاتي دائماً في حمأة الشهوانية. إني مُشْرِكٌ دائماً بأفكار نجسة؛ منذ شبابي صرتُ آنية للخطية المُفسدة. وحتى هذا اليوم، وإن كنتُ أسمع يومياً عن الدينونة وعن العقوبات العادلة التي ستوزَّع، فإني لا أملك الإرادة لأعارض الشهوة الجسدانية. بدون توقف أُخضِع ذاتي للمخاطر؛ بدون توقف أجعل ذاتي سجينةً.

الويل لي يا رب؛ لقد بدّدتُ بصورة مخيفة صبرك الطويل الأناة! الويل لي؛ كم من السنوات الكثيرة أنفقتُ مهيناً روحك القدوس! الويل لي؛ لقد أُنفق زمان حياتي في كل نوع من المحاولات الباطلة!.. لكن يا رب، لا تفضحني في غضبك؛ لا تُظهر أفعالي الكريهة الشائنة في مكان الخزي العام أمام الملائكة والبشر، لخزيي وإدانتي الأبدية، ولو إني أستحق فعلاً كل خزي وإدانة. بحسب رأفتك العظيمة وحدها ارحمني وطَهِّرْ كلَّ خطاياي أمام القاضي.

-١١٦-

الموت والدينونة يقودانا إلى التوبة

تأملّتُ في اليوم الذي ستنتهي فيه حياتي، وتأوهّتُ عندما رأيت كثرة تعدياتي وثقل آثامي، وعندما أدركت كم من ضلالاتي ستُكشف للكل لرؤيتها. هناك لن يوجد مكان للتوبة، للدموع والصلوات؛ بدلاً منها، سينال كل واحد مجازاته بحسب أتعابه، مجازاة بحسب أعماله؛ فلا البكاء ولا المعاناة سيميلان القاضي العادل إلى الرحمة. أظهِرْ لي رحمتك الرؤوف يا محب البشر!

في اليوم عندما تُفتح قبور الموتى، سيُنفخ في البوق. سيُرعد صوتُه وسيلفّ الكونَ رعدةٌ وخوف هائلان، وستنزل كل الملائكة بحسب أمرك لفصل الصالحين عن الأشرار، وستظهر غيومٌ من نار وتحمل أجساد القديسين الطاهرة. في ذلك اليوم، لتَظْهرْ رأفتك لي أنا أيضاً، حتى أقف عن يمناك أيها الرب الصالح وأنال رحمة!

في أفكاري نزلتُ إلى القبور لأرى فسادنا، وعندما فحَصْتُ ما دُفن في الداخل صرختُ: لا تترك عبدك يا رب! أقمني أناَ الهالك، وسأسبّح سلطانك؛ اغلبْ الشرير

الذي فـرح بي في يوم حـزني وارحـمني، لأني وضـعت رجائي فيك.

في النهاية تنتظر دينونةٌ بدون رحـمـة أولئك الذين قـد خطئوا ولم يتوبوا عن أعمالهم الشريرة. لكن الذين تصرّفوا ببرٍّ وحـفظوا وصـايا ربهم سينالون منه صـالحـات السـمـاء ويرثون حياة أبدية. سيكون ابتهاجٌ عادل بأعمالهم؛ سيبتهج القديسون بالمكافآت التي سينالونها.

آونا كلنا في خـدرك الزفـافي يا رب، يا مَن هو رؤوف القلب نحو الخطاة!

-١١٧-

ثمانية أفكارٍ شريرة

اعلمْ أنه توجد ثمانية أفكار شريرة تُحدث كل ما هو فاسد: ألا وهي أفكار(*) الشهوانية والفسق ومحبة المال والغضب والحزن غير الملائم والكآبة والمجد الباطل والكبرياء. كل هذه تشنّ حرباً على كل إنسان.

إن أردت التغلّب على الشهوانية، فتمسّك بالإمساك، وامتلك مخافة الله: وأنت ستغلبها.

إن أردت هزم الفسق، فتمسكْ باليقظة والعطش، وتأمّل الموت دائماً، ولا تتحدث إلى امرأة قط: وأنت ستغلبها.

إن أردت هزم محبة المال، فتمسّكْ بعدم القنيّة والاقتصاد.

إن أردت هزم الغضب، فاقتن الوداعة والسخاء، وتذكّر كم من الشر فعل اليهود لربنا يسوع المسيح؛ ورغم ذلك لم يصَر، وهو الله المحب البشر، غاضباً عليهم؛ بل

(*) لم يذكر الشراهة والحسد كما فعل غريغوريوس اللاهوتي وايفاغريوس وكاسيانوس والسلمي.

على العكس من ذلك صلّى من أجلهم قـائلاً: "يا أبتـاه، اغفر لهم هذه الخطية، لأنهم لا يعلمون ماذا يفعلون".

إن أردت التغلّب على الحزن غير الملائم، فلا تحزنْ قط على أي شيء زائل. فإذا آذاك الناس بالكلمات أو أزعجوك أو أهانوك، فـلا تقنط؛ بل على العكس من ذلك ابتـهجْ. احزنْ فقط عندما تخطأ، وحتى في هذه الحالة لا تتطرّف، كيلا تسقط في اليأس وتهلك.

إن أردت التغلّب على الكآبة، فالتقطْ عملاً يدوياً ما لفترة يسيرة، أو اقرأ أو صلِّ بحرارة.

إن أردت التغلّب على المجد الباطل، فلا تحب المديح ولا الكرامـة، ولا الملابس الفـاخـرة، ولا التـعـدّد، ولا الحظوة؛ بل على العكس من ذلك، اغـتنم الفـرَص عندمـا تؤنَّب وتُهـان، عندمـا تُوجَّـه إليك تهمٌ كـاذبة: وبِّخْ ذاتك لكونك خاطئاً أكثر من أي خاطئ.

إن أردت التغلّب على الكبرياء، فعندئذ مهـما يكن ما تفعل فلا تقلْ إنك تفعله بجهودك الخاصة، أو بقوتك أنت. بل إن صمتَ أو وقـفت ساهراً أو نمت على الأرض العـارية أو رتلّت مزامير، أو خدمت في الهيكل أو فعلت عدداً كبيراً من السـجـدات، فـقلْ إنه تمَّ بمعونة الله وحـمـايتـه، وليس بقوتك وجهدك أنت.

-١١٨-

السبح للرب
الذي اتخذ جسداً من أجل خلاصنا

السبح للذي نزل إلينا في صورة بشرية! السبح لغير المنظور الذي صار منظوراً من أجلنا! السبح للأزلي الذي ذاق الموت من أجلنا! السبح لغير المدرك الذي لا يمكن لأي ذهن أن يفهمه، والذي بنعمته جعل ذاته ظاهراً بلبسه جسدنا!

مبارك الذي أحضَرَته إرادتُه الصالحة إلى رحم أمه وحضنها، ليُولد ويُربَّى! مبارك الذي اشترك بالموت ومنح بالتالي حياةً للبشرية.

مبارك الذي جعل جسدنا مسكناً لكيانه السرّي. مبارك الذي أعلن لنا أسراره بلساننا نحن.

السبح للذي حرّرنا، وقد قُيِّد من أجلنا. المجد للذي هو وافرُ الرحمة، الذي افتدانا بدون استرداد شيء بالمقابل. السبح للقاضي الذي قَبِلَ الإدانة من أجلنا.

لنسجدْ للذي أنار ذهننا بتعليمه ومهّد طريقاً لكلمته في أسماعنا. لنقدِّمْ الشكر للذي غرس ثمرَه في شجرتنا.

السبح للذي يحرث بصورة غير منظورة روحنا. مبارك للذي ناغم حواسَّ روحنا، كي تعزف له دائماً أناشيد الرفعة على قيثارتها.

-١١٩-

لقد خطئتُ فاغفر لي.
سأحاول تصحيح ذاتي بمعونة نعمتك

اقتربْ من الآب الرؤوف، أيها الخاطئ، واعترفْ بخطاياك قائلاً بدموع: لقد خطئتُ أمام السماء وأمامك، أيها الرب الإله الكليّ القدرة، ولستُ مستحقاً بعدُ أن أُدعى ابنك، حتى ولا أن ألفظ اسمكَ المجيد بشفتيّ الخاطئتين، لأني جعلت ذاتي غير مستحق للسماء والأرض وذلك بإثارة غضبك أيها السيد الصالح!

أتضرّع إليك يا رب: لا تُقصني من أمام وجهك ولا تتنحَّ عنِّي، حتى لا أهلك. لو لم تحمني يدك اليمنى لكنتُ قد فنيتُ سلفاً؛ لكنتُ مثل غبار أمام الريح؛ لكنتُ كما لو لم أظهر قط في هذا العالم. حقاً منذ الزمان الذي تركتُ فيه طريقك، لم أصادف يوماً واحداً صالحاً، لأن يوماً منقضياً في الخطيئة، ولو قد كان يبدو صالحاً، هو في الواقع أكثر مرارة من كل الأشياء المريرة.

ومنذ هذا اليوم فصاعداً سأرجو رحمتك، حتى تعطيني قوةً لأتمّم خلاصي. فالآن أجثو أمامك وأتوسّل إليك: ساعدني، أنا الذي تهتُ عن طريق الحق. أمطرني برأفتك

مثل الابن الخليع، لأني صنعتُ خزياً لحياتي وبدَّدتُ وفرةَ نعمتك. ارحمني ولا توبخني على فساد حياتي. ارحمني، كما رحمتَ الزانية والعشّار؛ ترأّف عليّ كما ترأفتَ على اللص؛ فعلى الأرض كان منبوذاً من كل واحد، لكنك قبلته وجعلته ساكناً للفردوس الحلو. اقبل توبتي أيضاً، لأني أنا أيضاً قد رُفضت من كل واحد. أنت يا رب لم تأت لتخلّص الأبرار بل لتدعو الخطاة إلى التوبة: اقبلني إذاً أناَ أيضاً، أنا الذي أتوب أمامك.

-١٢٠-

كم من المرات قد وعدتُ، ومع ذلك فشلتُ في حفظ كلمتي في كل مرة.

هَبْ يا رب غفراناً؛ أرسلْ قوةً أيضاً. حوّلني كي أعيش في قداسة بحسب مشيئتك(*) القدوسة. قدّس قلبي الذي صار مغارةً للشياطين ومسكناً لهم.

أنا غير مستحق أن أسأل مغفرةً عن نفسي يا رب، لأني مرات كثيرة قد وعدتُ بالتوبة وأثبتُّ أني كاذب في عدم إتمامي لوعدي. لقد التقطتني مرات كثيرة سلفاً، لكني اخترتُ، وبحرية كل مرة، أن أسقط مرة أخرى.

لهذا أدينُ نفسي واعترفُ أني أستحقُ كلَ نوع من العقوبة والتعذيب. كم من المرات الكثيرة قد أنرتَ ذهني المظلم؛ مع ذلك أعودُ في كل مرة إلى الأفكار الخسيسة مرة أخرى! جسدي بجملته يرتعد عندما أتأمّل هذا؛ ومع ذلك في كل مرة تغلبني الشهوات الخاطئة من جديد.

(*) فكرة التحويل وردت قبلاً. في كتاب "الاعتراف والتحليل النفسي" نصوص عديدة للآباء في تحويل الاهواء "يوحنا السلمي، مكسيموس بالاماس. . . " . سبقهم افرام.

كيف أعدِّدُ كلَ عطايا نعمتك، يا رب، التي نلتُها أنا المَرثي له؟ ومع ذلك، ببلادتي قلّصتُها كلها إلى لا شيء؛ وأستمرُّ أنا على هذا المنوال. لقد وهبتني ألوفاً من العطايا، مع ذلك أقدّمُ أنا البائس بالمقابل أشياء بغيضةً إليك.

ورغم ذلك يا رب، بمقدار ما تحتوي أنت على يمٍّ من طول الأناة ولجّةً من الحنان، لا تسمح لي أن أُقطَع كشجرة تين عقيمة؛ ولا تسمح لي أن أُحرَق بدون أن أنضج في حقل الحياة. لا تختطفني بدون أن استعد؛ لا تُمسك بي أنا الذي لم أُشعل بعدُ مصباحي؛ لا تُبعدني أنا الذي لا أملك وشاح زفاف؛ لكن لأنك صالح ومحب للبشر، ارحمني. أعطني وقتاً للتوبة، ولا تضع نفسي معرَّاةً أمام عرشك الرهيب والراسخ كمشهد عار يُرثى له.

إن كان البارُّ بالكاد يُخلَّص، فأين سأنتهي عندئذ، أنا المتمرّد والخاطىء؟ إن كانت الطريق المؤدية إلى الحياة مستقيمةً وضيقةً، فكيف أُمنح أنا عندئذ صالحات كهذه، أنا الذي أعيش حياة ترف، منغمساً في لذّاتي وإسرافي؟ لكن أنت يا رب، مخلّصيً، ابن الله الحقيقيّ، كما تعرف وترغب، بنعمتك وحدها أبعدني مجاناً عن الخطية التي تسكن فيّ وخلّصني من الهلاك.

-١٢١-

حوّلني بالقوة؛
لا تنتظر مني أن أختار هذا بمشيئتي الحرة

كيف سأنوح على عمى نفسي؟ كيف سأنوح على جهلي الفاجع لذاتي؟ كيف سأنوح على استعمالي الشهواني والاعتباطي غير التائب لمشيئتي الحرّة؟ الروح القدس يؤَاسي النسّاك ويعزّيهم؛ لكني أتعذّب وأشتكي من التعاسة التي سبّبتها بلادتي. لقد انحدرتُ إلى مستوى الوحوش العديمة الحس وصِرتُ مثلها. كما إني تعِس، تعرّيت بكسلي لأني أغرِّب ذاتي عن الذين يقفون ساهرين ويصلّون.

انظرْ إليّ برحمة يا سيد من علاليك المقدسة. انظر إلى عدم توبة نفسي البآئسة، وبأحكامٍ أنت تعرفها ارحمني وأصلحني. كما لو كنتُ واقفاً أمام عرشك ولامساً قدميك الطاهرتين، أتوسّل وأتضرّع إليك بقلب منسحق: ارحمني؛ أظهِرْ حنوّك على خليقتك؛ بسخاء حوِّلني بنعمتك.

إني عارفٌ أنك تستطيعَ فعلَ كل شيء، وأنه لا يوجد شيءٌ مستحيل عليك. لا تنتظر أن تعمل مشيئتي الفاسدة، لأني أفتقد الطموح لتصحيح ذاتي.

لتبك كلُ خليقة منظورة وغير منظورة عليّ، أنا الذي شـــختُ في الخطايا والأهواء. ابكوا عليّ أنا الذي أظهـرُ للذين يروني أنني عفيفٌ، ومع ذلك فإني داخلياً زانٍ دائماً.

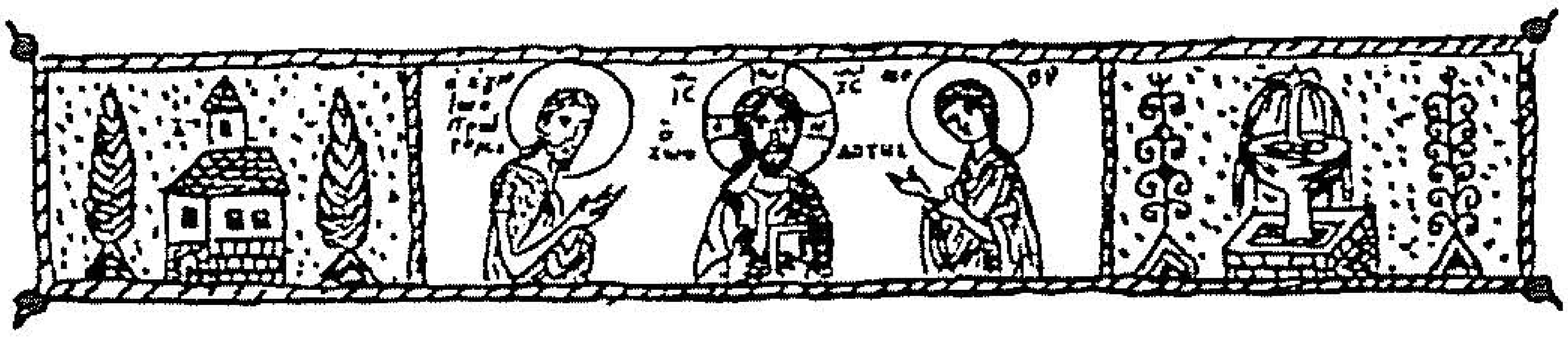

-١٢٢-

أخيراً حان الوقت لندرك خداع العدو ولنسترد صوابنا

اهتم بخلاصك أخيراً أيها الخاطئ. اعزلْ ذاتك، استجمعْ أفكارك وقلْ لذاتك: كم من الزمان قد أمضيتَ مُطعماً لشهوات جسدك ومخيلتك، وأية فائدة قد جنيتَ؛ علىَ ماذا حصلت بفعل هذا؟ واحسرتاه يا نفسي، إلى أية حالة قد وصلنا، إلى أي اضطراب!

انظرْ: كل واحد حولي مزيَّن بفضائل ويخاف الله حقاً، أما أنا فوحدي أمشي في الظلمة. باكراً في الصباح أتوب عن أعمالي، ومع ذلك فإني أرتكب ضلالات أسوأ بعد هنيهة يسيرة. الرب أعطاني قوة وصحة وعجباً! أقبلُ هذا بالبديهة وأثيرُ غضب خالقي.

لماذا أنت بليدة جداً يا نفسي؟ لماذا أنت مُهملة جداً؟ بعد كل شيء لا يَمكنك البقاء هنا إلى الأبد. عندماَ تأتي النهاية سيرسل الربُ ملاكه ليُمسك بك وستضطرين إلى مغادرة هذا المكان سواء كنت تريدين هذا أم لا. ماذا عندئذ؟

سلِّمْ أخيراً بتعاسَتك الشديدة أيها الإنسان، وكفَّ عن مناقضة الذي خلقك وعن معارضة وصاياه، وقلْ بشجاعة للعدو الذي يُغويك:

أنت أيها الشيطان قد جعلتني موضع عار للملائكة والبشر عندما أخذتُ بنصيحتك المنحطّة. لقد ألهمتني أن أفكر: لمرة واحدة سأُشبع تضوّري وعجباً! هذا العمل الصغير صار لي لجة عظيمة وأسلمتُ ذاتي لشهواتك المخزية. الماء وجد شقّاً صغيراً وجعل منه صدعاً كبيراً.

لقد غشّيتَ ذهني بأفكار نجسة فقذفت بي من خطية إلى خطية. لقد أفنيتَ إمساكي بحجة ضعف جسدي. لقد غرّبتني عن الصلاة والسهر. لقد غرستَ فيّ محبةَ المال، مبرّراً هذا باقتراب سنوات طويلة من العمر المتقدم. لقد جفّفتَ دموعي. قسّيتَ قلبي. لقد جعلتني أَتيْهُ عن الطاعة للمسيح. لقد أكثرتَ تشتّتاتي. جعلتني عاصياً. لقد وصلتُ إلى النقطة حيث أفشلُ بالتعب وراء الأشياء الضرورية وأنشغل بمحاولات باطلة بدلاً منها. لقد علّمتني الحسدَ والافتراء. جعلتني متغطرساً، نزقاً وغضوباً. لقد علّمتني الشراهة والسُكر والشهوانية. لقد دربّتَ أفكاري أن تتبدّد وأنا أقرأُ وأرتل المزامير؛ هكذا أصلّي وأنا لا أعرف عمّا أصلّي؛ اقرأُ المزامير وفي الوقت نفسه أُسْلِمُ أفكاري إلى انحرافات بدون قيود.

بعد كشف خدَعَ العدو هكذا قلْ له باقتناع: حَسْبي وإياك أيها الشيطان. واتركْ الشرير وانضمَّ إلى الله المحب للإنسان. هل أنت مجروح؟ لا تيأسْ. هل سقطتَ؟ انهضْ

وقلْ بشجاعة: الآن قد بدأتُ. اجثُ أمام سيدك الرحيم واعترف بخطاياك.

لكن قبل أن تقول أي شيء هو يعرف سلفاً ماذا تنوي أن تقول. قبل أن تفتح شفتيك، سيرى هو ماذا في قلبك. لن تقدر أن تقول "قد خطئتُ" قبل أن تراه يمدّ يدَيه ليستقبلك ويعانقك.

اقترب بإيمان فسيطهرّك للحال كما طهّر المجزوم، ويرفعك من سريرك كما رفع المشلول، وسيُقيمك من الموت كما أقام لعازر.

-١٢٣-

اظهرْ رحمةً بحسب ضعفاتنا

أنا المغطّى بالقـروح بكليـتي أركض إلى حنوّك. اقـبل تنهّداتي كما قبلتَ دموع الزانية.

أنت تعرف، يا سيد، نقائص الطبيعة البشرية. اذكرْ أنه منذ شبابي تضغط الأفكار الشريرة باجتهاد على الإنسان، فلا تكن غاضباً عليَّ حتى النهاية، بل افتح لي يدك وباب حنوّك. فلا يفوق طيشي اهتمامَك.

اقبلْ يا سيد وأصغِ إلى تضرعي النجس غير المستحق، أنت يا مَن تخلّص الذين يضعون رجاءهم فيك، يا مَن لا ترفض صلاة الخطاة، يا مَن تمدّ يدك إلى الذين طُرحوا إلى الأرض. أرشدني بخوفك وأعطِني دموع انسحاقٍ.

رفعتُ عينَي نفسي الذهنيتين إليك يا رب. لا تطرحْني بعيداً عن وجهك، لأن اسمك مباركٌ إلى الدهور.

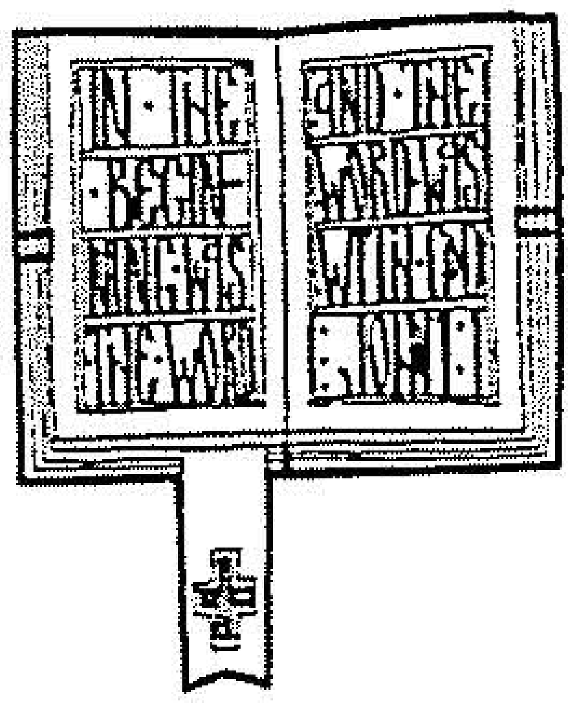

-١٢٤-

عقاب الله والمحبة

لقد أثرتُ غضبك بخطاياي يا رب؛ لكن ما يعاكس مشيئتك هو أن تكون حانقاً، لأنك تفيض بالرحمة الوافرة وسلطانك يفوق الاستفزاز.

أنت يمٌّ من الرأفة وأخطاؤنا ما هي إلا قطرة من مياه ملوَّثة. حتماً لا تستطيع قطرة واحدة أن تعكّر يماً لا يمكن حصره.

أنت لا تقلق عندما تستاء، ولا تحنق عندما تعاقب. إن كنتَ ستحنق عندما تعاقب، فالعالم لن يحتمل غضبك.

ضرباتك مليئة بالمحبة. عقابك مشتعلٌ بالرأفة. حتى عندما تعاقب، فإنك تسعى نحو الخير فقط بما ينسجم مع محبتك.

فالعصيّ التي بها تعاقب منحوتة من خشب حنوّك. لا يهم ماذا تلمس عصاك، فالضربة تُحدث منفعة عظيمة.

عندما يعاقب سيدٌ تلميذه، لا يضربه بدافع الكراهية بل كي ينفعه؛ وبدافع المحبة يوزِّع العقوبة. ضربتك أيضاً تضربني من المحبة، لأنك لا تعاقب بدافع الخبث. أنت، يا رب، ترغب في صلاحنا، وتُظهر حنوّك بطرق عديدة.

ليس من الصعب عليكَ أن تتحمّل أخطاءنا، لأنك خلقتَ طبيعتنا. خليقتك لا تُثقلك لأنك تعرفنا قبل أن نُخلَق.

مَن سيحتمل مشقّات الاهتمام بالطفل إن لم تكن أمه التي ولدته؟ مَن سيحتمل أخطاء العالم إن لم يكن رب الكل؟

من السهل على الخالق أن يحتمل كل الصعوبات التي ترتكبها خلائقه، لأنه لو لم يردْ أن يحتمل هذه الصعوبات لما كان قد خلقها.

هل تنسى امرأةٌ طفلها أو تقصّر في حبِّ الذين ينحدرون من رحمها؟ لكن حتى ولو وُجدت امرأة ستنسى طفلها، فإن الله لن ينسى العالم الذي خلقه.

رأفته الطبيعية قد تحرّكت، فحَبلَ وولَد خليقةً. مثل طفل من رحم أمه، هكذا أتى العالمُ من مشيئتهَ(*).

وهاهو يجمع العالم ويحمله، مثل أمٍ تحمل ثمرة رحمها، مُغذيَّةً إياه بحليبها.

لقد حملنا الآب الرؤوف القلب وهو يُطعمنا من دم ابنه. هكذا تعطي المرأة طفلها حلمتيها ليرضع كي تُطعمه.

يمصّ الرضيعُ الثديَ وينال من أمّه الطعام الذي يحتاجه. إنه يستخرج من حلمتي أمّه كلَّ الطعام الذي يحتاجه.

لا يعرف الرضيع أن يرفض ويبحث عن طعام في أي مكان آخر غير حضن أمه.

هكذا أيضاً ينال العالمُ الغذاءَ الداعم الحياة منك فقط، أيها الخالق؛ ولا أحد سواك وحدك يمكن أن يُطعمه.

(*) بند لاهوتي هام في لاهوت ديونيسيوس ومكسيموس.

-١٢٥-

دروس الحياة

عندما تقفَ أمام الله تذكَّر الذين يخدمون السلطات الأرضية. خذ مثلاً لك العبيد أمام أسيادهم عندما تتأمل وضعك.

تذكّر حالتك الخاطئة واطلب معونة الله.

تعلّم من القديسين واسأل نعمة الله في إتمام أي عملٍ (تعمله).

لا تكن فخوراً بنعمة الله ولا تستسلم للعصيان.

إذا نجحت في عمل الخير فلا تمدح ذاتك (مترفِّعاً) فوق بقية الناس. إذا خطئتَ بسبب الجهل، فلا تجبن، فأنتَ إنسانٌ. لا تتباهَ بنجاحاتك، ولا تيأسْ عندما تخطأ.

اسعَ بنشاط نحو الخير واضمر كرهاً مساوياً للشر.

لا تَدِنْ عندما تُسدي نصيحة، لأنك لا تعرف أسرار الله.

من الأفضل لك أن تُسلِّمَ للسيف من أن تُذعن للغضب. من الأفضل أن تخفي الغضب في القلب من أن تَعبّر عنه.

لا تنغمس في الثرثرة الفارغة، ولا تجلس في أماكن تنعقد فيها محادثة شهوانية. لا تطلب الشبعَ في الضحك واللّذةَ في الدعابات، حتى لا تصيرَ مشتَّتاً.

لا تكنْ مولَعاً بالاجتماعات المحتشدة بالجموع، لأنها تولِّد التشوّش في النفس.

تجنّب الولائم، كي لا تصير فاسقاً حتى في غياب النساء.

تجنّب النعومة كي لا تصير شهوانيًا(*). اهتم بلجْم الجسد، حتى لا يُغمسَ راكبَه - أي الذهنَ - في خطر.

سيطر على حواسك وصنها من التآكل بالصدأ كمقاتلٍ يصون أسلحته.

أمضِ الجزء الأفضل من وقتك في عزلة، كي تصير قادراً علىَ تفحّص ما هو مفيد لك عندما تكون في مجتمع الناس.

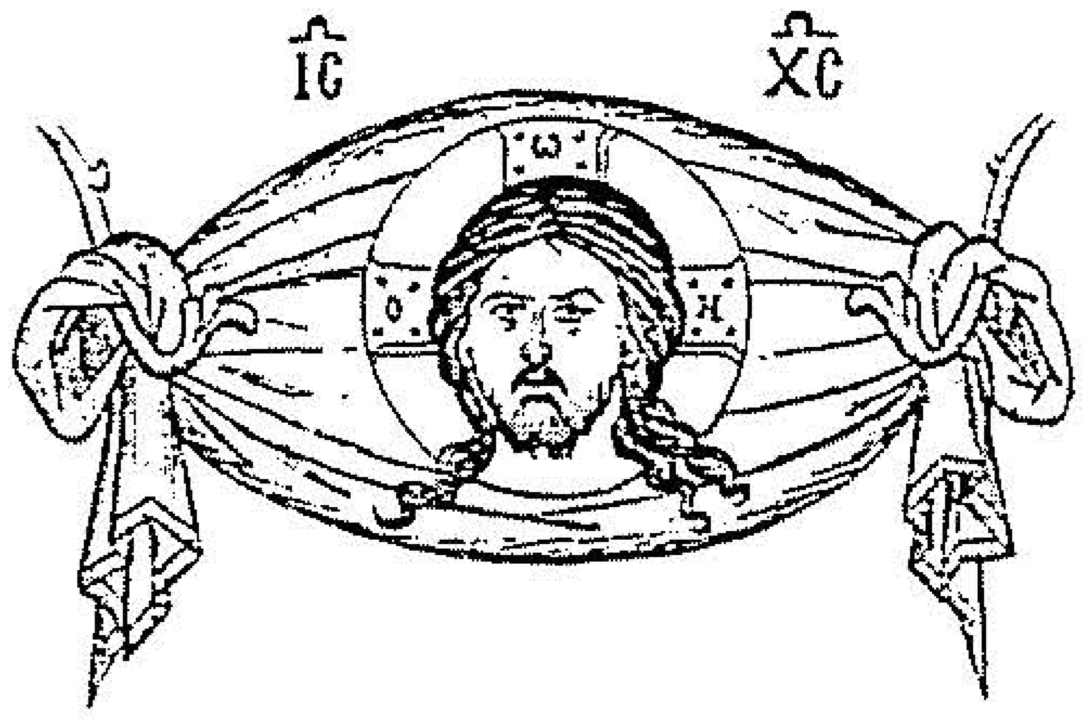

(*) بولس الرسول ربط الخلاعة بالسكر. النعومة هي حسّاسية ورقة مزاج ورخاوة. لن يخفّف النسك ميوعة الجسم المرهف الحسّ وشهوانيته: ملاحظات افرام النفسية عميقة جدًا.

-١٢٦-

لا تيأس ولا تثق بذاتك؛
بل بالحري اصرخ بتواضع إلى الرب برجاءٍ: ارحمني!

انظر، لا يقل أحدٌ: لقد ارتكبتُ خطايا كثيرة، لا يمكن أن توجد مغفرة لي. إن الذي يقول هذا لا يعرف أن الله هو إله التائبين، أنّه أتى إلى الأرض لا ليخلّص الأبرار بل ليدعو خطاة إلى التوبة، وأنّه عندما يتوب أحدهم تبتهج السموات.

تتألّف التوبة الحقيقية من الانسحاب من الخطية وتغذية الكراهية لها. يا للعجب، فعندما يقول أحدهم من قلبه: لقد كرهتُ الخداعَ ونُبذتُ منه، يقبله الله عندئذ بفرح.

لكن انظر، لا يتجرأ أحدٌ أيضاً على القول: لم أُخطأ. إن الذي يقول هذا هو أعمى؛ لقد أغلق عينيه. إنه يخدع نفسه ولا يعرف أن الشيطان يسرقه مُعْمىً بالكلام والفعل معاً، عبر كل حواسّه، النظر والسمع، واللمس، وعبر الأفكار. فمَن يستطيع أن يتبجّح أن له قلباً بريئاً وأن كل حواسّه نقيّة؟

لا يوجد إنسانٌ واحد بدون خطيئة، ولا أحد طاهرٌ من النجس، ولا أحد معتَقٌ من الذنب إلا هو وحده الذي من

أجلنا افتقر رغم أنه كان غنياً. إنه وحده بدون خطيئة، الذي أخذ على عاتقه خطايا العالم، الذي يريد كل الناس أن يخلصوا، الذي لا يرغب بموت خاطئ وهو محبٌّ للبشرية، ومحسنٌ كبير، رؤوف القلب ومحبٌّ بإخلاص.

لنركضْ إليه أيضاً، لأن كل الخطاة الذين ركضوا إلى الله قد وجدوا خلاصاً.

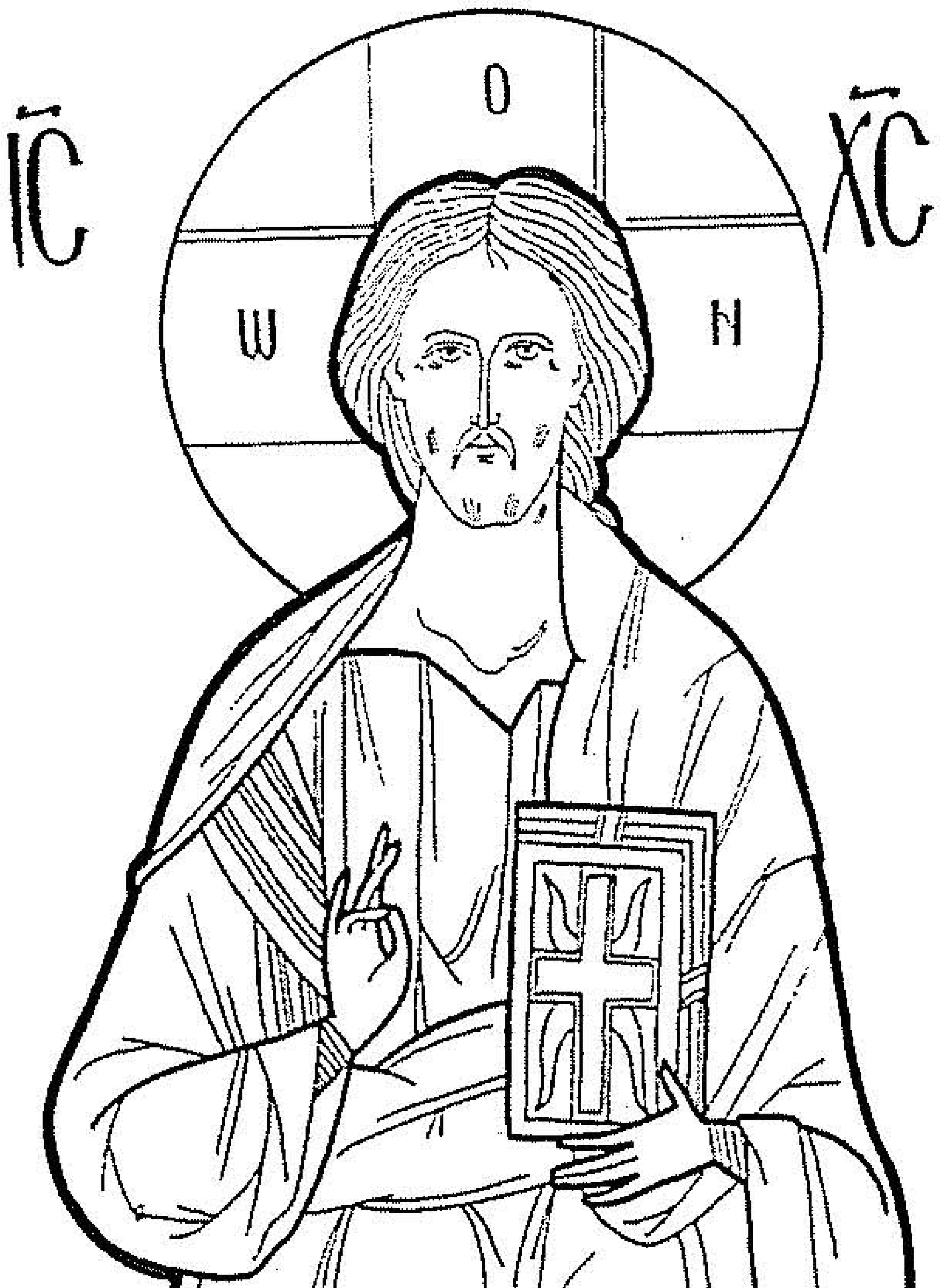

-١٢٧-

الكلمات التي ستُقال عند الدينونة للذين على اليمين والذين على اليسار

عند الدينونة المرعبة، سيقول الرب للذين عن يمينه: تعالوا يا أولاد نوري، يا وارثي ملكوتي المباركين. تعالوا، أنتم يا مَن من أجْلي قد افتقرتم وجعتم وعطشتم، يا مَن لم تحبوا العالمَ ولا كل ما هو فيه. تعالوا، أنتم يا مَن من أجلي قد تركتم كل قوة وفرح أرضيين، وأخوةً وأصدقاء وآباء وأبناء. تعالوا، أنتم يا مَن سكنتم في البراري، على الجبال، في الكهوف والشقوق في الأرض سويةً مع الوحوش، وتبتهجون مع الملائكة في السماء. تعالوا كلكم أنتم الرحماء والمضيافون. تعالوا كلكم، يا مَن سلكتم الطريق الضيقة والوعرة. تعالوا، أنتم مباركي أبي؛ رثوا الملكوت الذي أُعِدَّ لكم منذ خلق العالم.

وللذين عن يساره سيقول: إليكم عني، إلى النار الكامنة داخلاً. إليكم عني، يا قساة القلوب، الذين كرهتم الإخوة والمسيح معاً. أنتم لم تكونوا رحماء ولن تنالوا الرحمة أيضاً. لم تبالوا بأناجيلي السامية وبتلاميذي

المغبوطين، وأنا لن أبالي بنواحكم أيضاً. لقد عشتم حياة ترف على الأرض، وتمتعتم بأشياء طيبة في حياتكم، وهنا لا يوَجد شيء أكثر لكم لتنالوه؛ لقد أخذتم سلفاً ما هو لكم. يومياً كنتُ أناديكم عبر الأسفار (المقدسة)، لكن عندما سمعتم، كنتم تهزؤون بالذين كانوا يقرؤونها. وأنا أقول لكم الآن: إني لا أعرفكم. إليكنَّ عني، أيتها النفوس الملعونة، إلى النار الأبدية المعدَّة للشيطان وملائكته.

وسيدخلون في عذاب أبدي، أما الأبرار فسيدخلون في حياة أبدية.

-١٢٨-

مرة فقط أرغب بالخير:
على هذا ارحمني وخلّصني!

أنتَ تعرف كخالق ماذا خلقتَ. أنتَ تعرف كقاض بماذا حكمتَ (بعد السقوط). أنتَ تعرف، كشخصٍ صارَ إنساناً، ماذا صممَّتَ لخلاصنا.

لقد أعطيتني طبيعة غير ملوَّثة، لكن أبي آدم غطّاها بنجاسة كثيرة وجعلها واهية. وإلى هذه النجاسة أضفتُ أنا التمتّع بأشياء باطلة، وأنا الآن أتحمّل العقوبة على مضض. الفساد لوَّث طبيعتي بالذات، وهكذا أنا مكروب مثل واحدٍ مُمسَك بعاصفة في البحر.

ارحمني كخالق لي. ترأف على ضعفي، كشخص صار إنساناً من أجلي. لا ترفضني بسبب أهوائي، بل بدِّدها عوض ذلك، تسليماً بإرادتي كي تجاهد. لا تزدر بي بسبب نجاستي، بل بدل ذلك التفت إلى انسجامي ورغبتي بتحسين ذاتي.

إن كنتَ قد نفرتَ من أفكاري الملوَّثة، فحوِّلْ انتباهك إلى نُواحي وإلى الطريقة التي بها أدين ذاتي على شهوانيتي.

لديَّ الإرادة، لكني لا أستطيع أن أقول إن لديّ القوة. إني أعطي ما أملك. راعِ حالتي وإن كان يرضيك أن تعطيني ما أفتقد، فامنحني إياه.

أنا عالةٌ (عليك)، مسلوبٌ من الثعبان. أنا واهنٌ، مقيَّدٌ بالفساد. أفتقر إلى القوة لأني مسحوقٌ بالخطيئة. لقد أضعتُ عطيتك وبالتالي أفتقرُ إلى الفهم الكامل. لقد أضعت الشركة معك وبالتالي لا أعرف أين أتوجه.

لا أملك شيئاً. إن وجد أي شيء في حوزتي، فلأنك رثيتَ لي وأعطيته لي. أنا مدقع الفقر؛ وإن كنتُ سأصير غنياً فكله سيكون عطية منك. سيكون كله مِلكك، كما كان مِلْكك تماماً من قبلُ.

أتوسّلُ إليك من أجل النعمة فقط، أعترفُ بأنه إن كنتُ سأخلَّص فسأخلُصْ بك.

-١٢٩-

العدو محتالٌ، أما نحن فمهمِلون لننتبهْ لئلا نخسر الملكوت

هلموا لنبذل جهداً؛ هلموا لنَجْثُ أمام الله، لنفرحْ بثبات ونذرف الدموع كي يترأف علينا باستنارة روحية.

مَيِّزْ حيَل عدونا، المخاصم الذي يكره كل صلاح، الذي يضع في طريقنا الأشراك والاغراءات، والقنيّة المُهلكة، ومديح هذا الدهر، اللذة الجسدانية، بالإضافة إلى توقّع ديمومة هذه الحياة طويلاً، والخوف من الجهادات النسكية، وموقفاً كسولاً من الصلاة، والنعاس عند ترتيل المزامير، والراحة الجسدية.

نحن لا مبالون ومهملون بمقدار ما هو مواظب. نحن غافلون بمقدار ما هو مخادع، حتى ولو كنا نعرف أن أيامنا قد قُصِّرت، وأن الزمان أتى ورب المجد سيأتي في جلال جماله مع قوى ملكوته المرعبة ليجازي كل واحد بحسب أعماله.

أخشى أن يتحقق وعد الرب بما يخصنا: أن الكثيرين سيأتون من المشرق والمغرب، من الشمال ومن البحر،

وسيجلسون مع إبراهيم واسحق ويعقوب في ملكوت السماء؛ لكننا سنُطرح خارجاً.

أتضرع إليك، أيها المسيح، نور الحقيقة، المولود من الآب المبارك، الكائن على صورته وبهاء أقنومه، الجالس على يمين جلاله، يا مَن أنت حياتي وتسبيح الذين يحبونك وفرحهم: خلّصني، أنا الخاطئ، في ملكوتك وجازني لا بحسب أعمالي، بل خلّصني بحسب نعمتك وترأف عليّ بحسب لطفك، لأنك مبارك وممجَّد إلى الدهور.

-١٣٠-

أنا لستُ ما يجب أن أكون عليه، وأخاف أن تُكشف ضلالاتي عند الدينونة.

امنحني توبة وقوة

لماذا تضلّلني الصورة التي اتخذتها؟ لماذا أنا غريب عن الفضيلة، أرتكبُ أفعالاً كريهة أمام الله الذي يرى الكل؟

بعدل سمح الفريسيّون أن تُكشف أخطاؤهم بالمسيح المخلِّص، الذي وَصَم مظهرهم بالمراءاة. وأنا أستحق توبيخاً كهذا أكثر من الكل. لكن عندما يكشف ضميري أخطائي أصير ناقماً، لأن الحقيقة أكثر مرارة للذين يرغبون بالمظهر لا بالجوهر.

بالفعل، لو جرَّد أحدهم مظهري لوجدَ ديداناً في الداخل. إذا أُزيل الغطاء المبيَّض، فسيرى كل واحد ماذا يكمن في القبر. على كل حال، لا يُخرَج هذا على الملأ هنا؛ فحتماً ستمتحنُ النارُ كلَ شيء وتكشف ما أنا عليه في الدينونة.

الويل لي! كيف سأتحمل كشف أعمالي وأفكاري المتمردة! ارحمني يا الله بحسب عظيم رحمتك وبحسب

كثرة رأفاتك امحُ مآثمي. أصغِ إليّ بحسب صلاحك يا سيد، ولا ترفض تضرّعي؛ لأنكَ لا ترفضُ الذين يتوبونَ حقاً.

صحيحٌ أنه حتى توبتي هي غير طاهرة، لأني أُنفقُ في التوبة يوماً وفي الإساءة إليك يومين. لكن أرسلْ إليَ قلبي خوفك وثبّتْ نفسي على صخرة التوبة الحقيقية. ليغلبْ نورُ نعمتك الظلامَ الذي فيَّ.

تنازل إلى صلاتي، أيها الرب الصالح، لا لأني صالحٌ، لأنه لا يوجد صلاحٌ فيَّ، بل بحسب رأفتك وصلاحك العظيم الذي لا يوصف. ارفعْ أعضائي المحطَّمة بالخطيئة؛ أنرْ قلبي المكفهِّر بالشهوة الشريرة؛ خلِّصني من عاداتي الخاطئة، حتى لا يهزمني العدو في النهاية.

-١٣١-

كل رجائي هو في رحمة الله

نعمتك مكّنتني من أن أدعو اسمك يا رب. أيها الصالح وحدك، يا مَن خلقتنا جميعاً، اغفر تعديات عبدك الخاطئ العقوق وخطاياه.

إني عارفٌ يا رب أن خطاياي تفوق (عدداً) خطايا الناس الآخرين جميعاً، لكن لديّ كميناء لجّةَ رأفاتك التي تفوق كل الأشياء. إني لوَاثق أنك ستقبل وترحم جميع الذين يقتربون من صلاحك، لأن معاينة التوبة ترضيك، وأنت تبتهج بجهادات عبيدك النسكية.

هَبْ لي، أنا عبدك غير المستحق، دموعاً، حتى بذهن مستنير، بمحبة وإيمان، أتوسلّ إلى صلاحك الذي لا يُقارن (به شيءً)، فأُشفى مِن قروحي الخفية. أظهرْ لي أنا البائس محبتك. خلّصني من العذاب الذي استحقَ. ليُبشَّرْ بنعمتك في كل مكان، لمنفعة الجموع المهمِلة التي لا تُحصى، ولفائدتي أنا أيضاً.

كما ملأتَ جرار الماء ببركتك، هكذا أيضاً أملأ قلبي بنعمتك وصلاحك. عندما يرفض ولدٌ أمّه المُهتّمة به فلا

توبّخُه، لأن اهتمامها الأمومي يغلب الكل؛ فلا تتجاوز خطاياي نعمتَك أيضاً.

أنا عالمٌ أني سأُعاقَب حتى على الكلمات البطّالة، على الأفكار الشريرة، على مجرد الشهوة. رغم ذلك، حالما تظهر فرصةٌ لإشباع ملذّاتي، فللحال أنسى كل شيء، ومثل أحمق أنغمس في كل نوع من الخطية. إني مختالٌ غروراً، كسيحٌ حانقٌ، كسولٌ، شرهٌ فاسقٌ، شهواني مغطّى بالنجاسات، أتيهُ كل ساعة في الضلال، وأنا لا أدرك ذلك.

وحده الرجاء بظهور نعمتك، أيها السيد المحب البشر، يعزّيني ويحفظني من اليأس. فسواء كنتَ ترغب بهذا أم لا، خلّصني، أيها الرب الكلي الصلاح، بحسب حنوّك العظيم.

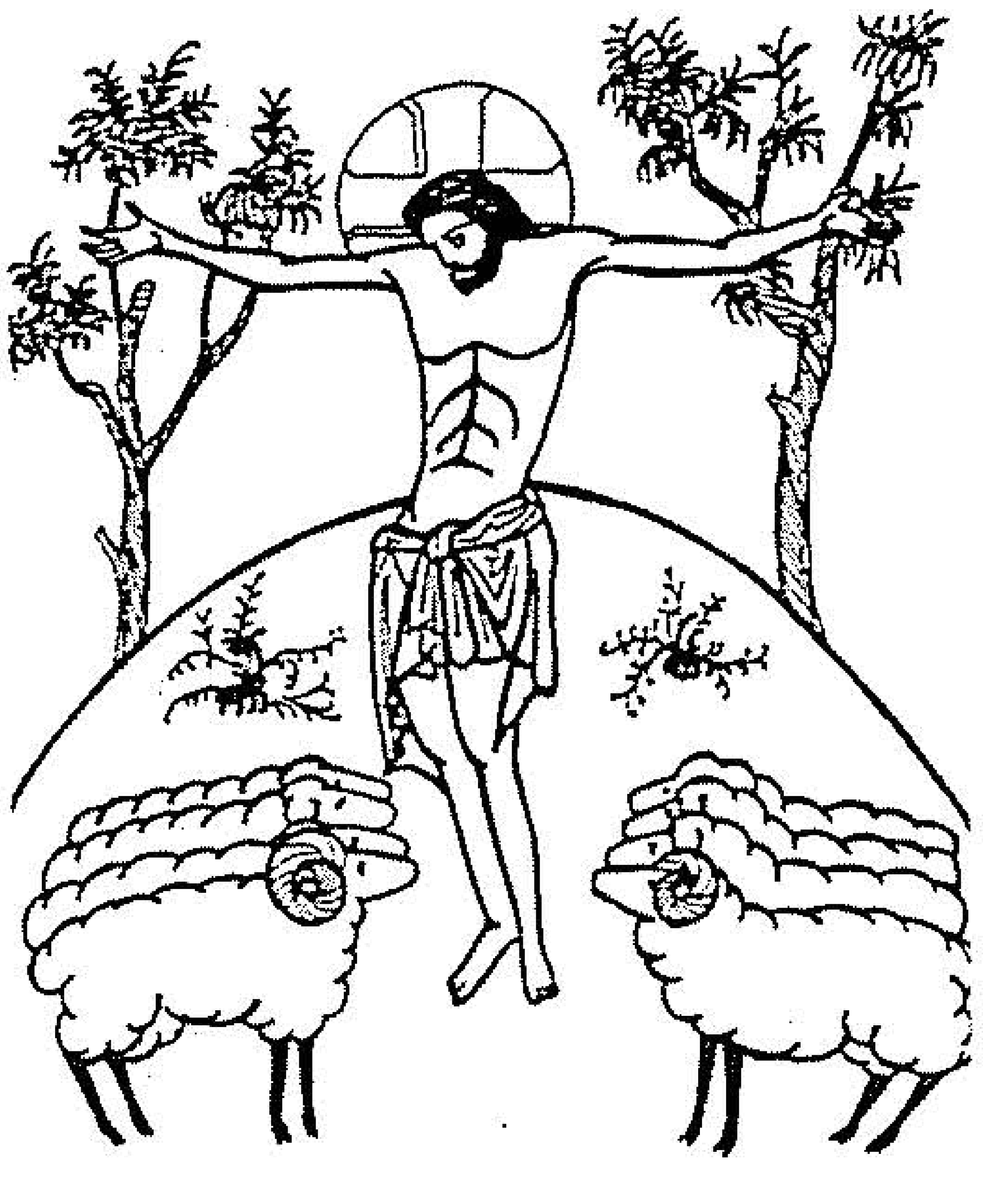

-١٣٢-
في ذلك المكان لا توجد مغفرة
اصرخ إذاً طالما أنتَ هنا

كما لو كنتُ واقفاً أمام عرشك الرهيب يا رب، أنا المدين، أرى أعمالي مكشوفة والدينونة التي ستطلقها عليّ أنا البائس وهي تبعدني من وجهك القدوس، وتطرحني في عذاب لا يُطاق. وكما سأناشدك في ذلك الوقت، هكذا أصرخ الآن مرتعداً بدموعٍ: عادلٌ أنت أيها القاضي الكلي العدل، وعادلة هي دينونتك، التي لا ترتكب خطأ في دينونتي.

كما لو كنتُ واقفاً في ذلك المكان، أخاطبُ الملائكة: أيتها الملائكة الحنونة والفائقة الإشعاع، اذرفي دموعاً من أجلي، لأني لم أرحم حتى نفسي. لقد ازدريتُ رحمةَ الله، فمن العدل حقاً أن أُعاقَب. لقد قدّم الرب لي رحمةً، لكني افتقرتُ إلى الفطنة ولم أولِها الاهتمام اللائق أبداً، والآن ولسببٍ وجيه يتنحَّى عني.

عندئذٍ، من الطبيعي أن تخبرني الملائكة بغضب: ليس هذا أوان التوبة، بل أوان الحساب. ليس للصلاة أية قوة

بعد، وليس لدموع التوبة أية نتيجة. فهنا توجد كثرة من الدموع المذروفة فقط في العذاب. هنا لا تُسمَع تنهدات الانسحاق، بل أنّات وصرخاتٌ من الألم لا تنقطع. اذهبْ ونلْ المجازاة المريرة والقاسية على أعمالك. احترق بالألسنة مثَل مادة نجسة تزوّد بالوقود نار جهنم التي لا تُطفأ. تمتّع، لأنك ابن الظلمة وتحب الظلام الأبدي. حدّقْ نظركَ في الأشباح السوداء نتيجةً لازدرائك النورَ الأبْدي، وابتهجْ.

هناك في ذلك المكان سيكون بكاءٌ وصريف أسنان شديد لا نهاية لهما. واحسرتاه، يا نفسي البائسة المجرَّدة من كل الأعمال، كيف ستحدقين نظرك في القاضي النزيه، فالملائكة ورؤساء الملائكة والذين ولدوا على الأرض سيحضرون هناك بأعداد لا نهاية لها؟

واحسرتاه؛ كم ستعانين آنئذ يا نفسي لكن لن تُسمعي. كل شيء سيتغيّر، كل شيء سيكون مختلفاً. الأبرار سيبتهجون إلى الأبد والخطاة سيقاسون عذاباً أبدياً. فهم لم يُحضروا أي فرح لإله الكل، وسيكونون هم أنفسهم متغرِّبين عن كل الفرح إلى الدهور.

فلنصرخ نحو الله، يا نفسُ، طالما نحن هنا: خلِّصنا، قبل أن نهلك حتى النهاية!

-١٣٣-

سواء استجاب الله لصلواتنا أم لم يستجب فكل شيء هو للأفضل

الرب مانحٌ للعطايا كلي المعرفة. هو يرى ما سيفيد المتضرّع؛ وعندما يرى الرب إنساناً يطلب شيئاً ضاراً أو حتى غير نافع فحسب، فالرب لا يستجيب صلاته ويرفض ما ظنّ أنه صالح. الرب يسمع كل صلاة، والذي لم تُستجَب صلاته فإنه ينال من الرب العطية المخلِّصة ذاتها مثل الذي تُجاب صلاته.

إذا اقترب اثنان من الصالح، وكان أحدهما في حاجة والثاني ذا دَيْن للقضاء، فإنه سيعطي الأول ويغفر للآخر. هكذا يخرج الاثنان بالعطايا من باب المُعطي: الأول ذو الحاجة ينال الخلاص من الضرورة، والمَدين ينال مغفرة دَيْنه.

بكل طريقة ممكنة يُظهر الله أنه مانحٌ للعطايا رحيمٌ. إنه يُغدق علينا محبته ويُظهر لنا لطفه. ولهذا فإنه لا يستجيب حتى ولو صلاةً واحدة غير لائقة إن كانت تلبيتها ستجلب لنا موتاً وهلاكاً.

إنما حتى في هذه الحالة، عندما يرفض أن يمنح ما نطلب، لا يتركنا بدون عطية هي غاية في المنفعة، لأنه يُبعد عنا الضرر ويفتح لنا باب رأفته.

لهذا كن واثقاً أن كل صلاة غير مُستجَابة هي بالتأكيد ضارّة؛ لكن الصلاة المستجَابة هي نافعة. إن مانح العطايا عادلٌ وصالحٌ ولن يترك صلواتك بدون جوابٍ، لأنه في صلاحه لا يوجد خبثٌ وفي حقه لا يوجد حسدٌ.

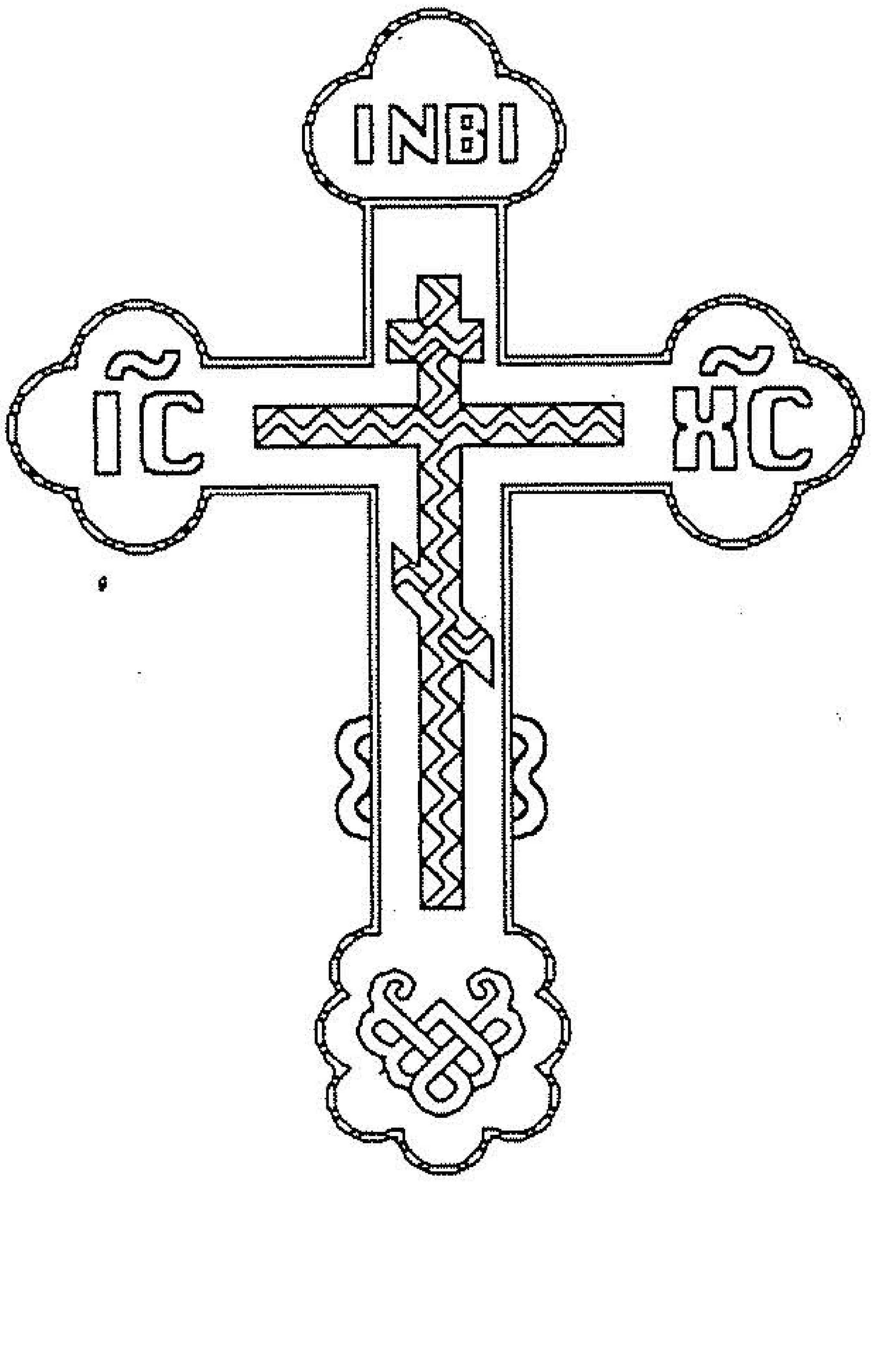

-١٣٤-

الخليقة، الفداء والقيامة

وأنا واقفٌ عند التابوت حدّقتُ نظري في الداخل ورأيت فساد الجسد. في القبر صار مُنفراً. لم يوجد شيء يشبه وجهاً جذاباً؛ بدل ذلك ستُشاهَدَ عظامٌ جافة مفتّتة مغطّاة بالفساد. بالحزن والأسى انصرفتُ عن التابوت، محمولاً بأفكاري إلى ذلك المكان عندما سنُقام لدى صوت البوق ونمجّدك على القيامة المعدَّة لنسل آدم ونقول: السبح لك يا رب الكل!

سمعتُ ما كُتب عن القيامة في الإنجيل؛ شكرتُ الله وهتفت: السبح لطبيعة سلطانك الكلية القداسة، التي في البدء زيّنت طبيعتنا وكرّمتها بصورتك، وفي الأزمنة الأخيرة أرسلت ابنك!.. وخلّصنا من الهلاك وسيأتي ثانية ليُقيم نسل آدم كله. سيُحمَل الأبرار إلى السماء ويُلقَى بالمتمردين إلى جهنم، وسيهتفون: عادلٌ هو حكمك، أيها الرب والملك! السبح لك، يا رب الكل!

-١٣٥-

كيف أوفيك حقك؟
كأس الخلاص سأقبل

الرب طويل الأناة؛ ويجذبنا جميعاً إلى ملكوته؛ لكنه يطالبنا بحساب عن إهمالنا خلال هذا الوقت القصير.

سيقول لنا: من أجلك اتخذتُ جسداً، من أجلك طفتُ منظوراً على الأرض، من أجلك ضُربتُ، من أجلك لُطمتُ على الوجه، من أجلك صُلبتُ ورُفعتُ على الصليب، من أجلك أنت الساكن على الأرض أُعطيتُ خلاً لأشربَ، لكي أجعلك مقدَّساً وسماوياً. لقد منحتك ملكوتي، دعوتكم كلكم أخوتي وأرسلت إليكم الروح القدس.

ماذا في وسعي أن أفعل أكثر من ذلك ولم أفعله لكي أخلّصك؟ الشيء الوحيد الذي لا أريد فعله هو أن أحجز مشيئتك الحرة لكيلا يصير خلاصك مسألة ضرورة، بل من اختيارك(*).

(*) الاب اميل ميرش ابدى ملاحظة قيِّمة: آباؤنا وضعوا نبرة قوية على الحرية: غريغوريوس النيصصي، الذهبي... افرام بينهم. لا قضاء ولا قدر لديهم.

اخبروني، أيها الخاطئون المائتون بالطبيعة: ماذا تحمّلتم من أجلي، من أجل سيّدكم الذي تألّم من أجلكم؟

لنجتمع كلنا معاً لنسجدْ له ونبك أمام الرب الذي خلقنا، ولنقل: كيف يوفيك حقك هذا النَسلُ من الخطاة، أيها الإله غير المفهوم، الصالح، الرؤوف القلب؟ أنتَ يا مَن أنرت الكون كله بالنعمة، أنرْ أيضاً عينَي قلوبنا، حتى نحبك، يا سيد، ومع المحبة نحَقق دائماً مشيئتك القدوسة.

هاهي كأس دمك الرهيب، مملوءة بالنور والحياة. هَبْ لنا فهماً واستنارة، حتى بالمحبة وقداسة الإيمان نقترب منها وتكون لنا لمغفرة الخطايا لا للإدانة.

-١٣٦-

قوِّمْ ذاتك بتأمل الموت وبما يصاحبه

مرعبٌ هو اقتراب الموت من الناس الشهوانيين الخاطئين الضعفاء، الذين لم يحاولوا أن يعيشوا بدون لومٍ في هذا العالم الباطل.

أولئك الذين يتعبون، والذين تمّموا جهادات التقوى، يبتهجون في ساعة الرحيل. وهم ناظرون أمام عيونهم تعب جهادهم العظيم، ويقظتهم وصومهم، وسجداتهم وصلاتهم، ودموعهم ومسوحهم، فإن نفوسهم تبتهج عندما يُستدعون من أجسادهم ليدخلوا إلى الراحة.

لكن الرحيل من هذه الحياة يسبِّب أشد الأسى للخاطئ، الذي يرى أمام عينيه إهماله وثماره المريرة... أية توبة ستشمل آنئذ قلبَ الذي أهمل خلاصه هنا! واحسرتاه، يا نفسي، واحسرتاه! لماذا تهملين حياتك! فجأة سيحين مثولك، ماذا ستفعلين في ذلك المكان إن كنتِ مهملة هنا؟ ماذا ستفعلين أمام عرش القاضي العادل؟ كيف يسلبك العدو وأنتِ لا تدركين ذلك؟ كيف يسرق العدو منك

الثروات السماوية، بينما أنتِ مشتّتة إلى درجة لا تعرفين معها هذا.

ارحمني، يا ابن الله الطويل الأناة والمسيح البريء من الخطية! هَبْ لي، يا مخلّصي، أن أتأمل الحياة الآتية، حتى أتمّم مشيئتك. في عمري المتقدم اجعلني على الأقل مشاركاً في نعمتك، حتى أكمّل على الأقل حياتي القاحلة بنهاية صالحة.

كيف أقف أنا المُهمل أمام عرشك الرهيب؟ كيف أدخل أنا النافذ الصبر والعديَم النفع إلى شركة الذين أثمروا هنا ثمار البر؟ بأية صفات سيعرِّفون بي عندما سيميّز القديسون والأبرار بعضهم بعضاً في أخدارهم السماوية بحسب أعمالهم؟

لا، ليس لديك سببٌ لتتملق ذاتك! فالأبرار والعفيفون والودعاء سيسيرون في نور لا يُقترب منه، أما الخاطئون والكسالى والمتكبرون والمتعالون والذين يعيشون بإهمال لإشباعهم مثلي، فإنهم سيجدون أنفسهم في نارٍ أبدية لا تُطفأ.

كوني صاحية يا نفسي، وصلّي بدموع. اصرخي من كل قلبك حتى تهتدي قبل أن تأتي النهايةُ وتصنعي بداية صالحة.

هَبْ هذا لنا يا رب، بصلوات سيدتنا البريئة من الدنس والدة الإله وجميع قديسيك، لأنك مباركٌ إلى الدهور.

-١٣٧-

الحياة تمضي بسرعة

الأيام تمضي وتتلاشى. الساعات تركض بدون توقف. العالم يدنو من نهايته في الاندفاع المتهوِّر للزمان.

لن يسمح يومٌ واحد لآخر بمصاحبته؛ لن تنتظر ساعةٌ واحدة ساعةً أخرى حتى تنقضيا معاً. كما من المستحيل أن يوقَف الماء المتدفق ويُحجَز بأصابع المرء، هكذا لا يمكن لحياة المولود من امرأة أن تبقى ساكنة.

إن حياة كل شخص يدخل العالم مقاسَةٌ سلفاً وموزونة: ليس لديه الوسائل ولا المقدرة ليخطو إلى ما وراء الحد المعين.

الله عيّن حدود حياة الإنسان، والأيام تقسّم بقياسه المعيَّن إلى أجزاء. كل يوم يُطيح بصورة غير مدركة بأجزائه من حياتك وكل ساعة تركض بدون تقيّد على طول مسيرها مع حصتها الصغيرة. الأيام تُفني حياتك، الساعات تهدم صَرْحها، وأنت تندفع نحو نهايتك، لأنك لستَ سوى بخار.

الأيام والساعات، مثل اللصوص والناقبين، ينهبون

ويسرقون منك. خيط حياتك يبلى تدريجياً ويقصر. فالأيام تسلّم حياتك إلى الدفن، والساعات تسجّيها في القبر، وبالسوية مع الأيام والساعات تختفي حياتك على الأرض.

الحياة التي تعيش اليوم ستنقضي وتتلاشى في نهاية هذا اليوم، لأن كل يوم يقصي جزءَه من حياتك ويمضي معه. كل يوم يسلّم جزءَه إلى الدفن؛ كل ساعة تسجّي حصتها في القبر، وفي حركة الزمان السريعة يمضيان ويختفيان ويتحولاّن إلى العدم.

هكذا سريعاً تنقضي الأيام، هكذا سريعاً أيضاً تتلاشى الحياة؛ لا تملك فرصة للتوقف والوقوف في مكان واحد. لو أمكن للشمس أن تقف ساكنة في الأعالي(٣٠) وللقمر أن يكبح حركاته، لأمكن عندئذ للزمان المعيَّن لحياتك أن يقف أيضاً، وأن يكفّ عن الاندفاع نحو نهايتها.

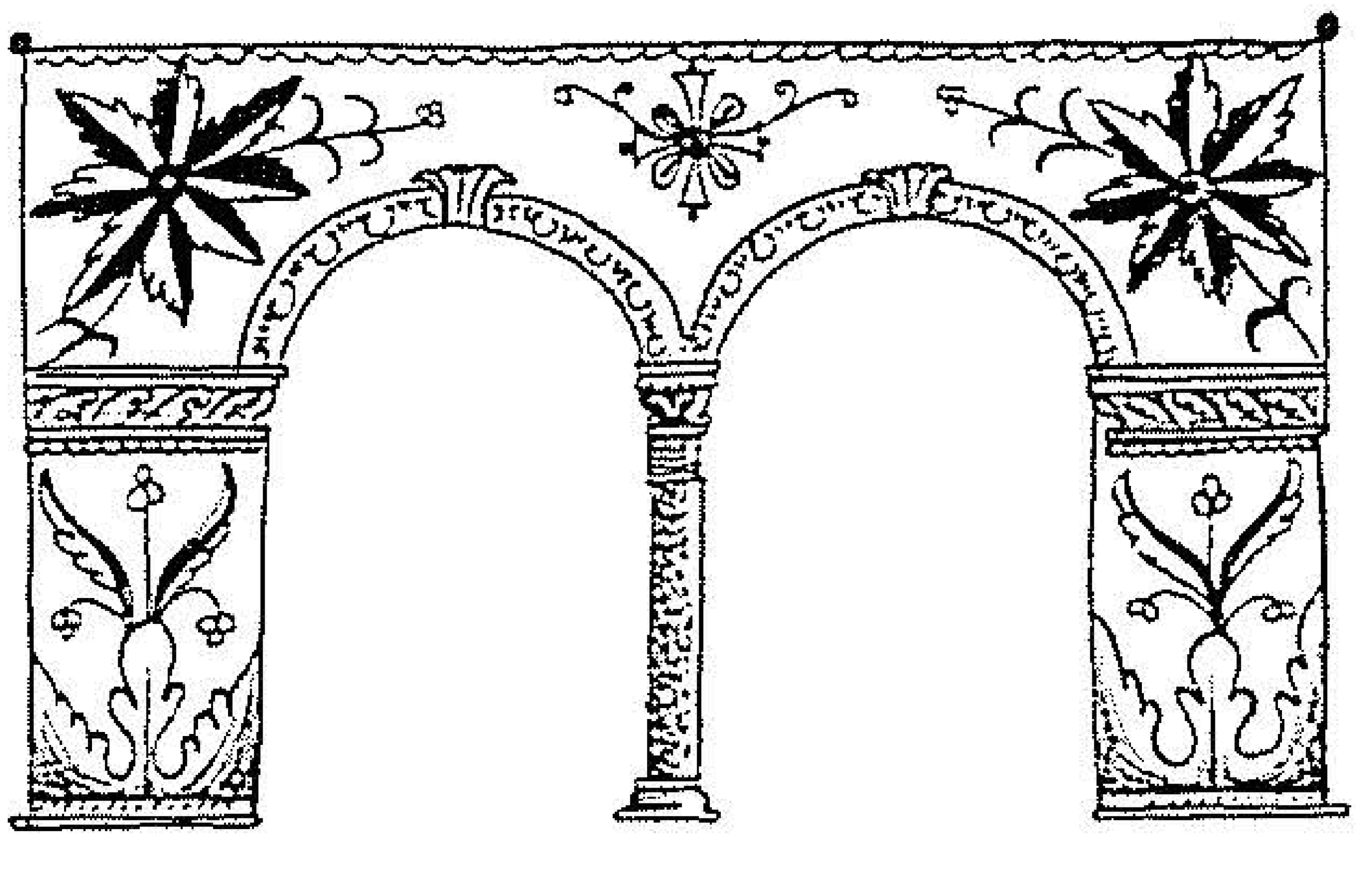

(٣٠) كان الأقدمون يتوهَّمون أن الشمس تدور.

-١٣٨-

الله نفسه سيمنح كل ما هو ضروري؛ ومع ذلك يجب على المرء أن يصلّي أيضاً

الرب الرؤوف يعطينا ما نسأل لا بسبب صلواتنا، (بل) بالأحرى هو يغذّينا بحسب رأفته، لأنه هو الذي خلقنا.

بدون سؤالنا، مَنَحَتْنا جلالتُه الفائقة ابنَه الذي ظهر من أجلنا على الأرض، ورغم أننا لم نسأله أن يفعل هكذا، فإنه قدَّم ذاته كذبيحة من أجل خلاصنا.

فإنه مَن سأل الآبَ أن يسلّم ابنه للموت على الصليب؟ أو مَن استعطف الابن أن يموت من أجل الخطاة؟

لأي بارٍّ خطر فكرُ سؤال الآب أن يبذل ابنه من أجل الآثمين؟

إنه حقاً حدثٌ لا سابق له، وهذا الفكر لم يخطر على بال أي إنسان.

فالآب سلّم ابنه للموت على الصليب، وبموته نال الخطاة حياةً. وإن كان قد وهب أعظم كنز له، فهل يمكن أن يوجد عائق يمنع الإنسانَ الذي يطلب إلىَ مُحبٍ للبشر كهذا أن ينال كل ما يحتاج إليه؟

إذاً لنطلبْ إليه، لأنه يعطي. لنعلنْ له رغباتنا، لأنه لن يرفضنا. لنتوسّل إليه، لأنه يريد أن يُشبع حاجاتنا بكل طريقة ممكنة.

إنما وفقاً لعدله فهو يتوقّع أن تأتي صلاتنا إلى بابه، وهذه الصلاة صالحت العدالةَ والخطاة.

إن كانت الشفقة أَن تُغفَر التعديات بدون صلاة، فستكون انتهاكاً للعدالة، ولن يتأمل أي واحد العدالةَ من بعد.

فالبشرية ستُسلِّم تدريجياً للتمرّد، لأن القاضي سيفشل في تطبيق صولجان التأديب. كل إنسان سيستمر في الخطية بسرور، إذ لن يوجد أحدٌ لتأديبه.

شفقةٌ كهذه، مهما تكن مفيدة لنا، ستتحول إلى ضرر، لأنها ستمنح الخطاة سبباً لتكثير خطاياهم دائماً.

إنه لأمرٌ صالح أن تحضّ العدالةُ على استعمال العقوبة في العالم أيضاً. لأن العقوبة تدفع الخاطئ للارتعاد وتُنهي طرقه الخاطئة. إنها تؤدي بالخاطئ إلى انسحاق القلب، لأنه هو مَن جلب العقوبة على نفسه. وهكذا يضع الخاطئ آثامه جانباً، ولو لفترة قصيرة، ويطلب مغفرة خطاياه.

مَن هو الذي لن يشكرك يا ربنا؟ لأن عدلك صالحٌ وعقوبتك هي عطية النعمة. أنت حقاً صالحٌ في كل أفعالك.

بصولجان عدلك تُذلّ رؤوسَ الخطاة الذين يخطأون بعجرفة مخزية ولا يمكنهم الاهتداء بدون دافع استثنائي.

لتكن عقوبتك يا رب المتحدة بحنوّك مرشدة لنا. لتساعدْنا يمناك للاستفادة من عقوبتك.

-١٣٩-

في الداخل أبقى كما أنا: كم سيستمر هذا؟ حوِّلني لأن النهاية وشيكة

عجباً، إني أحاول جمع أفكاري من كل زاوية، لكني أفشل، لأن الأشياء المسؤولة عن أهواء أفكاري تبقى فيَّ. لم أُعتَقْ بعدُ من تأثير الأرواح الشريرة التي تعيقني في طريقي الصاعد نحو السماء. لم أسلِّم بعدُ بثقَل كثرة خطاياي. فتلك التي أغرقتني في الخطية تُثمر الآن في لحم جسدي.

إلى متى سأستمر أنا التعيس في الثمالة بغياب الخمرة، وأُهمل ذاتي كما لو كانت غريبة عني؟ مثل خادم شرير يدبِّر مؤامرات لضرر سيده، هكذا أخطِّط أنا لأقوِّض خلاصي، كما لو كان واحد آخر سيعاني الضرر الذي تُحدثه أعمالي. لا أريد أن أكون يقظاً؛ يومياً أُهينُ صبرك العظيم. شرّي يقف أمام عينيَّ. ومع ذلك ستكون صبوراً عليَّ بحسب حنوّك.

هَبْ لي يا رب دواء الاهتداء، كي أُشفى من كل شرٍّ كامنٍ فيّ. هَبْ لي أن أدخل إلى عالم الإمساك. هَبْ لي أن أُنفِق كل أيام حياتي في انسحاق قلبٍ. أنِرْ عينَي ذهني

المكفهرّتين، حتى أندفع بغيرةٍ لأباشر العمل في الطريق المؤدية إلى كرمك.

زمان حياتي أفَل، وأُنفِقَ في اهتمامات باطلة وأفكار مخزية. حياتيْ قد بلغت الساعةَ الحادية عشرة. وجِّه، يا رب، سفينتي بحمولتها، وهَبْ فَهماً لهذا التاجر العاجز، حتى أتأمل صفقتي طالما لديّ وقت. لأن ساعة الرحيل قد أزفّت؛ إنها تلوح سلفاً أمام عينيّ، وأنا أرتعب للغاية عندما أرى فقري.

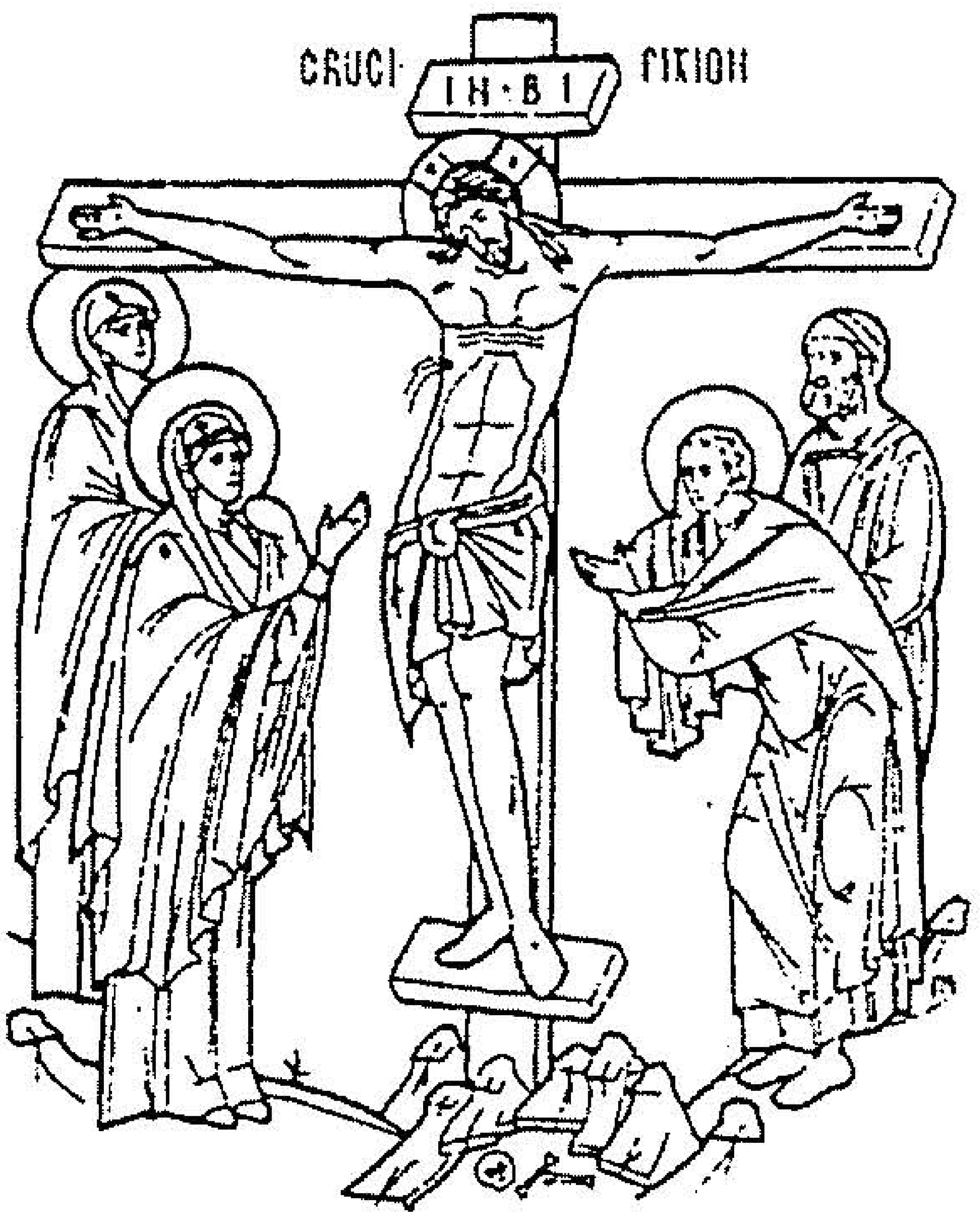

-١٤٠-

لا يوجد خفي: الله يرى كل شيء.
من الأفضل أن تسارع إلى تنظيف ذاتك طالما يوجد وقت ما بعدُ

إني أخطأ وأختبئ بحيث لن يراني إنسانٌ؛ لكن الرب يراني عندما أفعل الشر.

إذا رآني إنسانٌ فأنا خاز؛ لكني لا أشعر بالخزي أمام الله. ترأف عليّ وارحمني، أيها القاضي وسيد القضاة! إذا اهتدى إنسانٌ، سواء (كان الأمر) عاجلاً أم آجلاً، فإنك ستقبله.

ماذا عليّ أن أفعل بخطاياي؟ لا أعرف. لا يمكن لذهني تخيّل ماذا يمكنني أن استعمل لأرحض ذاتي وأنظفها؟ إذا أخذتها في رأسي لأغسل بالماء، فعندئذ لن تكفي البحار ولا الأنهار لتنظيفي. ومع ذلك إذا غسلتُ ذاتي بالدم والماء اللذين فاضا من ضلع ابن الله، فعندئذ سأُنظَّف، وستنهمر عليّ الرأفة.

ارتعد، أيها الخاطئ، من مجيء الدينونة؛ بالدموع والحزن اركض إلى التوبة. طالما الصلاة ما تزال مقبولة، فصلِّ هنا، حتى تكون مقبولاً هناك. صلِّ، طالما لم يأت الموت بعد ولم يحمل نفسَك، لأن كل صلاة وتضرّع عندئذ سَيكونان بدون جدوى، حتى الدموع آنئذ ستكون غير نافعة.

-١٤١-

صلاة إلى والدة الإله:
وإن كنتُ نجساً، فاقبلي صلاتي
وامنحيني توبة ودفاعاً عند الدينونة

أيتها السيدة الكلية-التسبيح الكلية الصلاح، يا ينبوع الرأفة، يا لجَّة المحبة للبشرية! رغم أني نجس ومتورّط في هذا العالم الزاني والمتمرّد، ومهملٌ بالقول والفعل معاً وحتى بممارسة إرادتي الحرة، ولا أريد سوى هدم حياتي، فمع ذلك أنت أم الله المحُبة والحنون لا تنفري مني، أنا الخاطئ الفاسقَ، وقبل أن يكون الوقت متأخراً جداً اقبلي التضرعات المقدَّمة إليك من شفتيّ الدنستين، وبصلواتك الكلية الصلاح والسارَّة، استعطفي القاضي حتى يرحمني.

افتحي لي خيريّة ابنك الرؤوف؛ توسلّي إليه كي يغضَّ الطرف عن سقطاتي الخاطئة؛ وجِّهي أفكاري إلى التوبة؛ أظهري لي أن أكون مجتهداً في حفظ وصاياه؛ لا تدعيني أصير لقمةً لمُفسد النفوس، للشيطان. لكن بشفاعاتك جدّديني أنا الذي شختُ في كثرة الخطايا. صحّحي حياتي البالية، حتى إذا اقتنيتك شفيعة لي، أيتها السيدة الكلية الصلاح، أقف بدون خوفَ أمام القاضي وأنجو من العذاب المرعب. بشفاعتك اجعليني وارثاً للمجد؛ استعطفي خالقي كي أنال هذا.

-١٤٢-
ويلات

الويل للذي يسكن في الخطية ولا يستطيع أن يجد الوقت للتوبة، لأنه في ذلك المكان سيتوب، نائحاً على خطاياه بدون فائدة إلى الدهور.

الويل للذي يقول: سأتمتع الآن في الجسد وسأتوب في عمر متقدم، لأن الموت سيقتنصه مثل شرْك وسيُفنى رجاؤه.

الويل للذي يختار عن معرفة أَن يُخطأ ناوياً أن يتوب عندما يبزغ الصباح، لأنه لا يعلم ماذا سيُحضر اليومُ الآتي أو الليل السابق له.

الويل للذي يعرف ما هو صالح ولكنه يقدّم اليدَ للشرير، لأنه في يوم خروجه ستأخذه الملائكة الأشرار.

الويل للذي بأعماله الشريرة يدفع جاره إلى الإثم، لأنه في يوم الدينونة سيقدّم حساباً عن كل خطأٍ قد أغرى الآخرين على ارتكابه بطرقه الشريرة.

الويل للذي ترك العالم ومازال ملتصقاً بالطريقة الأرضية من التفكير، لأنه يشبه الإنسانَ الذي وضع يده على المحرات ومازال ينظر وراءً إلى ما يتعلّق به.

الويل للذي يتّبع رغبات الجسد ويشمئز من الاهتمام بنفسه، لأن حياته وآماله ستتبدد على الأرض.

الويل للذي لا يسارع ولا يستعمل كل قوته ليهيئ نفسَه هنا، حتى يكون مبرَّراً هناك.

-١٤٣-

مبارك الخالق والفادي الرحيم

مبارك الصالح والرحيم الذي يبتهج بنا عندما نتوب ويقبلنا بدون ملامة بفرحٍ بحسب محبته.

مبارك الصالح الذي يفتح بابه للصالحين حتى يدخلوا إلى الداخل، والذي لا يُغلق باب صلاحه أيضاً على الأشرار إذا اهتدوا.

مبارك الذي يمنح كل واحد وسيلة ليرث الملكوت السماوي: فالأبرار يرثون بأعمالهم الصالحة، والخاطئون بالتوبة.

مبارك الذي من أجل الخاطئين سلّم ذاته للموت والشتم، الذي قاسى الذلَّ لكي يمنح الخاطئين حياةً.

مبارك الذي خلَقنا بحسب حنوّه، الذي نزل ليخلّصنا بالصليب، والذي سيأتي ثانية ليقيمنا في يوم مجيئه العظيم.

تعطَّفْ عليّ أيضاً، أيها الصالح، بحسب صلاحك، لأعاين رأفتك في يوم الدينونة، وأن أرتّل لك تسبيحاً مع الأبرار إلى دهر الدهور.

-١٤٤-

مَن هو مطوَّب؟

طوبى للذين أحبّوا الله، وبسبب محبتهم له توصّلوا إلى احتقار كل ما هو أرضي.

طوبى للذين يبكون نهاراً وليلاً، لأنهم سيُخلَّصون من الغضب الآتي.

طوبى للذين يتواضعون طوعاً، لأنهم سيُعلَّون.

طوبى للذين يمارسون الإمساك، لأن أفراح الفردوس تنتظرهم.

طوبى للذين يبلون أجسادهم باليقظة وبمآثر النسك، لأن بهجة الفردوس قد أُعدَّت لهم.

طوبى للذين نظّفوا ذواتهم من كل الأفكار الشريرة، لأن الروح القدس يسكن داخلاً فيهم.

طوبى للذين من كل نفسهم يحبون الله أكثر من هذا العالم، لأنهم سيُدعَون أصدقاء المسيح.

طوبى للذين حملوا صليبهم طوعاً وتبعوا المسيحَ بنشاطٍ، لأنهم سيبلغون إلى أورشليم العلوية.

طوبى للذين طوّقوا أحقاءهم بالحق وحفظوا مصابيحهم جاهزة متوقِّعين العريس السماوي، لأنهم سيحكمون معه في الملكوت السماوي.

طوبى للذي نال عينَي الذهن واستعملهما بدون فشل لتأمّل البركات المستقبلية، لأنه سيرث تلك الصالحات الآتية.

طوبى للذي لا يفشل أبداً في حفظ يوم الدينونة أمام عينيه، ويجاهد كي يوجَد مَرْضياً لله في ذلك اليوم.

طوبى للذي هزم اللذات الجسدانية، لأنه سيكون جسوراً في محاكمة اليوم الأخير.

طوبى للذي بكى لله في الأرض، لأن ثماره ستُثمر في السماء.

-١٤٥-

الموت: والرجاء في مواجهته

تقول النفسُ: في نَزْلِ الجسد قد عشتُ، وسيد البيت قد أرسل في طلبي ولا أستطيعَ البقاء بعدُ أكثر من ذلك، لأن الذي أرسل في طلبي يحثّني على الذهاب، قائلاً: اخرجي من بيتك؛ اتركي هذا المسكن. فأبقَ إذاً في سلامٍ أيها الجسد، أيها المسكن المؤقت، ولأعاينك بفرحٍ في يوم القيامة.

الذين سيأخذونني أتوا عاجلاً، ولم أعرف هذا. الذي أرسل في طلبي يقف الآن أمامي، ولا أشعر به. خلّصني، يا ربنا، من الدينونة التي سقط فيها الشيطان كاره أبنائك الذين بدون عيب، وأرشدني سوية مع قديسيك إلى الملكوت، حتى أسبّحك وأمجدّك معهم.

تقول النفسُ للجسد: كم مُرَّة هي كأسك الممزوجة بالموت! كم مرعبٌ هو هذا الزمان وكم صعبة هي ساعة المحاكمة! ودِّعْ العالم، أيها المسكن المريح الذي فيه سكنتُ طوال ما شاء الرب.

أي حزن سيملأ قلب الخاطئ في الساعة التي يجلس فيها المسيحُ القاضي على عرشه الرهيب؟ كل الأجيال

ستقف أمامه وكل أسرار القلب ستُكشَف! رهيبة هي الدينونة، رهيبٌ هو القاضي، رهيبة هي تلك الساعة!

طوبى للذي احتمى بصلاحك في ذلك الوقت يا رب!.

لقد قبلتُكَ يا ابن الله، كي ترافقني في رحلتي، وعندما جعتُ أشبعتني، يا مخلِّص العالم.

لتفرَّ النارُ من أعضائي؛ ليقصها أريجُ جسدك ودمك. لتكن المعمودية لي سفينة لا تغرق.

فلأعاينْك أنا، يا ربنا، في ذلك المكان في يوم القيامة.

-١٤٦-

إلى مَن سأركض؟
خلّصني من أجل اسمك

الويل لي، أنا المُثقَل بخطايا لا سابقة لها! عددُ تعدياتي يتجاوز عدد حبات الرمل في البحر وهي تبتليني مثل قيود حديدية كثيرة جداً، لأني أفتقر إلى الجرأة لأحدّق نظري في أعالي السماء.

إلى مَن سأركض، إن لم يكن إليك، يا محب البشرية؟ "ارحمني يا الله بحسب عظيم رحمتك، وبحسب كثرة رأفاتك امحُ إثمي".

إليك أركض، بحسب صلاحك ومحبتك العظيمين.

إياك أغضبتُ، ومع ذلك إليك أركض بحسب مقدرتك العظيمة على مغفرة شرِّي.

إياك أهنتُ، ومع ذلك إليك أركض، بحسب عظيم محبتك للبشرية، وأنا أتضرّع وأصرخ إليك: "اصرفْ وجهك عن خطاياي، امحُ كل مآثمي. قلباً نقياً اخلق فيّ يا الله، وروحاً مستقيماً جدّد فيّ"!

لا أملك شيئاً أقدمه لك، ولا عملاً صالحاً ولا قلباً نقياً؛ إنما إذ أرجو في رأفتك فإني أضع نفسي، لكي تحضرني إلى الانسحاق وحفظ وصاياك الراسخ، لكي لا أسقط بسهولة كبرى في الخطية مرة ثانية، بل أخدمك من الآن فصاعداً بوقارٍ وحقيقةٍ كل أيام حياتي.

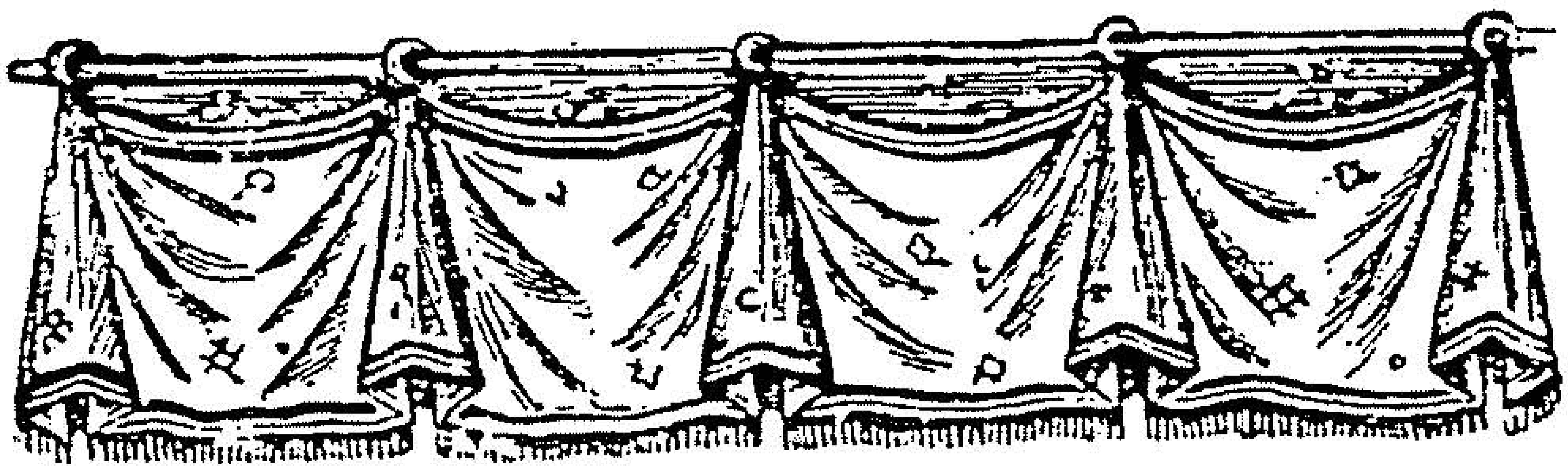

-١٤٧-

صلاة إلى والدة الإله
للمعونة في الحياة، والموت، وبعد الموت

أيتها السيدْة العذراء، أم الله المحب البشرية! وجِّهي قلبي إلى الانسحاق والتواضع؛ املئي عينيَّ بدموع مخلِّصة وأنيريهما بنور صلواتك كي لا أرقد في نوم الموت.

انضحيني بزوفى رأفتكِ وطهّريني. اغسليني بدموعي فأبيضَّ أكثر من الثلج.

يا أم ربي يسوع المسيح، اقبلي هذا الاعتراف المخزي وتضرّعي. اسلبي ذهني واحفظي بقية حياتي في التوبة بدون إثمٍ.

في أوان رحيل نفسي الوضيعة من جسدي، عندما - الويل لي! - سأضطر إلى الكلام مع الأعداء خارج الأبواب؛ عندئذ أيتها السيدة اذكريني بعينك الرحيمة؛ حرّريني من كل المعذِّبين الذين لا يرحمون ومن مراقبي أمير هذا الدهر المرعبين؛ كوني محاميتي واتلفي كل سجل لخطاياي(٣١). قوديني مخلَّصاً وغير مخزيَّ إلى عرش ابنك وأبيِّه غير المولود والروح الكلي قدسه؛ إلى الثالوث خالق النورَ، الواحد في الجوهر.

(٣١) تذكّرنا هذه الصلاة بالتضرّع إلى والدة الإله في صلاة النوم الصغرى: " . . . وأما في وقت خروج نفسي الشقية، فأحدقي بي مطيفة حولي، ولقتام مناظر الشياطين الأشرار أقصي عني بعيداً. . . الخ " . (المترجم)

-١٤٨-

القديسون أنفسهم سيتعجبون من مجدهم

طوبى للإنسان الذي يبلغ إلى الجرأة في يوم الدينونة الرهيب ويسمع مع الآخرين: تعالوا، أنتم مباركي أبي، رثوا الملكوت المُعدَّ لكم منذ خلق العالم!

عندئذ، عندما يرى كلُّ إنسان نفسه في النور، سيبدأ بفحص ذاته ويتعجّب: هل يمكن أن أكون أنا هذا؟ وكيف اتفق لي أنا غير المستحق أن انتهيتُ إلى هنا؟

الملائكة ستأتي بفرحٍ عظيمٍ وتبدأ بتمجيد القديسين وتطري على حياتهم: جهاداتهم، إمساكهم، يقظتهم، صلواتهم، فقرهم الطوعي، حرمانهم الكامل للقنيّة، تحمّلهم للعطش، مثابرتهم على الجوع، حفظهم المستمر للانتباه الورع، فرحهم بالعري المحتَمَل من أجل محبة المسيح: كل هذه ستعلنها الملائكة بفرحٍ للأبرار.

وجواباً سيقول الأبرار لها: لم يوجد حتى يوم واحد عندما أمكن فيه أن نوجد متحلّين ولو بعمل صالح واحد.

ستذكّرهم الملائكة مرة أخرى بالأوقات والأماكن حيث أتمّوا أعمالهم، وأيضاً ستتعجّب منهم وتبدأ بتمجيد الله،

وهي ترى أن أجسادهم تشعّ في السموات أكثر من النور: وهكذا يُجَازون على الحرمانات والأحزان الصغيرة التي عانوها طوعاً على الأرض.

لقد وجدوا كنزاً مخفياً في حقل، وإذ باعوا كلَ شيء لهم على الأرض حظوا به فوجدوا لؤلؤة رائعة. بمعاناتهم نالوا هذه اللؤلؤة وأخفوها فيهم، ولو كانوا غير مدركين لها، فإنهم هيأوا لأنفسهم لباساً طاهراً عديم الفساد.

ليس تعب الجهاد النسكي عظيمٌ، بل عظيمة هي الراحة التي يُحدثها. فالتعب لتحقيق الإمساك محدودٌ، لكن الراحة التَي هي مكافأته تدوم إلى دهر الدهور.

-١٤٩-

في مواجهة الموت نتعزّى بالقيامة

المسيح الناهض سيظهر في الأعالي بمجد. سيُحيي الأموات ويُنهض الذين في القبور. أولاد آدمٍ، الذي خُلق من ترابٍ، سيقومون معاً ويسبّحون الناهض من الأموات.

فلا تكن قلوبكم حزينة، أيها المائتون. سيأتي يوم الرب ويوقظنا ويُفرحنا نحن الرقود. الذين حفظوا الشريعة سيوقَظون أمام الرب، وستبتهج الملائكة بيوم القيامة.

فلا تكنْ نفوسنا حزينة، أنتم يا مَن أُفتديتم بالصليب ودُعيتم إلى الملكوت. يوم الرب سيأتي؛ سيُعطي صوته للموتى والموتى سيقومون ويسبّحونه.

لنمجّد ونسجد ليسوع، كلمة الله، الذي بحسب محبته، أتى وخلّصنا بصليبه، ويأتي ثانية ليُقيم أولاد آدم في اليوم العظيم عندما سيشعّ جلاله.

لا تحزنوا، أيها المائتون، على فسادكم. فالمسيح الملك سيشعّ من الأعالي؛ إنه وهو الكلي القدرة سيدعو الأموات وبالتالي يُقيمهم من قبورهم، ويُلبسهم المجدَ في ملكوته.

إذا حكمَ الموتُ وبدَّد طبيعتنا لأن آدم خطئ وانتهك الوصية، أفلا نُبرَّر نحن عندئذ ونُخلَّص أكثر بآلام المسيح الذي غلب الموت وبرَّر طبيعتنا؟

لقد منح ربنا المائتين رجاءً وتعزية، لأنه هو نفسه قد قام من القبر، قاهراً الموت، وواعداً بالقيامة والحياة، ووهب بركات عظيمة لآدم ولكل أولاده.

فالسبح والمجد للآب الذي خلقنا، وللابن الذي خلّصنا بصليبه، وللروح القدس، المعزّي، للثالوث الكلي التسبيح غير المُدرك، الذي يُقيم الأموات ويُلبس أجسادهم المجدَ.

-١٥٠-

السبح لقيامة الأموات

كل الموتى سيقومون عند صوت البوق ويرنمون تسبيحاً للآب والابن والروح القدس، لِمَن يُقيم أجسادهم.

أيها الآب الذي خلقتَ آدم من تراب، أيها الابن الذي بصليبك خلّصتَ نسل آدم من الهلاك، أقِمني وضعني على يمينك كي أمجّد اسمك!

لك أسجد، أيها المسيح مخلِّصنا. أنت مقيم ومخلِّص كل الراقدين الذين تعمَّدوا باسمك واعترفوا بصليبك وبموتك.

مباركٌ هو المسيح، الذي وعَدَ بالحياة والقيامة لأولاد آدم في يوم مجيئه. نحن أيضاً سنقوم ونعلّيه سوية مع القديسين الذين كانوا مرضيين له.

السبح لك! بقيامتك منحتَ جميع النسل المائت الرجاءَ في الحياة والقيامة. ونحن نقدّم لك تسبيحاً، لأنك أنت مقيمٌ لكل جسد.

أيها المائتونَ، علّوا وسبّحوا الذي بموته أفرغ سلطان الموت ووعَدَ جميع النسل المائت بالحياة والقيامة.

فالنفس التي طلبت ملجأً في صليبك وورثَتْ الكنز الأبدي الذي لا يفسد، لتسبّحك وتعلّيك سوية هي والأرواح التي تحصيها مع مراتبك.

للائقٌ أن نسجد للآب الذي أرسل لنا ابنه الوحيد، الذي خلّص نسلنا من الموت والشيطان، والذي يجلس من عن يمين أبيه متضرّعاً لرأفته من أجلنا جميعاً.

السبح لله دائماً

أنجزت الترجمة في عيد مار أنطونيوس الكبير (١٧ كانون الثاني، ٢٠٠٠)، وأنجز التصحيح الأول في ١٩/٥/٢٠٠١ بحمد الله وشكره.